

الإسقاط

في مناهج المستشرقين والمبشرين

الدكتور شوقي أبو خليل

دار الفکر
بيروت - لبنان



دار الفکر للطباعة
بيروت - لبنان

الدكتور شوقي أبو خليل

الاستباط بأري

في مناهج المُستشرقين والمُبشِّرِينَ

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الرقم الاصطلاحي: ١٠٣٢,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-206-6

الرقم الموضوعي: ٢٩٠/٢١٠

الموضوع: استشراق وتبشير

العنوان: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين

تأليف: د. شوقي أبو خليل

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي: مطابع المستقبل - بيروت

عدد الصفحات: ٢٤٠ ص

قياس الصفحة: ٢٥ × ١٧ سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع

والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي

والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن

خطي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية

برقياً: فكر

فاكس ٢٢٣٩٧١٦

هاتف ٢٢١١١٦٦، ٢٢٣٩٧١٧

<http://www.fikr.com/>

E-mail: info @fikr.com



الإعادة الأولى

١٤١٩ هـ = 1998 م

ط 1: 1995

تمهيد

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾

[الأنعام : ٤٤/٦]

لفتت نظري عبارات في مقدمة كتاب (الإسلام كبديل) للدكتور مراد هوفمان ، سفير ألمانية السابق بالمغرب ، كتبتها زعيمة الاستشراق في ألمانية اليوم ، الأستاذة الدكتوراة أنا ماري شيل ، ومفاد هذه العبارات :

« الإسلام مثل نمطي لتلك التأويلات الظلمة المشوهة » .

إن هذه الصورة الظلمة التي رُسِمَت ، رُسِمَت بدقة ويهدف الإساءة ولو بهتاناً وكذباً ، رُسِمَت في مكاتب (الاستشراق) ، وروّجت لها - وهي تعلم إفكها - مؤسسات التنصير ، التي تعرف بين الناس باسم (التبشير) .

الاستشراق - الذي عرّفه المهتمون به - بأنه تيار فكري تمثّل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي ، شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته ، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي ، معبراً عن الخلفية للصراع الحضاري بينها .

أو هو : البحث في علوم الشرق وعقائده وآدابه ، وإعداد الدراسات فيها .

أو هو : علم تاريخ شعوب الشرق وحضارتهم ولغاتهم وآدابهم وفنونهم ومعتقداتهم ، نشأ بدافع ديني في الغرب ، جعل دراساته في خدمة التنصير (التبشير) الذي مهد للاستعمار ، فالاستشراق في مراحلہ الأولى عاش في كنف الكنيسة ترعاه وتوجّهه ، فلعّب دوراً كبيراً في التحضير للاستعمار السياسي والثقافي والعسكري .

أرجع بعضهم بدايات الاستشراق إلى الحروب الصليبية وفشلها عسكرياً ، فبدأت حرب الكلمة ، ويُعدّ عام ١٣١٢ م بداية الاستشراق اللاهوتي ، عندما قرّر جمع فيينا إنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية .

والاستشراق لم يزل يعمل ، على الرّغم من أن (جاك بيرك) قد أدلى بتصريحات عام ١٩٧٥ م ، أعلن فيها عمّا سمّاه : انتهى زمن الاستشراق ، وتقرّر أن يطلق على أي مؤتمر للاستشراق : (مؤتمر العلوم الإنسانية) .

والتنصير ما زال يعمل ، ومن أواخر جهوده الملفتة للنظر (مؤتمر كولورادو) ، الذي انعقد في ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٨ م ، إنّه من أخطر المؤتمرات التبشيرية ، فهو يذكّر بمؤتمر القاهرة التبشيري عام ١٩٠٦ م ، ومؤتمر لكنو في الهند عام ١٩١١ م ، ومؤتمر القدس ١٩٢٤ م ...

ومن الكلمات المخرجة في المؤتمر ، والتي اعترف بها المؤتمرون :

- الحقائق العلمية صدمت المعتقد المسيحي .

- الإسلام هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً مع البساطة

والوضوح .

وتساءل بعض المؤتمرين : كيف يمكن للعقل السليم أن يفهم الأقانيم الثلاثة واحد

في ثلاثة ، والثلاثة في واحد ؟!

لقد عُقد (مؤتمر كولورادو) تحت شعار : (مؤتمر أمريكة الشَّالِيَّة لتنصير المسلمين) ، وحضره مئة وخمسون مشتركاً يمثلون أنشط العناصر التَّنصيرية في العالم ، ودامت اجتماعاتهم أسبوعين ، وبشكل مغلق ، فوضع استراتيجية بقيت سرِّيَّة لخطورتها ، مع وضع ميزانيَّة لخطَّتهم مقدارها مليار دولار ، وجمَّع المال وأودع في مصرف أمريكي ، وأنشأ المؤتمر معهداً باسم (صموئيل زويمر) وذلك في شمالي كاليفورنية ، واختير (دون ماكري) مديراً له ، والهدف الأوَّل والأخير تنصير كلِّ المسلمين ، مليار مسلم ، وصدرت التَّوصيات في ألف صفحة .

كلُّ هذه الجهود ، ومجتمعهم غير متمسِّك بمسيحيَّته ، خمسة بالمئة فقط ملتزم بها ، فلمْ هذه الجهود ؟ ولمْ هذه المليارات تُنفقُ لتنصير العالم الإسلامي ؟ وحرىَّ بهم أن تتركز جهودهم في الغرب ، لإعادة النَّاس إلى دينهم إن استطاعوا - بما يملكون من فكر ومنطق وعلم .. - إلى ذلك سبيلاً .

وهذه الجهود (التَّنصيريَّة) الَّتِي وضع الاستشراق جهوده بين أيديها ، اعتمدت على الكذب والإفك أوَّلًا وأخيراً ، (بإسقاطات) أدنوا بها ، وما زالوا يترغون في أوحالها ، ولكن المسلم على يقين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصْدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٦/٨] .

والحمد لله ربَّ العالمين أوَّلًا وآخرًا

الدكتور شوقي أبو خليل

دمشق : ٢٥ رمضان المبارك ١٤١٥ ،

٢٥ شباط (فبراير) ١٩٩٥ م .

تصدير

نخاطب المستشرقين الحاقدين المفترين فقط ،
والمبشّرين الأوربيين المستغفرين المتعصبين حصراً
ليس غير .

بسم الله القائل في محكم التنزيل ٠٠ ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ ﴾ [العنكبوت : ٤٦/٢٩] .

وصلّى الله على محمد بن عبد الله ، المرسل رحمة للعالمين ، القائل : لا يكذب
المؤمن ، ثم تلا الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النحل : ١٠٥/١٦] .

من الأمور المثيرة للعجب في عالم الاستشراق والتبشير والاستعمار والغزو الفكري ،
الأكاذيب التي تُفترى ، والأضاليل التي تُخترع ، والشبهات التي يُروّج لها ، دون رادع
من دين ، أو رقيب من ضمير ، أو مانع من علم أو حقيقة ...

ومن هذه الأكاذيب والافتراءات - على سبيل المثال لا الحصر - قول (ولیم
غلاستون)^(١) في معرض حديثه عن المسلم : « إِنَّهُ الْإِنْسَانُ الَّذِي لَا إِنْسَانِيَّةَ فِيهِ »^(٢) .

ويقرّر المسيو كيمون : « إِنَّ الدِّيَانَةَ المَحْمَدِيَّةَ جَذَامٌ بَيْنَ النَّاسِ ، أَخَذَ يَفْتَكُ بِهِمْ
فَتَكّاً ذَرِيعاً ، بَلْ هِيَ مَرَضٌ مَرِيعٌ » .

(١) ولیم غلاستون Gladstone : (١٨٠٩ - ١٨٩٨ م) ، سياسي بريطاني ولد في لستربول ، زعيم حزب
الأحرار ، ورئيس وزراء بريطانياة أواخر القرن الماضي .

(٢) الهلال والصليب ، ص : ٢٥ .

ويقول لطفي لوفتيان : « إنَّ تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدِّماء والحروب والمذابح »^(١) .

ويذكر كارل بروكلمان - للحقيقة والتَّاريخ ، متناسياً كلَّ ساحة الإسلام - :
« يتحقَّ على المسلم أن يعلن العداوة على غير المسلمين ، حيث وجدهم ، لأنَّ محاربة غير المسلمين واجب ديني »^(٢) .

ويقول وليم موير : « إنَّ سيف محمد والقرآن هما أكثر أعداء الحضارة والحريَّة والحقيقة الذين عرفهم العالم حتَّى الآن عناداً »^(٣) .

وتيودور نولداكه أوصله علمه إلى : « أنَّ سبب الوحي النَّازل على محمد ، والدَّعوة التي قام بها ، هو ما كان ينتابه من داء الصرع (!) »^(٤) .

عبارات يفوح منها تنن الافتراء ، ورائحة المستنقعات الآسنة التي رتع فيها وترعرع التَّعصُّب والحقد والبهتان الذي يُعمي ويُصم ، والذي لا تزال أوربة - حتَّى يومنا هذا - ساجدة فيه راتعة .

وجاء منشور البابا يوحنا بولس الثاني ، الصادر في أواخر سنة ١٩٩٠ م ، ليطالب الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة بدعم مالي كي يضاعف التَّبشير جهوده ، « فالإسلام هو

(١) التَّبشير والاستعمار ، ص : ٤١ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلاميَّة ، ص : ٧٨ ، وبروكلمان Brockelman : (١٨٦٨ - ١٩٥٦ م) مستشرق ألماني ، له : تاريخ الآداب العربيَّة ، وتاريخ الشعوب الإسلاميَّة .

(٣) الاستشراق ، ادوارد سعيد ، ص : ١٦٨ ، ووليم موير Muir : (١٨١٩ - ١٩٠٥ م) مستشرق اسكتلندي ، خدم في حكومة الهند ، له : حياة النَّبي ، والتَّاريخ الإسلامي .

(٤) حاضر العالم الإسلامي : ٣٤/١ ، وتيودور نولداكه Noeldeke : (١٨٣٦ - ١٩٣٠ م) ، ولد في هبورغ ، من مشاهير المستشرقين الألمان ، اشتغل خصوصاً في اللُّغات السريانيَّة والعربيَّة والفارسيَّة ، له : تاريخ القرآن .

الذين الوحيد الذي يتحدّى انتشار المسيحية ، وهناك تزايد في الإقبال على الإسلام ، وانحسار في المناطق المسيحية في الشرق الأدنى وإفريقية ، وهناك جسور للإسلام تتزايد في جنوبي أوربة «^(١) .

عجيب ، غريب موقفهم من الإسلام ، على الرغم من تسامحه تجاههم ، هذا التسامح الذي ما زالت الكنيسة تنكره ولا تدنو من ساحه ، وراحت تستغل جهل الأوربيين لتعاليم الإسلام وتاريخه ، وضحالة معارفهم عن الشرق وأهله ، فشوّت صورة الإسلام في نفوس رعاياها .

والعقل النَّزيه ، البعيد عن التَّعصُّب والروح الصَّليبيَّة يتساءل : ماذا حمل الإسلام إلى أوربة ورفضته ؟

إنَّ حضارة الإسلام بهرَّتْهم عندما كانوا يتسكَّعون في ظلمات الجهالة ، لا يدرون أين يذهبون ، « إنَّ أوَّل شرارة ألهبت نفوس الغربيِّين ، فطارت بها إلى المدينة الحاضرة ، كانت من تلك الشَّعلة الموقدة الَّتِي كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ماجاورها ، وعمل رجال الذين المسيحي على إطفائها مدَّة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، واليوم يرى أهل أوربة مانبت في أرضهم ، بعدما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحريَّة ، وطوالع المدينة الحاضرة »^(٢) .

شعلة حضاريَّة موقدة ، بدأ عصر التَّأثُّر غير المباشر بها منذ فتح الأندلس سنة ٧١١ م ، وحتى تأسيس مدرسة (سالرنو)^(٣) في منتصف القرن السادس عشر

(١) المنشور هو الأوَّل منذ سنة ١٩٥٩ ، يحتوي على مئة وثلاث وخمسين صفحة ، وهو نتيجة خمس سنوات من العمل والتجوال على أعمال الكنائس ، واستغرقت كتابة موادّه سنتين ، انظر :

Tye New York Times INTERNATIONAL, Wednesday, january 32, 1991..

(٢) من ردِّ الإمام محمد عبده على هانوتو رئيس وزراء فرنسا .

(٣) سالرنو Salerno : مدينة في جنوب إيطاليا .

تقريباً ، ليبدأ عصر الترجمة من العربية إلى اللاتينية ، خصوصاً في جنوبي إيطاليا ، ثم بدأ عصر (الاستعراب) ، الذي يمثل قمة التأثير العربي الإسلامي وأوجه .

والمنصفون من الغربيين يعرفون ذلك ، يقول غوستاف لوبون^(١) : « كان تأثير العرب في الغرب عظيماً للغاية ، فأوربة مدينة للعرب بحضارتها ، ونحن لانستطيع أن ندرك تأثير العرب في الغرب إلا إذا تصوّرنا حالة أوربة عندما أدخل العرب الحضارة إليها »^(٢) .

ويقول سيديو : « لقد حاولنا أن نقُل من شأن العرب ، ولكن الحقيقة ناصعة يشع نورها من جميع الأرجاء ، وليس من مفرّ أمامنا إلا أن نرد لهم ما يستحقون من عدل إن عاجلاً أو آجلاً »^(٣) .

ويقول نيكلسون : « وإن أعمال العرب العلمية اتّسمت بالدقّة ، وسعة الأفق ، وقد استمدّت منها العلم الحديث - بكلّ ما تحمل هذه العبارة من معان - مقدّماته بصورة أكثر فاعلية ممّا نفترض : »^(٤) .

وعلى الرغم من هذا كلّه ، يحرص الاستشراق الذي عاش في معظم مراحلها في كنف الكنيسة ، ترعاه وتوجّهه وتنفق عليه ، على طمس كل فضل لأمتنا في عقيدتها وتاريخها وأثرها في الحضارة الإنسانية ، وحيناً ألّف (ناصر الدين دينيه)^(٥) كتابه (محمد رسول الله)^(٦) ثارت ثورة المستشرقين ، لأنّه لم يعبأ بما كتبوا ، وأخذوا عليه أنّه

(١) غوستاف لوبون Lebon : (١٨٤١ - ١٩٣١ م) من فلاسفة علم الاجتماع الفرنسيين .

(٢) G. Lebon La Civilisation des Arabes P.614 .

(٣) L. Sedillot Histoire Generale des Arabes Vol. 11 P.131 .

(٤) R.A. Nicholson: A Literary History of the Arabs P.281 .

(٥) ناصر الدين دينيه (ألفونس إيتين دينيه) ولد في باريس سنة ١٨٦١ ، وتوفي سنة ١٩٢٩ ، عاش فنّاناً بطبعه ، صاحب لوحات نفيسة قيّمة ، أعلن إسلامه في اجتماع حافل بمدينة الجزائر سنة ١٩٢٧ ، شيّد لنفسه قبراً في بلدة (بوسعادة) في الجزائر دفن فيه .

(٦) ترجمة د . عبد الحليم محمود ، ود . محمد عبد الحليم محمود ، طبع دار المعارف - القاهرة .

لم يقيم وزناً لإنتاجهم في السيرة النبوية ، وأن اعتماده إنما كان على ابن هشام وابن سعد ...

ونبه (دينيه) إلى أن « الافتتان بالمستشرقين لأساس له » ، وهذا أمر طبيعي ، لأنهم أساتذة في فكر رفضوه ، وعقيدة الحدو بها ، وتاريخ حقدوا عليه ، وحضارة يحرسون على إداثتها وهضمها حقها .

وهذا مقاله (رجاء غارودي) : « لم يدرس الغرب الإسلام دراسة صحيحة في الجامعات الغربية ، وربما كان هذا مقصوداً مع الأسف » .

و (فردريك نيتشه) يقول عن رجال الكنيسة : « لا يخطئون فقط في كل جملة يقولونها ، بل يكذبون ، أي إنهم لم يعودوا أحراراً في أن يكذبوا ببراءة أو بسبب الجهل »^(١) .

ولذلك ألف الكاتب البريطاني (جان دوانبورت) كتاباً عنوانه : (اعتذار لمحمد والقرآن) ، اعتذرفيه عن التصورات والأحكام التي كانت شائعة في الغرب حول نبي الإسلام ، والقرآن الكريم .

واللورد البريطاني المسلم (هدي)^(٢) يوضح : « أن مدبجي وناسجي هذه الافتراءات لم يتعلموا حتى أول مبادئ دينهم ، وإلا لما استطاعوا أن ينشروا في جميع أنحاء العالم تقارير معروف لديهم أنها محض كذب واختلاق » .

(١) عدو المسيح ، المقطع ٣٨ .

(٢) سيف الرحمن رحمة الله فاروق هدي ، توفي بلندن سنة ١٩٣٥ عن إحدى وثمانين سنة ، تخرج في جامعة كمبردج ، وحصل على درجة علمية في الرياضيات ، اشتغل بالتعليم والصحافة والهندسة ، كان - رحمه الله - رجلاً واسع الأفق ، زكي الفؤاد ، حصيف الرأي ، عالي الهمة ، قوي العزيمة ، لم يدخر جهداً ، ولا مالاً ، في سبيل نشر الإسلام ، (انظر تقديمه لكتاب : المثل الأعلى في الأنبياء ، الذي ألفه خواجه كال الدين أوائل هذا القرن) .

إِنَّ حُرِّيَّةَ الرَّأْيِ عندهم أن تقول ما يرضي الكنيسة فقط ، وما يؤيد أكاذيبها وافتراءاتها ، فحينما ألّف (برناردشو)^(١) كتاباً عن (محمد - ﷺ -) ، منعت الكنيسة من إصداره ، فلم يرَ النور قط .

وحينما رأى (تولستوي)^(٢) الحملة الظّالمة على الإسلام ، وعلى رسوله ، كتب رأيه في هذا الدّين الَّذي أُعجب به ، واعتذر من رسول الله ﷺ الَّذي نال إكباره ، فكان جزاؤه على ذلك - أي على كلمة الحق - أن حرّمه البابا من رحمة الله .

قال (تولستوي) عن رسول الله ﷺ : يكفيه فخراً أنّه فتح طريق الرُّقى والتّقُدُّم ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلاّ شخص أوتي قوة وحكمة وعلماً ، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال .

هذا ما كان في زمن (تولستوي) ، أما اليوم فقد أوردت صحيفة (هيرالد تريبيون) البريطانية الخبر التالي :

فصلت الكنيسة الإنجليزيّة بجنوب إنجلترا ستين قسّاً بعد إعلانهم التشكيك في العقيدة المسيحية ، وكان القس (أنطوني خريمان) قد ألّف كتاباً شكّ فيه في عقائد الكنيسة الإنجليزيّة وذكر أن التّثلّث وتجسيد الإله في المسيح والصّلب ، كلّ هذا يعتبر المنطق والعقل ، وقد حظي القسيس (أنطوني) بتأييد عددٍ لا بأس به من قساوسة الكنيسة الإنجليزيّة ، مما دعا الكنيسة إلى فصله وفصل ستين معه من الخدمة .^(٣)

وبعد هذا كلّهُ ...

(١) جورج برناردشو Shaw (١٨٥٦ - ١٩٥٠ م) كاتب روائي ومسرحي إيرلندي ولد في دبلن ، اشتهر بالتهكّم والتّشائم ، له : رجل القدر ، تلميذ الشّيطان ، السّلاح والرجل ...

(٢) لاون تولستوي Tolstoi (١٨٢٨ - ١٩١٠ م) كاتب قصصي روسي ، أشهر رواياته : الحرب والسّلام ، وأنا كارينا .

(٣) عن نهج الإسلام ، العدد ٦٠ ، أيار ١٩٩٥ ، ص : ١٨١ .

الدِّفاع عن عقيدتنا وتاريخنا وأعلامنا ، دفاع عن وجودنا وأصالتنا وجذورنا .

ولقد آن الأوان ، أن نتجاوز مرحلة الدِّفاع الَّتِي شَغَلْنَا بِهَا أَكْثَرُ مِنْ قَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمَنِ ، لنعبر إلى مرحلة إظهار الحقيقة ، والصُّورة الصَّحيحة (لإسقاطاتهم) .

والإسقاط (Projection) حيلة لاشعورية تتلخَّص في أن يَنْسِبَ الإنسان عيوبه وتقائصه ، ورغباته المستكرهة ، ومخاوفه المكبوتة الَّتِي لَا يَعْتَرِفُ بِهَا ، إلى غيره من النَّاسِ ، أو الأشياء ، أو الأقدار ، أو سوء الطَّالع ... وذلك تنزيهاً لنفسه ، وتخففاً ممَّا يشعر به من القلق أو الخجل أو النقص أو الذنب ^(١) .

فالإسقاط هو العملية النَّفسية الَّتِي نخلع بها تصوُّراتنا ورغائبنا وعواطفنا على الآخرين ، أو على موضوع من الموضوعات ، وهذا ما ينطبق على الكنيسة والاستشراق والتبشير ...

إنَّ كُلَّ الأكاذيب والشُّبهات والتَّشويه ، والدَّسِّ الخبيث ، والافتراءات الَّتِي وُجِّهَتْ إلى عقيدتنا وتاريخنا وأعلامنا ، نحن منها براء قطعاً ، ولكن الكنيسة والمستشرقين والمبشرين وجَّهوها إلينا خبثاً وحقدًا ، صليبيَّة ومكرًا ، لنقف موقف المتَّهم المدافع عن نفسه ، الَّذِي يسعى بكلِّ ملكاته وإمكاناته لدفع ما وُجِّهَ إليه ، خشية الإدانة .

ومن يدرس (كتابهم المقدَّس) وما ينشرون وما يروِّجون ، يعلم علم اليقين أن ما حاولوا وصم الإسلام به كذباً وإفكاً ، هو من قبيل الإسقاط المدروس ، الإسقاط الواعي ، الَّذِي يكذب وهو يعلم أنَّه يكذب ، « لا يخطئون فقط في كل جملة يقولونها ، بل يكذبون ، أي إنَّهم لم يعودوا أحراراً في أن يكذبوا ببراءة وبسبب الجهل » .

إنَّه الإسقاط الصَّادر عن لجان ومؤتمرات ، وعن حَمَلَةِ الأقلام الموظَّفة ، وعن معاهد الاستشراق في جامعاتهم .

(١) أصول علم النَّفس ، د . أحمد عزت راجح ، المكتب المصري الحديث ، الإسكندرية ، الطَّبعة الثامنة ، سنة ١٩٧٠ .

وإسقاطهم هذا - مع منطلقاته الكذّابة الخادعة - من أسبابه وأهم عوامله ، شعورهم بالنقص ، بسبب عقلانيّة الإسلام وعلميّته ، وخرافات عقيدتهم وأسرارها ورموزها المتناقضة ... ولا عجب أن يقفوا في حيرة وهم في غاية الاندهاش والإحباط ، وهم يرون مقاعد كنائسهم خاوية ، مع إلحاد رعاياهم بهم وبعقيدتهم ، ويرون في الوقت ذاته ، الإسلام أول العقائد انتشاراً في العالم ، على الرغم من مليارات الدولارات التي تنفق في إفريقية وجنوب شرقي آسيا في التبشير ، مقابل عفوية دعاة الإسلام وبساطتهم على الأغلب .

ونرى في ختام هذا التصدير ، انطلاقاً من ضرورة (الأمن الثقافي) ، تأسيس مركز للجنة دائمة ، تستقبل تساؤلات الشّباب المسلم ، وما يستجد من افتراءات التبشير وأكاذيبه ، لتفنيدها وفضحها ، والإجابة عنها من قبل متخصصين غيورين ، لتنشر ضمن كتاب يصدر دورياً في لغات ثلاث : العربيّة ، والإنكليزيّة ، والفرنسية .

وأخيراً ...

سنورد في هذا الكتاب معظم إسقاطاتهم وبشكل موثّق ، وذلك من قبيل إظهار الحقيقة ، والصدق والموضوعيّة ، وكفى الإسلام دفاعاً ، أمام مُدانٍ يحرص على إدانته .

ولن نشرح كلّ شيء عن الإسلام ، بعد كلّ إسقاط سنورده ، بل سنذكر ما يناسب لتوضيح فكرة ، أو شرح موقف ، فبعض الربيع ببعض العطر يُختَصَر .

ولكن سنذكر كلّ إسقاط ، ونشرح وبشكل مفصّل ، أنّ هذا الإسقاط فيهم وفي عقيدتهم وفي سلوكهم ، وفي كتبهم ، ومع ذلك يحاولون وصم الإسلام به .

سنوضّح ذلك بالتّوثيق الكامل ، دون خشية لوم ، فاللّوم لا ينصب على من يوضّح حقيقة ، بل يجب أن ينصبّ على مروجّ الكذب والخداع والتّعصّب و (الإسقاط) ، ولقد قيل بحق : من أمسك الثّعبان من ذيله ، أمسك به الثّعبان ، فلن نمسك الثّعبان إلّا من رأسه .

جاء في (كتاب الأمثال)^(١) ، باب (تعيير الإنسان صاحبه بعيب هو فيه) ، قال الأصمعي : من أمثالهم في هذا : « رَمَتْنِي بدائِها وأنسَلَّت » .

قال أبو عبيد (القاسم بن سلام) ، ويحكى عن المفضل أنه كان يقول : هذا المثل قيل لرُهم بنت الخزرج ، وكانت امرأة سعد بن زيد مناة بن تميم ، وكان لها ضرائر ، فسأبتها إحداهن يوماً ، فرمتها رُهم بعيب هو فيها ، فقالت ضُرَّتْها : « رَمَتْنِي بدائِها وأنسَلَّت » ، فذهب مثلاً .

إنَّ هذه الإسقاطات والشُّبهات لم تكن وليدة هذا العصر أو ما قبله ، إنَّها منذ أن شرع الله الدِّينَ الحنيف ، ولكن كبر على المشركين أن يدينوا بهذا الدِّينَ ، فصالوا وجالوا في إنكارهم ومعارضتهم واقتراءاتهم ، والدِّينَ قويم ومتين بعزة الله له وتأييده ، وهؤلاء مثلهم :

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يَضُرَّها ، وأوهى قَرَنه الوَعْلُ
وتأتى هذه الدِّراسات أمانةً في أعناقنا لتقديم الحقيقة ، وبيان البغي الذي يقدمه الاستشراق والتَّبشير ، وصدق الله العظيم القائل :

﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ، وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّى بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ، فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ... ﴾ [الشورى : ١٢/٤٢ - ١٥] .

ونحن في هذا الكتاب ، نخاطب المستشرقين الحاقدين ، لا كلَّ المستشرقين ، والمبشِّرين الأوربيين المستعمرين حصراً ليس غير .

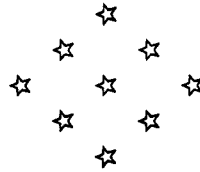
(١) تأليف : الإمام الحافظ أبي عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق د . عبد المجيد قطامش ، طبعة : دار المأمون للتراث بدمشق ، سنة : ١٩٨٠ .

اللَّهُمَّ أَرِنَا الْحَقَّ حَقًّا ، وَارْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ ،
وَأَرِنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا ، وَارْزُقْنَا اجْتِنَابَهُ .

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٠/٩] .

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرأ

الدكتور شوقي أبو خليل



الإسلام بدعة نصرانية

قال البابا (أينو شانيوس الثالث)^(١) عن محمد ﷺ : إنه المسيح الدجال^(٢) .

ورئيس بعثات التبشير في المشرق (صموئيل زويمر)^(٣) قال مخاطباً المسيحيين في رسالة دعاها : (وهديناه النجدين The Two Roads In The Quran) : لستم مضطرين إلى تغيير داخلي في عقيدتكم ، ولا إلى تجديد الطبيعة ، إذا رغبت في اعتناق الديانة الإسلامية^(٤) ...

وفي كتاب (العقيدة والشريعة في الإسلام) قال (جولد تسيهر)^(٥) : « فتبشير النبي العربي ، ليس إلا مزيجاً من معارف وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها ، والتي تأثر بها تأثراً عميقاً ، وراها جديرة بأن توظف عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه »^(٦) .

(١) اينوشانيوس الثالث Innocent : (١١٩٨ - ١٢١٩ م) .

(٢) حاضر العالم الإسلامي : ٨٣/١ .

(٣) صموئيل زويمر Zwemer : (١٨٦٧ - ١٩٥٢ م) مبشر أمريكي حاق ، حرر مجلة (العالم الإسلامي) ، والتي عرفت بعدائها السافر للإسلام والمسلمين .

(٤) ينابيع المسيحية ، ص : ٦ .

(٥) اجنيس جولد تسيهر Goldziher (١٨٥٠ - ١٩٢١ م) مستشرق مجري يهودي ، درس في برلين ولايبسغ وبودابست والأزهر ، (موسوعة المستشرقين ، ص ١١٩) .

(٦) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، ص : ٤٤١ .

وقال فيليب جتي^(١) : « لقد نسج الإسلام في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيس ، إلا أنه تأثر من بعد بطقوس صلاة الأحد التي يمارسها النصارى في البيع »^(٢) .

وقال كارل بروكلمان^(٣) : « اقتبس النبي عن التوراة فكرة الخطيئة الأصلية .. وإنما ترجع معتقداته فيما يتعلق بالعالم الآخر إلى مصادر يهودية ، وهكذا تتصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسية وبابلية قديمة »^(٤) .

وقال غوستاف لوبون^(٥) : « وإذا أرجعنا القرآن إلى أصوله ، أمكننا عد الإسلام صورة مختصرة من النصرانية ، والإسلام يختلف عن النصرانية - مع ذلك - في كثير من الأصول ، ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي »^(٦) .

وصدر عن جامعة كبرج كتاب يهاجم الإسلام ، تحت اسم : (المهاجرة) وتكوين العالم الإسلامي^(٧) ، بقلم : باتريشيان كرون ، وميكل كول ، الباحثين في دراسات التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط ، ومما جاء في الكتاب المذكور :

الإسلام دين وضعي ، أسست قواعده في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان^(٨) ، أما

(١) فيليب جتي ، ولد في لبنان سنة ١٨٨٦ م ، ودرس في الجامعة الأمريكية في بيروت ، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة وأتم دراسته ، وعيّن مستشاراً لوزارة الخارجية الأمريكية في شؤون الشرق الأوسط .

(٢) تاريخ العرب المطول ، ص : ١٨١ .

(٣) كارل بروكلمان Brockelmann : (١٨٦٨ - ١٩٥٦ م) مستشرق ألماني .

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص : ٧٠ .

(٥) غوستاف لوبون : (١٨٤١ - ١٩٣١ م) مستشرق فرنسي منصف إلى حد بعيد ، دافع عن حضارتنا الإسلامية ، وانتقد سياسة القهر التي عسفتهم بها الدول الأوربية المستعمرة .

(٦) حضارة العرب ، ص : ١٥٨ .

(٧) Hagariem: The Making of Islamic World

(٨) عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي : (٦٤٦ - ٧٠٥ م) ، من أعظم الخلفاء ودهاتهم ، نشأ في المدينة المنورة ، فقيهاً واسع العلم ، متعبداً ، ناسكاً ، انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه فضبط أمورها ، توفي في دمشق ، (الأعلام : ١٦٥/٤) .

ما كان قبل ذلك فقد كان شيئاً اسمه (الهاجرية) ، و (الهاجرية) هي عبارة عن كلام كتبه الأسقف (ذيبوس) يقول فيه : إنَّ النَّبِيَّ يَبْشُرُ بدين يعد استكمالاً للديانة (الهاجرية) ، وإنَّ هذا الاسم ينسب إلى السيدة هاجر زوجة إبراهيم وأم إسماعيل .

ووصل التَّمويه بالكاتبين إلى حدِّ التَّضليل والتَّشكيك في حدوث الهجرة النَّبويَّة ، ويقولان : إنَّ اسم هاجر هذا تمَّ تحريره بعد ذلك في القرن الثَّامن الميلادي ، ليعطي معنى الهجرة من مكَّة إلى المدينة ، وهي واقعة يشكُّك فيها الباحثان ، ويحاولان الادِّعاء بأن هذه الهجرة لم تحدث قط ^(١) .

وأصدر (إلياس المر) في لبنان سنة ١٩٨٥ ، كتاباً عنوانه : (الإسلام بدعة نصرانيَّة) .

وهكذا ... تتَّفَق آراء الكنيسة والمستشرقين - عموماً - على أنَّ الإسلام دين مقتبس من اليهوديَّة والنَّصرانيَّة ، « ومن هنا هان على المسلم المؤمن - إذا استثنينا بعض الأحوال - أن يُسَلِّمَ بمعظم ما تنطوي عليه العقائد المسيحيَّة » ^(٢) .

ولسنا هنا في موقف الدِّفاع عن الإسلام ، وتوضيح أنَّه دين جديد ، ويختلف كلُّ الاختلاف عن المسيحيَّة واليهوديَّة ، وخصوصاً المسيحيَّة المعاصرة ، الموجودة الآن على اختلاف كُتُبها وأناجيلها ومذاهبها ، فهي في جميع ألوانها وفروعها عبادة وطقوس ، وانحراف عن الوحدانية إلى التَّثليث ، ومن هنا كان (الإسقاط) ، فالمسيحيَّة الحاليَّة ،

(١) وادَّعى الكاتبان أنَّ مصادر كتابها يهوديَّة ، ثمَّ يقولان : إنَّها قبطيَّة وأرمنيَّة وسريانيَّة مجهولة أهلها المؤرِّخون ، وليس أدل على ضلال هذه الوجهة وتكذيبها ، من أنَّ هذه المصادر لو كانت موجودة لما جهلها الباحثون خلال هذه الأجيال المتتابة ، ولنشروها ، وقد نشروا ما هو أتفه منها ، (القرن الخامس عشر الهجري ، والتَّحذِّيات في وجه الدَّعوة الإسلاميَّة والعالم الإسلامي ، ص : ٢٩٥ ، أنور الجندي ، المكتبة العصريَّة) .

(٢) تاريخ العرب الطَّوَّل ، ص : ٢ .

بدعة يهودية ووثنية ، وهذا ثابت علمياً ، ولكن الكنيسة أسقطت ذلك على الإسلام ، وهذا الدليل :

يقول الدكتور فرانز غريس في كتابه (تبدّد أوهام قسيس)^(١) : إنَّ البحوث والاستقصاءات العلمية ، أثبتت ، وأقامت البرهان والدليل على أنَّ ثمانين إصحاحاً من التسعة والثمانين للأنجيل الأربعة ، ماهي إلا صورة ونسخة عن حياة وتعاليم (كرشنا)^(٢) ، و (بودا)^(٣) ، فيالها من نتيجة محزنة للنصارى ، وحصيلة مفجعة للنصرانية ، ويا له من منظر ومشهد أليم لأجل شخص المسيح ، إن العالم النصراني أخذ بالسقوط والانهيار ، إنّه يغطس ويغوص ، ويرسب ويسوخ^(٤) .

إنَّ عيد ميلاد (أغني Agni) ، الابن الوحيد لـ (ساويستري Sawistri) ، أي الأب السماوي ، احتفل به منذ أربعة آلاف عام قبل ميلاد يسوع المسيح^(٥) .

والأستاذ (رودلف سيّدل Prof. Rodalf Seydel) العالم اللاهوتي البروتستانتي ، والأستاذ في جامعة لايبسغ (ألمانية) ، وأحد الكبار في زمانه ، يقول في كتابه (أسطورة بودا) : فإنه من ثمانية وعشرين إصحاحاً التي يتألّف منها إنجيل متى ، فإنَّ إصحاحين منها فقط هما : الثاني والعشرون ، والرابع والعشرون خاليان من النصوص الهندوسية ، ومن إنجيل مرقس الذي يتكوّن من ستّة عشر إصحاحاً ، فإنَّ إصحاحين أيضاً هما : السابع ، والثاني عشر غير منقولين ، وفي إنجيل لوقا ، الإصحاح

(١) تبدّد أوهام قسيس ، لمؤلفه : فرانز غريس Prof. Franz Griesه مطبعة دار الطباعة (الضياء)

- بونوس آيرس - الأرجنتين ، ترجمة عن الإسبانية : السيّد خليل سعيد ذو الغنى .

(٢) كرشنا Krishna : إله هندي ، هو : (المخلص والفادي والمُعزّي والرّاعي الصّالح ، والوسيط وابن الله ، والأقنوم الثّاني من الثّالوث المقدّس ، وهو الآب والابن وروح القدس ..) ، انظر : العقائد الوثنية في الديانة النصرانية ، للمرحوم محمد طاهر التّنير ، ص : ١٨٠ وما بعدها .

(٣) بودا (غوماتا سيدهاتا : ٥٦٤ - ٤٨٣ ق.م) .

(٤) تبدّد أوهام قسيس ، ص : ١١٤ .

(٥) تبدّد أوهام قسيس ، ص : ١٤٦ .

السَّادس عشر ، والسَّابع عشر ، والعشرون فقط من مجموع أربعة وعشرين إصحاحاً التي يتشكل منها الإنجيل المذكور ، هي ليست منتحلة ، أي مسروقة ، ثمَّ إنجيل يوحنا المتضمَّن واحداً وعشرين إصحاحاً ، فإنَّ الإصحاحَيْن العاشر والسَّابع عشر فقط خاليان من النَّقل .

والعالم البروتستانتي (هابل Happel) مؤرِّخ الأديان ، يوافق ويؤيِّد أقوال (رودلف سيدل) ، ويذكر ويسمِّي ستَّة وثلاثين نصّاً في الكتاب المقدَّس ، مقتبسة عن العقائد الوثنيَّة ، منها : تجسُّد يسوع ، الطفل يسوع في الهيكل ، قصَّة مريم المجدليَّة الخاطئة ، ومعجزة المشي على الماء ^(١) .

والعالم (برنهارد سبيس Prof. Bernhard Spiess) العليم بالسَّنسكريتيَّة ، وبالخط المسماري ، يقرِّر ويثبت ويجزم بأنَّ الأمثال بأجمعها - تقريباً - التي في الأنجيل ، هي نسخ عن أمثال الهندوسيين والسُّومريِّين والآشوريِّين ، وخصوصاً سلسلة الأمثال التي تتعاقب في الإصحاح الثَّالث عشر من إنجيل متى ^(٢) .

و (غارب Garbe) يقول ^(٣) : إنَّ أكبر وأعظم علمائنا اللاهوتيين أمثال (هارناك Hamack) ، و (غونكل Gunkel) يعدُّون النَّصرانيَّة ويحسبونها بسهولة وببساطة وإخلاص وصراحة كدين توفيق تلفيقي ، أي يعادل التَّوفيق بين النِّقيضَيْن ، أو بين المذاهب والآراء المتناقضة ، وهو مذهب توحيد المذاهب المتناقضة (Sineretismo) .

والمكتبة المنطقيَّة في باريس (شارع فوجيرارد ، رقم ٦٤١) ، نشرت عدداً من الكتب الجليلة الفائدة العلميَّة في هذا الخصوص ، في أحد هذه الكتب المسمَّى (مشكلة

(١) تبدُّد أوهام قسيس ، ص : ١٧١ .

(٢) تبدُّد أوهام قسيس ، ص : ١٧٢ .

(٣) أورد هذا النص (فرانز غريس) أيضاً ، ص ١٧٢ ، في (تبدُّد أوهام قسيس) ، عن كتاب : الهند النَّصرانيَّة - دار الطِّباعة : ج قاب موهر توبنجن .

يسوع والمصادر النصرانية) للأب القس الكاثوليكي - سابقاً - وأستاذ تاريخ الأديان في جامعة استراسبورغ ، وكان الفاتيكان قد أعلن حرمانه بتاريخ ٢٠ تموز ١٩٣٣ ، لأنه شكّ وارتاب في كتابات الفاتيكان ومحاضراته عن ألوهية المسيح ، وعن وجوده أيضاً^(١) .

و (إرنست رينان)^(٢) قال : « إن عبادة (ميترا) قد وصلت إلى رومة في القرون الثلاثة الأولى بعد المسيح ، لدرجة أنه لو لم يتنصر الإمبراطور قسطنطين ، لأصبح العالم ميثرائياً - أي يعبد ميترا - عوضاً عن أن يكون عيسوياً - يعبد عيسى - »^(٣) .

الأستاذ (هيلشر Hielsher) من بلدة Cattbus في بروسية (بألمانية) ، وهو عالم لاهوتي بروتستانتي ، نشر مؤلفاً في خمسة مجلدات بعنوان : (تحريات واستقصاءات تتعلق بتاريخ الرسول بولس ، مع نتائج دراسة عشرين عاماً حول الرسول بولس ، وإن نتيجة دراسته الرئيسة والأساسية والقطعية النهائية خلاصتها ما يلي :

إن أعمال الرسل التي تحتوي تاريخ الرسل ، إنما هي تزوير وتزييف وتلفيق وقويه اختلقته وصاغته الكنيسة النصرانية بعد العام الخامس والأربعين والمئة لميلاد يسوع المسيح^(٤) .

« ابتدع اليهود واخترعوا وابتكروا وأوجدوا النصرانية لأجل الشعوب الأخرى ، ولولا شعار : (أحبوا أعداءكم) لاختفوا وتواروا وتلاشوا وزالوا وبادوا وانقرضوا »^(٥) .

(١) تبدّد أوهم قسيس ، ص : ١٧٥ .

(٢) إرنست رينان Renan : (١٨٣٢ - ١٨٩٢ م) كاتب وعالم أثري فرنسي ، له : (حياة يسوع) ، كان من أوّل المهتمّين بالتّحقيق في لبنان وفلسطين .

(٣) تبدّد أوهم قسيس ، ص : ١٧٥ .

(٤) تبدّد أوهم قسيس ، ص : ١٧٥ .

(٥) تبدّد أوهم قسيس ، ص : ١٨٣ .

وهناك رأي هام في (دائرة المعارف الفرنسية : ١١٧/٥) خلاصته : أن المصادر المسيحية كلها من عمل شاول^(١) (بولس) ، أو من عمل أتباعه ، وليست الأسماء الموضوعة عليها إلا أسماء مستعارة غير حقيقية .

والأنجيل والأبحاث التي تعارض اتجاه بولس فنيت إلى الأبد ، وفي قنيتها إنجيل المسيح ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا ، أما الرسائل فهي (بولسية) كلها ، أي منسوبة إلى بولس وأتباعه بلا شك .

« والعجيب أن الغاتيكان يعترف إلى حد كبير بموقف بولس من المسيحية ، وعدم حرصه عليها ، فقد جاء في كتاب نشره الغاتيكان سنة ١٩٦٨ م بعنوان : (المسيحية عقيدة وعمل ، ص : ٥٠) ما يلي : كان القديس بولس منذ بدء المسيحية ينصح لحديثي الإيمان أن يحتفظوا بما كانوا عليه من أحوال قبل إيمانهم بيسوع .

وذلك أمر يستدعي الدهشة ، فليس لإنسان أن يسمح لمؤمن أن يظل على ما كان عليه قبل الإيمان ، ولكن بولس لم يكن يهتم بالمسيحية ، وكان تشويها وتدميرها هدفاً من أهدافه »^(٢) .

وهكذا ... إن مصادر المسيحية وثنية قطعاً ، منها ما هو مصري قديم ، فالإله (أوزوريس) إله مصري فرعوني ، ذهب ضحية روح الشر ، وله ثالث مقدس هو : (أوزوريس وإيزيس وحورس) ، لذلك يقول الدكتور محمد حماد : « المسيحية ديناً ليست بعيدة في أسسها عن العقائد المصرية القديمة ، وهناك تشابه كبير بين الاثنين في كثير من الوجوه »^(٣) .

(١) شاول (بولس) ، يهودي اضطهد المسيح وأتباعه وأفرط ، وكان راضياً بقتل المسيحيين ، وكان يسطو على الكنيسة ، ويجر رجالاً ونساء ويسلمهم إلى السجن كما جاء في (أعمال الرسل ٦٠/٧ و ٢/٨) ثم أصبح سنة ٣٢ م رسولاً ومؤسس ديانة !!!

(٢) مقارنة الأديان (المسيحية) ، ص : ١٢٩ .

(٣) المرجع السابق ، عن : الفنون والطراز القبطي ، ص : ٦ .

ولو أردنا إيراد مقارنة بين بوذا والمسيح ، وبين كرشنا والمسيح ، وبين مُترا والمسيح ، لكان لزاماً علينا أن نسجل كتابين كاملين هما : (العقائد الوثنيّة في الديانة المسيحيّة) للمرحوم محمد طاهر التّنير^(١) ، و (يناييع المسيحيّة) للمرحوم خواجه كال الدّين^(٢) . ولكننا نكتفي بالتّلميح والاختصار .

أو بعد هذا كلّه ، يقال عن الإسلام إنه مقتبس عن المسيحيّة أو اليهوديّة وفيه رواسب وثنيّة؟؟!

الأمر لا يحتاج إلى كبير عناء لإظهار (الإسقاط) في القول المذكور ، فالتّوراة - التي بين أيدي النّاس حالياً - والتي تبتدئ بسفر التّكوين ، وهي جماع عقائدهم الدّينيّة ، غير مسند إلى أحد من أنبياء بني إسرائيل ، ولذا فلا حاجة إلى القول بأنّ عقائده سابقة للنّبوءات الإسرائيليّة ، وأنّ اليهود تعلّموه عن سبقهم ، سواء كان من وحي الأنبياء الأسبقين ، أو من تراث الشّعوب الموروثة عن الأسلاف .

أما متى وأين كُتِبَت التّوراة ؟ فالعلماء مجمعون على أنها كتبت بعد موسى بزمان طويل ، وكُتِبَ معظمها في الأثر البابلي^(٣) ، مقتبسة من أساطير الشّعوب القديمة .

ينكر المبشّرون على الإسلام ونبيّه كلّ صواب ، وكلّ فضل ، وكلّ جديد ، ويريدون أن يثبتوا لأتباعهم قبل أن يدرسوا الإسلام ويعجبوا به ويعتقدوه ، أنّه مزيج متنافر بين اليهوديّة والمسيحيّة والوثنيّة ، وخطوئهم كامنٌ في حقدهم الذي أوصلهم

(١) محمد طاهر التّنير : (ت ١٩٣٢) باحث من أهل بيروت ، (الأعلام : ١٧٣/٦) .

(٢) خواجه كال الدّين : (١٨٧٠ - ١٩٣٢ م) ولد في لاهور ، وعمل محامياً فيها ، ثمّ نرح إلى بريطانيّة عام ١٩١٢ وتفرّغ للعمل الدّيني ، وحقى وفاته يعتبر إماماً لمسلمي بريطانيّة ، له خمسة عشر كتاباً ، أهمّها : المثل الأعلى في الأنبياء ، يناييع المسيحيّة ، لمحات من حياة الرّسول ، دراسة الإسلام ، حديث المائدة ، الوحي ضرورة . (Who was who المجلد الثالث ، النّاشر A & C Black) .

(٣) مقارنة الأديان (اليهوديّة) ، ص : ٢٥٦ .

إلى قِصْرِ النَّظَرِ ، فمن الغريب ألا نجد شيئاً مشتركاً بين الديانات السَّماوية^(١) ، لقد جاء موسى متأخراً عن إبراهيم فأمن به ، وجاء عيسى متأخراً عنها ، فأمن بإبراهيم وموسى ، وجاء محمد ﷺ بعدهم ، فأمن بإبراهيم وموسى وعيسى ، عليهم أفضل الصَّلوات والتَّسليم .

أما وقد قرَّرت البحوث العلميَّة أن ينابيع المسيحيَّة وثنيَّة ، كما قال الدكتور بارنز في عظته في شهر آب (أغسطس) ١٩٢٥ : إن معظم الشَّعائر الدِّينيَّة المسيحيَّة قد اقتبست من الوثنيَّة ، ومنها العشاء الرَّبَّاني الذي تسرَّب إليها من الشَّعائر المعروفة عن عبادة الشَّمس ، وكما قرَّر المجلس الأدنى لمجمع (كنتربوري) بجلسة في شهر تموز (يوليو) ١٩١٧ : أنَّ الكتاب المقدَّس ليس كلام الله صِرفاً ، ولكنَّه مشوب بالأقاصيص التي كانت تجري على ألسنة النَّاس ، كما أنَّ كثيراً من الحوادث الواردة فيه لا يقبلها العقل^(٢) .

أما وقد تقرَّر هذا ، فكل ما وجَّه إلى دين التَّوحيد المطلق لله عزَّ وجلَّ - الإسلام - (إسقاط) ليس غير .



(١) من حيث الإيمان بالله ، والحساب ، واليوم الآخر ، والملائكة .

(٢) ينابيع المسيحيَّة ، ص : ٨٥ .

مقتبس من اليهودية والمسيحية

« وتذهب الروايات إلى أنه [ﷺ] أتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى ، أما في مكة نفسها ، فلعله أتصل بجاعات من النصارى كانت معرفتهم بالإنجيل هزيلة إلى حد بعيد » ^(١) .

« وتقول القصة إنَّ محمداً سافر مرة مع عمه إلى سورية ، فتعرّف في بُصرى براهب نسطوري في دير نصراني ، فتلقّى منه علم التّوراة » ^(٢) .

« اقتبس النبي عن التّوراة فكرة الخطيئة الأصليّة » ^(٣) ، « وإنّا ترجع معتقداته [ﷺ] فيما يتعلّق بالعالم الآخر إلى مصادر يهوديّة ، وهكذا تتصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسيّة وبابليّة قديمة » ^(٤) .

« لقد نسج الإسلام في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيس ، إلا أنه تأثّر من بعد بطقوس صلاة الأحد التي يمارسها النصارى في البيع » ^(٥) .

(١) كارل بروكلمان في (تاريخ الشعوب الإسلاميّة ، ص : ٢٤) .

(٢) غوستاف لوبون في (حضارة العرب) ص : ١٣٠ .

(٣) كارل بروكلمان ، ص : ٧٠ . (٤) كارل بروكلمان ، ص : ٧١ .

(٥) فيليب حتّي في (تاريخ العرب المطول) ، ص : ١٨١ .

« وإذا أرجعنا القرآن إلى أصوله ، أمكننا عَدَّ الإسلام صورة مختصرة من النصرانية ، والإسلام يختلف عن النصرانية - مع ذلك - في كثير من الأصول ، ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي » ^(١) .

لقد علّم ورقة بن نوفل - ذلك الفكر النصراني الكبير - محمداً ، « ومحمد كان لا يملك بين يديه سوى إنجيل القس ورقة ، وهو لا يؤمن بالوحيّة ولا بصلب ، فصدّقه ودعا إليه قومه » ^(٢) .

« هذه الشذرات الإلهيّة ، من أين أتى بها شعراء الجاهليّة [التي اقتبسها القرآن منهم] لولم يطلّعوا من أهل الكتاب ، وخاصّة النصارى على إيمانهم وما يشمله هذا الإيمان ... » ^(٣) !!

« ... والسّرّ الكبير في ثقافة محمد الكتائيّة والإنجيليّة ، وجود العالم المسيحي ورقة بن نوفل من بني أسد ، ابن عم السيّدة خديجة في جوار النبي ، وهو الذي زوّجه ابنة عمّه ، فقد أجمعت الآثار على أن ورقة تنصّر ، وكان يترجم التّوراة والإنجيل إلى العربيّة ، فهو إذن عالم مسيحي كبير ، وقد عاش محمد في جواره خمسة عشر عاماً قبل مبعثه ، ألا تكفي هذه المدة لنابغة العرب محمد بن عبد الله لكي يأخذ شيئاً من علوم التّوراة والإنجيل » ^(٤) ؟

لسنا في موقف الدّفاع عن الإسلام في هذه الصّفحات ، فللدّفاع موقف آخر في غير هذا الكتاب ، لأنّ الهدف هنا إظهار (الإسقاط) ، ولكن قبل البدء بتوضيح هذا

(١) حضارة العرب ، ص : ١٥٨ .

(٢) من كتاب (قس وني) المنحول لاسم خيالي هو : أبو موسى الحريري ، والذي اعتمدته إلياس المرفي كتابه : (الإسلام بدعة نصرانيّة) .

(٣) أدريان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي ، للأب : جرجس داود داود .

(٤) يوسف حداد : (القرآن والكتاب) قسم ٢ ، أطوار الدّعوة القرآنيّة : ١٠٥٩ - ١٠٦٠ م .

(الإسقاط) الجديد ، لابد من القول : لو علم بحيرى أو ورقة بن نوفل محمداً ﷺ شيئاً من الفكر النصراني ، لما آمن بمحمد (رسول الله) قرشي واحد .

وأحداث البعثة وما بعد الهجرة ، أين كان منها بحيرى الذي مات قبل البعثة ؟
وأين كان منها ورقة بن نوفل الذي توفي سنة ١٢ قبل الهجرة ؟

هذا ... ومن الغريب ألا نجد شيئاً مشتركاً بين الديانات السماوية^(١) ، لقد جاء موسى متأخراً عن إبراهيم فأمن به ، وجاء عيسى متأخراً عنها فأمن بإبراهيم وموسى ، وجاء محمد بعدهم فأمن بإبراهيم وموسى وعيسى ، عليه وعليهم أفضل الصلوات والتسليم ، كما قلنا في الإسقاط الأول .

وبعد ...

يقول المسيح في إنجيل متى ١٧/٥ : « لا تظنوا أنني جئت لأتقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأتقض بل لأكمل » .

والمسيحية - في أناجيلها الأربعة المعتمدة - لا تشريع فيها ، لذلك فهي ملزمة بأخذ كل تشريعاتها من العهد القديم (التوراة) ، لذلك تطبع الكنيسة (الكتاب المقدس) في عهده القديم والجديد معاً ، في مجلد واحد .

أمّا ما أخذته المسيحية عن العقائد الوثنية ، وجعلته من صلب عقيدتها ، فنختصر بعضه بالتالي :

(١) على ما بقي في اليهودية والمسيحية بعد التحريفات والتغييرات والإضافات .

٨- كانت ولادة القديس راما قبل ظهور
كرشنا في الناسوت بزمن قليل وقد سعى
قانساً ملك البلاد في إهلاك راما ، وإهلاك
كرشنا أيضاً .

٩- وفي أحد الأيام لسعت الحية بعض أصحاب
كرشنا الذين يلعب معهم فأتوا فشفق عليهم
لموتهم الباكر ، ونظر إليهم بعين ألوهية فقاموا
سريعاً من الموت وعادوا أحياء .

١٠- وأول الآيات والعجائب التي عملها كرشنا
شفاء الأبرص .

١١- كرشنا صلب ومات على الصليب .

١٢- لما مات كرشنا حدثت مصائب وعلامات
شرٌ عظيم .. وأظلمت الشمس ..

١٣- وثقب جنب كرشنا بحربة .

١٤- وقال كرشنا للصياد الذي رماه بالنبله
وهو مصلوب : اذهب أيها الصياد محفوظاً
برحمتي إلى السماء مسكن الآلهة .

١٥- ومات كرشنا ثم قام من بين الأموات .

١٦- ونزل كرشنا إلى الجحيم .

١٧- وصعد كرشنا بجسده إلى السماء ،
وكثيرون شاهدوه صاعداً .

١٨- ولسوف يأتي كرشنا إلى الأرض في اليوم
الأخير ، ويكون ظهوره كفارس مدجج
بالسلاح ، وراكب على جواد أشهب ، وعند

٨- وكانت ولادة يوحنا المعمدان قبل ولادة
يسوع المسيح بزمن قليل ، وقد سعى الملك
هيرودوس في إهلاك يوحنا ، كما سعى في
إهلاك الطفل يسوع المسيح ، وكان يوحناً
مبشراً بولادة يسوع المسيح .

٩- وبينما كان يسوع يلعب لسعت الحية أحد
الصبيان الذين كان يلعب معهم فلمس يسوع
ذاك الصبي بيده فعاد إلى حال صحته .

١٠- وأول الآيات والعجائب التي عملها يسوع
المسيح هي شفاء الأبرص .

١١- يسوع صلب ومات على الصليب .

١٢- لما مات يسوع حدثت مصائب جمة
متنوعة .. وأظلمت الشمس ..

١٣- وثقب جنب يسوع بحربة .

١٤- وقال يسوع لأحد اللصين اللذين صلبا
معه : « الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي
في الفردوس » .

١٥- ومات يسوع ثم قام من بين الأموات .

١٦- ونزل يسوع إلى الجحيم .

١٧- وصعد يسوع بجسده إلى السماء ،
وكثيرون شاهدوه صاعداً .

١٨- ولسوف يأتي يسوع إلى الأرض في اليوم
الأخير كفارس مدجج بالسلاح ، وراكب
جواداً أشهب ، وعند مجيئه تظلم الشمس

والقمر أيضاً ، وتزلزل الأرض ، وتهتز وتساقط النجوم من السماء .	عبينه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض ، وتهتز وتساقط النجوم من السماء .
١٩- يسوع هو يهوه العظيم القدوس ، وظهوره في الناسوت سر من أسرار العظيمة الإلهية .	١٩- كرشنا هو براهما العظيم القدوس ، وظهوره بالناسوت سر من أسرار العجيبة الإلهية .
٢٠- ثم كلمهم يسوع قائلاً : « أنا هو نور العالم ، من يتبعني فلا يمشي في الظلمة » .	٢٠- وقال كرشنا : « أنا النور الكائن في الشمس والقمر ، وأنا النور في اللهب ، وأنا نور كل ما يضيء ونور الأنوار ليس في ظلمة » .

ويختم المرحوم (محمد طاهر التّير) : [مقارنة النص الصّريح بين كرشنا ويسوع المسيح] ، في كتابه : (العقائد الوثنيّة في الديانة المسيحيّة) ، بقوله : « هذا شيء قليل من كثير ، اكتفينا به حبّاً بالاختصار » ونحن اكتفينا حبّاً بالاختصار أيضاً بأقل من نصف المقارنة .

أمّا مقابلة النص الصّريح بين بوذا ويسوع المسيح ، وهو مقابلة ما يقوله الهنود الوثنيون عن بوذا ، بما تقوله النصارى عن يسوع المسيح ، ففيها العجب العجائب أيضاً ، ونختار منها على سبيل المثال ، التّالي ^(١) :

(١) انظر (العقائد الوثنيّة في الديانة المسيحيّة) ، ص : ١٩٦ - ٢١٣ ، حيث توثيق كلّ فقرة من فقرات الجدول ، و (ينابيع المسيحيّة) ، ص : ١٦٠ - ١٧١ .

أقوال النصارى المسيحيين في يسوع المسيح ابن الله	أقوال الهنود الوثنيين في بوذا ابن الله
١- وُلِدَ يسوع المسيح من العذراء مريم بغير مضاجعة رجل .	١- وُلِدَ بوذا من العذراء مايا بغير مضاجعة رجل .
٢- كان تجسّد يسوع المسيح بواسطة حلول روح القدس على العذراء مريم .	٢- كان تجسّد بوذا بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا .
٣- لما نزل يسوع من مقعده السّماوي ، ودخل في جسد العذراء مايا ، صار رحمها كالبلور الشّفاف النّقي ، وظهر فيه يسوع كزهرة جميلة .	٣- لما نزل بوذا من مقعد الأرواح ، ودخل في جسد العذراء مايا ، صار رحمها كالبلور الشّفاف النّقي ، وظهر بوذا فيه كزهرة جميلة .
٤- ولد يسوع ابن العذراء مريم التي حلّ فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد (أي في ٢٥ كانون الأوّل) .	٤- ولد بوذا ابن العذراء مايا التي حلّ فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد (أي في ٢٥ كانون الأوّل) .
٥- وقد زار الحكماء يسوع وأدركوا أسرار لاهوته ، ولم يمضِ يوم على ولادته حتى حيّاه النّاس ودعوه إله الآلهة .	٥- وعرف الحكماء بوذا وأدركوا أسرار لاهوته ، ولم يمضِ يوم على ولادته حتى حيّاه النّاس ودعوه إله الآلهة .
٦- كان يسوع ولدًا مخيفًا ، سعى الملك هيرودوس وراء قتله ، كي لا ينزع الملك من يده .	٦- كان بوذا ولدًا مخيفًا ، وقد سعى الملك بمسارًا وراء قتله لمّا أخبروه أن هذا الغلام سينزع الملك من يده إن بقي حيًّا .
٧- لما صار عُمر يسوع اثنتي عشرة سنة جاؤوا به إلى (الهيكل) أُورشليم ، وصار يسأل الأبحار والعلماء مسائل مهمة ، ثم يوضّحها لهم ، وأدهش الجميع .	٧- لما صار عُمر بوذا اثنتي عشرة سنة دخل أحد الهياكل ، وصار يسأل أهل العلم مسائل عويصة ، ثم يوضّحها لهم حتى فاق مناظريه كافّة .
٨- وكان يسوع مارًا قرب حاملي الأعلام فأحنت الأعلام رؤوسها سجودًا له .	٨- ودخل بوذا مرّةً أحد الهياكل ، فقامت الأصنام من أماكنها وتمدّدت عند رجليه سجودًا له .

٩- لما عزم بوذا على السَّيَاحَةِ ، قصد التَّعَبُّدَ
والتَّنَسُّكَ ، وظهر عليه (مارا) أي الشَّيْطَانُ
كي يجربَّه .

١٠- فلم يعبأ بوذا بكلام الشَّيْطَانِ ، بل قال
له : « اذهب عني » .

١١- وصام بوذا وقتاً طويلاً .

١٢- وقد عمَّد بوذا المخلَّص ، وحين عمدته
بالماء كانت روح الله حاضرة ، وهو لم يكن
الإله العظيم فقط ، بل وروح القدس الذي
فيه صار تجسَّد كوتاماً لما حلَّ على العذراء
مايا .

١٣- وعمل بوذا عجائب وآيات مذهشة لخير
النَّاس ، وكأفَّة القصص المختصة فيه حاوية
لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوُّره .

١٤- لما مات بوذا ودفن انحلت الأكفان ، فتح
غطاء التَّابوت بقوة غير طبيعيَّة (أي بقوة
إلهيَّة) .

١٥- وصعد بوذا إلى السَّماء بجسده لمَّا أكمل
عمله على الأرض .

١٦- ولسوف يأتي بوذا مرَّة ثانية إلى الأرض ،
ويعيد السَّلام والبركة فيها .

١٧- بوذا الألف والياء ليس له ابتداء
ولا انتهاء وهو الكائن العظيم والواحد الأزلي .

٩- لما شرع يسوع في التَّبَشِير ، ظهر له
الشَّيْطَانُ كي يجربَّه .

١٠- فأجابه يسوع ، وقال : اذهب
يا شيطان .

١١- وصام يسوع وقتاً طويلاً .

١٢- ويوحنا عمَّد يسوع بنهر الأردن ، وكانت
روح الله حاضرة ، وهو لم يكن الإله العظيم
فقط ، بل والرُّوح القدس ، الذي فيه تمَّ
تجسُّده عندما حلَّ على العذراء مريم ، فهو
الآب والابن والرُّوح القدس .

١٣- وعمل يسوع عجائب وآيات مذهشة لخير
النَّاس ، وكأفَّة القصص المختصة فيه حاوية
لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوُّره .

١٤- لما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان ،
وفتح القبر بقوة غير اعتياديَّة ، أي بقوة
إلهيَّة .

١٥- وصعد يسوع بجسده إلى السَّماء من بعد
صلبه لمَّا كمل عمله على الأرض .

١٦- ولسوف يأتي يسوع مرَّة ثانية إلى
الأرض ، ويعيد السَّلام والبركة فيها .

١٧- يسوع الألف والياء ، ليس له ابتداء
ولا انتهاء ، وهو الكائن العظيم ، والواحد
الأبدي .

١٨- قال بوذا : فلتكن الذُّنُوب التي ارتكبت في هذه الدُّنْيَا عليَّ لأُخَلِّصَ العالم من الخطيئة .

١٩- قال بوذا إنه لم يأت لينقِض النَّامُوسُ ، كلا ، بل أتى ليكملهُ وقد سرَّه عدَّ نفسه حلقة في سلسلة المعلمين الحكماء .

٢٠- وكان قصد بوذا تشييد مملكة دينيَّة ، أي مملكة سماويَّة .

٢١- وقال بوذا : « الرَّجُلُ العاقل الحكيم لا يتزوَّج قط ، ويرى الحياة الزوجية كأتون ناره متأجَّجة ومن لم يقدر على العيشة الرهبانيَّة يجب عليه الابتعاد عن الزَّنى .

٢٢- كان بوذا يعلم أفكار النَّاس عندما يدير تصوُّراته نحوهم ، ويقدر على معرفة أفكار المخلوقات كُلِّها .

☆ ومن جملة الألقاب والأسماء التي يدعون بها بوذا : أسد سبط ساقيا ، وحكيم ساقيا ، والواحد السعيد ، والمعلِّم ، والغالب ، والواحد المبارك ، وربِّ العالمين ، والحاضر ، وإله الجميع ، والعظيم ، والأبدي ، ومزيل الآلام والأتعاب ، وحافظ العالم ، والإله بين الآلهة ، والمسيح ، والمولود الوحيد ، وطريق الحياة ... إلخ .

١٨- يسوع هو مَخْلُصُ العالم ، وكافة الذُّنُوب التي ارتكبت في العالم تقع عليه عوضاً عن الذين اقترفوها ويخَلِّصُ العالم .

١٩- وقال يسوع : « لاتتظنُّوا أنَّي جئت لأنقض النَّامُوسَ أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأُكْمِلَ » .

٢٠- « ومن ذلك الزَّمان ابتداء يسوع يَكْرِزُ ويقول توبوا لأنَّه قد اقترب ملكوت السَّموات » .

٢١- « فَحَسَنٌ لِلرَّجُلِ أَنْ لَا يَمِسَ امرأةً ، ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوّجوا لأنَّ التزوَّج أصلح من التحرُّق » .

٢٢- كان يسوع يعلم أفكار النَّاس عندما يدير تصوُّراته نحوهم وأنه قادر على معرفة أفكار المخلوقات كُلِّها .

☆ ويدعون يسوع المسيح (عليه السَّلام) بمثل الأسماء والألقاب التي دعي بها بوذا ، ومنها : أسد سبط يهوذا ، المخلص ، المولود البكر ، إلهاً مباركاً ، قدُّوس الله ، إلهاً مباركاً إلى الأبد ، وملك الملوك ، حَمَلَ الله ، ربَّ المجد ، رب الأرباب ، الفادي ، المخلص ، الوسيط ، الكلمة ، ابن الله ، المولود البكر ، حامل الآثام ... إلخ .

فحكاية (رب المسيحية) ليست بالأولى من نوعها ، بل حكاية الإله (بعل) إله بابل الشمسي ، كانت في الوجود من قبل ميلاد عيسى بقرون ، وكانت تمثل كأساة مألوفة ، ورأى اليهود خلال السَّيِّ البابلي الذي بدأه (نبوخذ نصر) سنة ٥٨٦ ق.م - وظلّوا هناك أجيالاً - إنّ هذه المأساة تمثّل كلّ سنة عند دخول الرّبيع في عيد القيامة ، فأتوا عند رجوعهم بكثير من تقاليد وعادات عبادة الشَّمس التي يمكن للإنسان ملاحظتها بسهولة في الأدبيّات اليهوديّة ، وأدوار الرواية الأصليّة قد حُلّت رموزها من بعض ألواح اكتشفت مع آثار وبقايا بابل ، وتقول مجلة (الكويست) : إنّ هناك لوحين بابليّين يتبعان السّجلات المكتوبة باللّغة الآشوريّة التي اكتشفت بواسطة الحفّارين الألمان في سنة ١٩٠٣ - ١٩٠٤ في قلعة شرقاط ، والتي هي مدينة آشور على نهر دجلّة ، عاصمة الآشوريّين الأقدمين ، وهما كانا ضمن المكتبة الآشوريّة التي كانت موجودة في القرن التاسع قبل الميلاد ، أو قبل ذلك ، وهما مع ذلك صورتان طبق الأصل عن ألواح بابليّة أقدم من ذلك بكثير .

وهذا اللوحان يكشفان عن حقائق مذهشة جدّاً ، حقائق أزعجت الآلاف من العقول المستقيمة النّزيهة في العالم المسيحي وأربكتها ، وليس تشابه بعض وجوه الرّوائتيّين وأدوارهما - رواية عيسى ورواية بعل - هو الذي يثير الدّهشة ، بل لأنّ الرّوائتين ماهما إلّا رواية واحدة ، وكلّ منهما طبق أصل الأخرى ، وذلك لا يجعل سجلّات الأناجيل سجلّات غير أصليّة فقط ، بل يجعلها منتحلة انتحالاً تامّاً .

يقول الخواجة أفندي كمال الدّين ، في كتابه (ينابيع المسيحيّة ، ص : ١٣٣) : « إنّني أترك القراء يقرّرون هذه النقطة ، ويحكمون في الموضوع بأنفسهم ، وإنّني أذكر لهم الآتي من عدد مجلّة (الكويست) الصّادر في يناير (كانون الثّاني) سنة ١٩٢٢ م : »

رواية الآلام المسيحية (عيسى)	رواية الآلام البابلية (بعل)
يساق عيسى أسيراً . يحاكم عيسى في منزل رئيس الكهنة . يُجلَّد عيسى . يساق عيسى إلى الصَّلب في جلجلة . يساق مع عيسى شريران يعدمان ، وآخر (باراباس) يطلق سراحه . عند موت عيسى يُمزَّق حجاب الهيكل وتزلزل الأرض ، وتتشقَّق الصُّخور ، وتفتح القبور ، ويخرج الأموات إلى المدينة المقدسة . تقتسم العساكر ملابس عيسى . يطعن عيسى بحربة في جنبه ويخرج دم وماء تأتي مريم المجدلية وامرأتان أخريان (لغسل) وتحنيط الجثة . يدخل عيسى في القبر داخل الصخرة ، ويذهب تحت إلى قسم الأموات ويزور جهنم . يوضع الحراس على قبر عيسى . مريم المجدلية ومريم الأخرى تجلسان أمام القبر . تأتي النساء خصوصاً مريم المجدلية إلى القبر ليبحن عن عيسى خلف باب القبر ، فتقف مريم باكية أمام القبر الخالي لأنهم أخذوا سيدها بعيداً .	يساق بعل أسيراً . يحاكم بعل في منزل على الرّابية (غرفة المحاكمة) . يُضرب بعل . يساق بعل إلى الرّابية . يساق مع بعل شريران أحدهما يُقتل ، والآخر يُطلق سراحه . عندما يصعد بعل على الرّابية تتزلزل المدينة ، وتحدث فيها مواقع . تؤخذ ملابس بعل . تمسح امرأة الدَّم النَّابع من قلب بعل إثر خروج السَّلاح (حربة) . ينزل بعل تحت الرّابية بعيداً عن الشَّمس والنُّور وتذهب عنه الحياة . يلاحظ الحراس بعل وهو سجين في معقل الرّابية . تجلس الآلهة مع بعل قد أتت لتعني به . يبحثون عن بعل في أي مكان هو مقيم خصوصاً امرأة باكية تبحث عنه في المقبرة ، وعندما يؤخذ تصيح مولولة : « آه يا أخي ، آه يا أخي » .

يرجع بعل ثانياً إلى الحياة (كشمس الربيع) ثم يخرج من الربابة .	رجوع عيسى إلى الحياة وخروجه من القبر في (صباح أحد) .
والعيد الأكبر عند البابليين وهو رأس السنة يكون في مارس في زمن الاعتدال الربيعي ، ويحتفل به لأن فيه كان انتصاره على قوات الظلام .	عيده الذي يكون في الاعتدال الربيعي تقريباً ، يحيي ويعظم أيضاً كانتصار له على قوات الظلام .

« أليست حكاية (الكتاب المقدس) مصبوبة في القالب الذي صبّت فيه حكاية
بعل (البابلية) فضلاً عن تماثل التفاصيل » ؟

ألا يدل وقوع الصلب بالطريقة التي قصّت في (الكتاب المقدس) ، على أنها
ملفقة ومأخوذة من كرشنا وبوذا وبعل ؟

إنّ جلّ عقائد المسيحيين وأعمالهم وأعيادهم المقدسة ، كانت موجودة في الأصل في
العالم الوثني بأشكالها وأسسها وترتيباتها من قرون مضت قبل ظهور المسيح ، « وإذا
تبين لهم أنّ المسيح نفسه ليست له علاقة ما بهذه الأشياء ، ألا يكون هذا الوقت هو
الوقت المناسب لأن يصحّ متبعوه الحقيقيون اعتقادهم ، ويواجهوا الحقائق الدينية
وجهاً لوجه مع الآخرين الذين هم ليسوا على دينهم » ؟

أما أنّ للمسيحي أن يتعرّف ، وبشكل علمي - على مواد البناء التي استخدمها
(بولس) في بناء الكنيسة ؟

أما أنّ للتبشير والاستشراق - الذي ترعرع تحت كنف الكنيسة - أن يقدم كلمة
الصدق ، حباً للحقيقة وسعيًا وراءها ، وأن يبتعدا عن الافتراءات والكذب ، ويتركا
حالات (الإسقاط) المتكررة فيما وجّهوه إلى الإسلام وأهله ؟

لقد تيقنت نفوسهم بأنّ النصرانية بدعة وثنية ، فأسقطوا ما بهم - زوراً وبهتاناً -
على الإسلام ، فقالوا : الإسلام بدعة نصرانية ، ظناً منهم أنّ حقائق العلم والتاريخ
بعيدة عن متناول أيدي المسلمين .



محمد بن عبد الله ﷺ

طفولته غامضة

مما يلفت النظر في مدرسة الاستشراق الألمانية ، ثلاثة من مستشرقيهما ، هم أهمّ أعلامها : تيودور نولدكه ، وكارل بروكلمان ، وريسهه ، وهذا الأخير مع سعة علمه ، وإتقانه للنحو العربي ، وإطلاعه على الكتب العربيّة المطبوعة حتى سنة ١٧٣٦ م ، كان كلّما أمعن في دراسة الكتب العربيّة ازداد بالعربيّة ولوعاً ، فاطّلع على المخطوطات العربيّة في جامعة ليدين .

لقد أبغض اللاهوتيّون ريسكه أشدّ البغض ، وحاربوه فتحطّمت آماله في الحصول على وظيفة أستاذ بإحدى الجامعات الألمانيّة ، وكان عليه أن يقبل وظيفة في مدرسة ثانويّة ، واعترض رجال الدين على تعيينه مديراً لمدرسة ، لولا أنه لفت إليه انتباه الوزير الكونت فاكربرت ، ووعدّه بإزالة ما عسى أن يثيره رجال الدّين ضدّ تعيينه مديراً من اعتراضات .

ولم يجد ريسكه ناشراً واحداً يقبل أن ينشر له كتبه في ميدان الدّراسات العربيّة ، فاضطر أن ينشر ما نشر من ذلك على نفقته الخاصّة ، وهو الفقير المُعَدَم .

وتساءلت : لِمَ لَمْ يلقَ ريسكه ، مالقيه نولدكه وبروكلمان من شهرة ؟

فعدت إلى ترجّاهم وتناجهم ، فوجدت أن نولدكه وبروكلمان لم يقدّما حقائق تثير رجال الدّين في أوربة ، بل قدّم الرّجلان ما يرضيهم تماماً ، فرّج لهما قدّما ، ونشّر ما ألفا ، فاغتنى الرّجلان ، وعمّت شهرتهما الآفاق ، وبلغت غنان السّماء .

بينما نطق ريسكه بما اقتنع ، وكتب ما أملاه عليه ضميره ، ونشر ما اعتقده بعيداً عن رأي رجال الدين وسطوتهم ، فقال - مثلاً - : « إنَّ ظهور محمد وانتصار دينه ، هما من أحداث التاريخ التي لا يستطيع العقل الإنساني إدراك مداها » ، ويرى في ذلك « برهاناً على تدبير قوَّة إلهيَّة قديرة » .

لقد أبغض اللاهوتيون ريسكه أشدَّ البغض ، لأنَّه مجَّد الإسلام ، ولم يوافقهم على أكاذيبهم وافتراءاتهم حول محمد بن عبد الله ﷺ خصوصاً ، وحول الإسلام وتاريخه عموماً ، وفي ذلك يقول (فوك) : « لقد كان متهماً عند اللاهوتيين بأنَّه حرُّ التفكير ، ولم يسايرهم في ادَّعائهم أنَّ محمداً كان نبياً زائفاً وغشاشاً ، وأن دياناته خرافات مضحكة » ، لذلك لم يحصل على منصب جامعي ، وعيِّن مدرّساً في إحدى الثانويات ، وثارت ثائرة رجال الدين عندما اقترح لإدارة ثانويَّة ، فنُقِل إلى متحف للنُّقود ، لا يرى أحداً ، ولا يراه أحد ، لا يتَّصل بأحد ، ولا يتَّصل به أحد ^(١) .

سقت ماسبق ، تمهيداً لما قاله كارل بروكلمان في كتابه (تاريخ الشعوب الإسلاميَّة) ^(٢) - وهو الذي لم يقدم ما يثير رجال الكنيسة - :

« ولسنا نملك بيّنة موثوقاً بها عن حياة النَّبي الأولى ، إلاَّ هذه الآيات القرآنيَّة من سورة الضُّحَى [١١-٦/٩٣] : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ☆ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ☆ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ☆ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ☆ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ☆ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝ » .

لم أجد سبباً يدعو بعض المستشرقين أو المبشّرين إلى القول المغاير للحقيقة والعلم ، حين قالوا بأنَّ فترة طفولة النَّبي ﷺ ، وفترة شبابه حتى نبوّته « حياة النَّبي الأولى » لا نعرف عنها شيئاً ، فكيف أجازوا لأنفسهم أن يقولوا ذلك ، وهم يعلمون كما يعلم كلُّ

(١) كارل بروكلمان في الميزان ، ص : ٥ و ٦ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلاميَّة ، ص : ٣٣ .

إنسان أُتيح له شيء من الثقافة والدِّراسة التاريخية أنَّه لم تعرف ترجمة حياة إنسان في التاريخ ، كما عرفت ترجمة حياة محمد بن عبد الله ، نبي الإسلام ﷺ ، فلم يكن من أسرة مغمورة أو مجهولة ، فهو حفيد سيّد قريش وعظيمها عبد المطلب ، وهو من تحدّث عنه مكّة ويثرب ، لما أحاط ولادته من ظروف قاسية ، حيث توفي أبوه عبد الله في دار الغربة ، في يثرب ، تاركاً ابناً لم تلده أمّه أمانة بعد ، وما أعقب ذلك من حياته في حجر جدّه عبد المطلب ، ومتابعة أخباره وهو في رعاية عمّه أبي طالب ، وما رافق ذلك من مشاركته في أحداث مكّة ، إلى تجارته إلى الشام بمال خديجة بنت خويلد ، ثم زواجه منها ، وقد أصبح ذلك حديث مكّة ، كما كان موقفه من خلاف بطون قريش حول إعادة الحجر الأسود إلى مكانه في الكعبة حديث مكّة أيضاً ، فهل يقال بعد ذلك إنّ هذه الفترة من حياته ﷺ كانت مجهولة ، « ولسنا نملك بينة موثوقاً بها عن حياة النبي الأولى » .

إنّ من هو أقل بكثير من الرسول ﷺ ، كشاعر ، أو خطيب ، أو وجيه في قبيلة ، يذكر الرواة عن نشأته ومراحل حياته الشيء الكثير ، فكيف بمحمد بن عبد الله ، وهو حفيد عبد المطلب زعيم قومه ؟

يقول مسلم هندي : « إنّ سيرته ﷺ معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله لجواره ، ولا سياً الفترة التي أدّى فيها الرسالة ، ولست أغالي إذا قلت : إنّني أعرفه أكثر ممّا أعرف أبويّ ، ثمّ أليس من العجيب ، أنّنا لانجد فيما أثر عنه - على كثرته - إلّا كل ما يدعو إلى الاحترام والإعجاب ؟!

غيره من الأنبياء مضروب عليه حجاب من الغموض والأساطير ، ولا نعرف من حياتهم اليومية إلا القليل ، وما يحكى عنهم يشبه كلام الكهان » ^(١) .

(١) خواجه كال الدين في كتابه (المثل الأعلى في الأنبياء) ، ص : ٤٥ .

إنَّه الإسقاط ، لقد أراد من قال : « لانملك بئنة موثوقاً بها عن حياة النبي الأولى » ، ومن جراه في قوله هذا ، من المتعصبين ، وحلة الأحقاد ، أن يشككوا في فترة من فترات حياة نبي الإسلام ﷺ ، ليبعدوا الأنظار عن فترة غامضة في حياة المسيح عليه السلام ، التي قيل بأنه قضاها في منطقة الرّبوّة في الهند .

إنَّه الإسقاط ، وهذا دليله :

إنَّ ثمانى عشرة سنة ضائعة من حياة يسوع ، لا يدري عنها إنسان قديماً وحاضراً ومستقبلاً ، كلمة واحدة ، أو خبراً واحداً^(١) .

لننظر في الأناجيل الأربعة واحداً إثر آخر فماذا نجد^(٢) ؟

الإنجيل الأوّل ، إنجيل متى ، نراه في الإصحاح الثّاني ينتهي ويسوع رضيع : « وأتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة ، لكي يتمّ ما قيل بالأنبياء إنّه سيّدعى ناصرياً » [متى : ٢٣/٢] ، ليبدأ الإصحاح الثّالث مباشرة بتعميد يسوع وهو ابن الثّلاثين عاماً : « في تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرّز في برّيّة اليهوديّة .. حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن^(٣) إلى يوحنا ليتعمّد منه .. » [متى : ١٣/٣] .

والإنجيل الثّاني ، إنجيل مرقس ، بدأ بتعميد يسوع مباشرة ، فلا طفولة فيه أبداً ، وهذه هي السّنوات الضّائعة الغامضة من حياة يسوع ، ففي الإصحاح الأوّل مباشرة : « .. وفي تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل اعتمد من يوحنا في الأردن » [مرقس : ١/٩] .

(١) حتّى ألف (تشارلز فرانسيس بوتر) كتاباً عنوانه : (الكشف عن السّنين المفقودة من حياة يسوع) .

(٢) دار الكتاب المقدّس في الشّرق الأوسط : Arabic Bible 43, 1985

(٣) المراد بالأردن هنا نهر الأردن حيث عمّد يوحنا يسوع بياهه ، و (ليتعمّد) : ليعمّده .

والإنجيل الثالث ، إنجيل لوقا ، ينتهي كلامه عن يسوع وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، في الإصحاح الثَّاني ، لبيداً الحديث عنه وهو ابن الثلاثين من عمره في الإصحاح الثالث :

« وكان أبواه يذهبان كلَّ سنة إلى أُورشليم في عيد الفصح ، ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أُورشليم كعادة العيد » [لوقا : ٤١/٢] .

وفي الإصحاح الثالث مباشرة يتكلَّم عن يسوع وهو ابن الثلاثين : « ولما اعتمد جميع الشعب ، اعتمد يسوع أيضاً » [لوقا : ٢١/٣] .

والإنجيل الرابع ، إنجيل يوحنا ، يتحدث مباشرة منذ إصحاحه الأوَّل عن حياة يسوع في سنواته الأخيرة .

فن الذي لا يملك بيَّنة موثوقاً بها ؟ المسلمون أم النَّصارى ؟

المسلمون أولاً ، وكلُّ الدَّارسين لتاريخ الإسلام ورسوله ثانياً ، يعرفون كلَّ التفاصيل عن حياة محمد بن عبد الله ﷺ ، منذ ولادته ، وحتى وفاته ، مافاتهم منها قليل أو كثير ، ولا يغيَّر من حقائق هذه المعرفة (إسقاط) حاقداً أو متعصباً أو موتوراً ، أراد أن يرمينا بدائه وينسل !!

يقول (وُل ديورانت) في قصَّة الحضارة : ٢٠٢/١١ : « هل وجد المسيح حقاً ؟ أو أنَّ قصَّة حياة مؤسِّس المسيحيَّة وثمره أحزان البشريَّة ، وخيالاتها ، وأمالها ، أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كرشنا ، وأوزريس ، وأتيس ، وأذئيس ، وديونيسي ، ومثراس ؟ لقد كان (بولنجبرك) والمُلتفون حوله ، وهم جماعة ارتاح لأفكارهم قولتير نفسه ، يقول في مجالسهم الخاصَّة : إنَّ المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق ، وجَهَر قلني (Volney) بهذا الشك نفسه في كتابه خرائب الإمبراطوريَّة ، الذي نشره في عام ١٧٩١ م ، ولما التقى نابليون في عام ١٨٠٨ م بـ فيلاند (Wieland) العالم

الألماني ، لم يسأله القائد الفاتح سؤالاً تافهاً في السياسة أو الحرب ، بل سأله هل يؤمن بتاريخية المسيح ؟ .

ويتابع (وُل ديورانت) قائلاً : « وبلغت المدرسة الفلسفية صاحبة البحوث الدينية ذروتها في أواخر القرن التاسع عشر على يد الأب لوازي (Loisy) الذي حلل نصوص العهد الجديد تحليلاً بلغ من الصرامة حداً اضطرت معه الكنيسة الكاثوليكية إلى إصدار قرار بحرقه ، هو وغيره من (المُحدثين) ، وفي هذه الأثناء وصلت المدرسة الهولندية ، مدرسة بيرسن (Pierson) ، ونابر (Naber) ، وميثاس (Metthas) بالحركة إلى أبعد حدودها ، إذ أنكرت بعد بحوث مضنية حقيقة المسيح التاريخية ، وفي ألمانية عرض آرثر دروز (Arthur Drews) هذه النتيجة السالبة عرضاً واضحاً محدداً ١٩٠٦ ، وفي إنجلترا أدلى و.ب. اسمث (W.B.Smith) ، وج.م. روبرتسن (J.M.Robertson) ، بحجج من هذا النوع أنكروا فيها وجود المسيح ، وهكذا بدا أنَّ الجدل الذي دام مئتي عام ، سينتهي إلى إفناء شخصية المسيح إفناء تاماً .

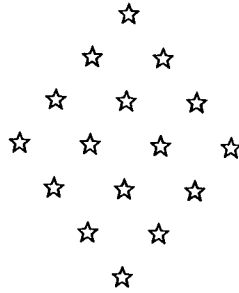
ومع أنَّ المسلم لا يقول عن المسيح عليه السَّلام ما قاله هؤلاء العلماء ، ولا يرى ما رأوا ، لم تحفظ الكنيسة ذلك ، بل راحت (تسقط) علينا ما فيها .

حتى ولادة السيّد المسيح عليه السَّلام بطريقة لا يقبلها عقل أو منطق ، قبلها المسلم عن الإيمان والتَّسليم ، وبقيت أمّه مريم (الطَّاهرة البتُّول) ، فهل حفظت الكنيسة للمسلمين هذا المعتقد ؟

لقد كان من المفروض أن تطبع الكنيسة القرآن الكريم مع إنجيلها ، وهي التي طبعت التَّوراة التي لم تذكر السيّد المسيح وأمّه ولو مرّة واحدة ، أمّا القرآن ، فنُكِّل ما بين دفتيه عن حياة مريم والمسيح .

جاء في القرآن الكريم سورة باسم عائلة السيّد المسيح (آل عمران) ، و (آل) كلمة تُخاطب بها العائلات الكريمة الطيبة الشريفة ، وسورة باسم معجزة السيّد المسيح

(المائدة) ، وفيها ثلاث معجزات للسيّد المسيح لم تذكرها الأنجيل ، وهي : نزول
المائدة ، وإحياء الطّير ، والتّكلّم بالمهد ، وسورة باسم والدته البتول (مريم) ، وسورة
باسم الأتباع (الكهف) ، وكلّها من السُّور الطُّوال .
أَوْ بعد هذا ، تسقط الكنيسة زوراً وبهتاناً - ما فيها - على الإسلام ونبيّه ؟!



القرآن

تأليف محمد ﷺ

« القرآن ليس من عند الله »^(١) ، « محمد هو الذي صنع القرآن »^(٢) .

« القرآن من عند محمد ، من تأليفه »^(٣) .

إسقاط آخر ، لن ندخل فيه يبحث مطوّل ، ثبت من خلاله أنّ القرآن الكريم من عند الله قطعاً ، وهذا تحدّثنا عنه في كتابنا (الإسلام في قفص الاتهام) ، ولكن يمكننا القول هنا إنّ الإعجاز الغيبي والعلمي في الكون والحياة والطّب .. واللغوي الذي جاء لقوم يباهون بالفصاحة والبلاغة والأدب والشعر والخطابة فبزّهم وسبقهم في مضار تنافسهم .. فكيف يكون القرآن من تأليف بشر ، والتحدّي باقٍ في أن يُقلّد ولو بسورة واحدة منه ؟

لو كان القرآن الكريم من صنع بشر ، لاستجاب العرب للتحدي القائم : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿ [البقرة : ٢٣/٢ و ٢٤] .

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٢٤٤/٤ ، في بحث التعريف بكلمة (الله) سبحانه وتعالى ، قدّمه المستشرق ماكدونالد (D.B.Macdonald) .

(٢) المستشرق هـ.ج. ويلز ، في كتابه : معالم تاريخ الإنسانية : ٦٢٧/٣ وما بعدها .

(٣) يوليوس فلهاوزن في كتاب : تاريخ الدولة العربية ، ص : ٨ ، وغوستاف لوبون في (حضارة العرب) ، ص : ١١١ يورد : تأليف القرآن .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ☆ فَلْيَاثُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾

[الطُّور : ٢٤ و ٢٣ / ٥٢] .

يقول الرَّافعي : « وحكمة هذا التَّحدِّي ، وذكره في القرآن ، إنَّما هي أن يشهد التاريخ في كلِّ عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللَّدُّ^(١) ، والفصحاء اللَّسَن .. حتَّى لا يجيء بعد ذلك فيما يجيء من الزَّمن مولدٌ^(٢) ، أو أعجمي كاذب ، أو منافق ، أو ذو غفلة فيزعم أنَّ العرب كانوا قادرين على مثله ، وأنَّه غير معجز »^(٣) .

إنَّ القرآن ليس نثراً ، كما أنَّه ليس شعر ، إنَّما هو قرآن ، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم ، ليس شعراً وهذا واضح ، فهو لم يقيّد بقيود الشعر ، وليس نثراً لأنَّه مقيّد بقيود خاصّة به لا توجد في غيره ، وهذه هي القيود التي يتّصل بعضها بأواخر الآيات ، وبعضها بتلك النّعمة الموسيقيّة الخاصّة^(٤) .

وإنَّ خروج القرآن عن أساليب العرب دليل على إعجازه ، وعلى أنَّه ليس من كلام النَّاس ، ولا من كلام محمد - ﷺ - ، ولولا هذا الأسلوب لما أفحم العرب ، لأنَّهم رأوا جنساً من الكلام غير ما تؤدّيه طباعهم ، ولما حاول بعضهم معارضته (كسيلة) الذي أخذ يقلّده ، فجاء بشيء لا يشبهه ، ولا يشبه كلام نفسه ، فأخطأ الفصاحة من كلِّ جهاتها^(٥) .

يقول خواجه كال الدين^(٦) - زعيم الدُّعات المسلمين يانككترة - :

(١) اللَّدُّ : الخصم الجَدَلُ الشَّحيح الذي لا يزبغ إلى الحقِّ ، وجمعه لَدَدٌ ولَدَادٌ ، (اللَّسَان : لد) .

(٢) رجل مُولَّدٌ إذا كان عربياً غير محض ، (اللَّسَان : ولد) .

(٣) إعجاز القرآن ، ص : ٢٢ .

(٤) من كتاب : حديث الشعر والنثر ، ص : ٢٥ (طبعة دار المعارف بمصر) .

(٥) روح الدِّين الإسلامي ، ص : ٣٤ .

(٦) خواجه كال الدين ، ابن المرحوم الخواجه عزيز الدِّين ، ولد في لاهور عام ١٨٧٠ م ، حاز على شهادة

الأدب عام ١٨٩٣ م ، وعلى إجازة في الحقوق عام ١٨٩٧ م ، هاجر إلى بريطانيا عام ١٩١٣ م وبدأ =

دُعِيَتْ سنة ١٩١٣ للاشتراك في مؤتمر ديني عظيم ، أُقيم في باريس ، ولم كانت دهشتي عندما وجدتُ أنَّ التَّهْذِيبَ الكنسي يتقدَّم إلى الأمام في نكران العقائد الأساسيَّة للكنيسة ، مستعرضاً خطأها بأجلى بيان ، وكان غرض هذا المؤتمر أن يصلح ديانة الغرب الحاليَّة ، وأنَّه إن عجز عن ذلك ، يستعِضُ بدلاً منها ديانة جديدة مبنِيَّة على مبادئ تؤخذ من ديانات أخرى ، أو يبحث عن الديانة وتبني من جديد ، وقد فكَّر هذا المؤتمر في سياحة عالميَّة تبتدئ من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩١٣ ، وطلب مني أن أشارك في تلك الحركة ، فرضيت بذلك ، غير أنَّ نار الحرب (العالميَّة الأولى) اشتعل لهيبها ، واستعرَّ لظاها ، فقضت على هذا المشروع كله ، وبعد زمن تُنْوسي ، أو نُسي كلُّ شيء ، ومع ذلك فقد قدَّمت الحرب خدمة واحدة للدين ، ألا وهي تنبيه الغربيِّين الغافلين ، الذين رأوا أنَّ المسلمين في ميدان القتال ، يتسمَّكون بالدين ويصلُّون في أوقات فراغهم ، بينما كان الآخرون من أهل الديانات الأخرى يشربون ويقامرون ، فضلاً عن أنَّ الحرب كانت بين أمم مسيحيَّة ، تزعم أنَّ دينها دين محبَّة ، فما لبثت أُميَّالها (رغباتها) المادِّيَّة أن برهنت على أنَّ دين المحبَّة - كما يزعمون - لم يكن دين محبَّة حقّاً يوماً من الأيام ، ومع أنَّ الحرب كانت تتقدَّ بشدَّة ، وبشكل يدعو إلى التنبُّه والرُّجوع إلى دين المحبَّة المزعوم ، إلَّا أنَّ المذابح العامَّة ، ومجازر البشر الدُمويَّة كانت مستمِّرة ، فأيقظت في كثير من الأذهان شعور الكراهية والاحتقار لأجزاء معيَّنة من صلوات الكنيسة ، لأنَّ تلك المذابح لم تكن إلَّا نتيجة لبعض المزامير التي يغنُّونها في الكنيسة ، والتي تكوِّن قسماً من كتاب الصَّلوات .

أيقظ اندماج هذه المزامير في كتاب الصَّلوات روح التَّمرد والثَّورة في كثير من الأنحاء ضدَّ الكنيسة ، وطلب القُسُس والعامَّة أيضاً بشدَّة إلغاء تلك المزامير من كتاب

= عام ١٩١٣ بنشر مجلَّة شهريَّة عنوانها (المجلَّة الإسلاميَّة) ، وأسس البعثة الإسلاميَّة في مدينة ووكينغ Woking بغية تحرير العقل الغربي من المفاهيم للغلوطة عن الإسلام ، له خمسة عشر كتاباً أهمها (المثل الأعلى في الأنبياء) ، و (ينابيع المسيحيَّة) ، توفي بتاريخ ١٩٣٢/١٢/٢٨ م .

الصَّلوات ، ولم يكن ذلك الطَّلَب طلباً غير عادي أو صعب التَّنفيذ ، لأنَّه كثيراً ما تُقَّح كتاب الصَّلوات في تاريخ الكنيسة ، لذا أُلِّفَت أخيراً جمعيَّة لأجل تنقيح هذا الكتاب ، حتَّى يصبح ملائماً للرَّغبات الحديثة ، وتلك الجمعيَّة الَّتِي كُوتت اقترحت إدخال بعض صلوات جديدة ، إحداها لأجل السَّلَم الرَّائِف ، وأخرى لأجل زمن الانتخابات ، وغيرها لأجل الضَّمائر الحائرة ، ورابعة لأجل الجو الجميل ، ذلك عدا ما اقترحتهُ اللِّجْنة من اختصار ستِّ وصايا من الوصايا العشر .

لكن ماهي الطَّريقة الَّتِي يمكن بها جعل التَّضحيات ، والإضافات ، جزءاً من الدِّين المسيحي ؟ تلك الطَّريقة هي أن تمرَّ تلك التَّنقيحات والإضافات بمجلس الأساقفة ، فمجلس الإكليروس ، فمجلس العموم ، وأخيراً يصادق عليها البرلمان ، فتحرز قداسة دينيَّة تامَّة .

هذه هي الطَّريقة الَّتِي تصاغ بها الدِّيانة في الغرب ، إذ تضرب في (ضربخانة) المعامل البشريَّة ، وتوسم بعد ذلك بطابع الإله ، وذلك هو تاريخ المسيحيَّة في كلِّ أدوار حياتها ، ولما كانت من صنع الإنسان ، عجزت عن مقاومة تصاريِف الزَّمَن واختباراتهِ ، وأصبحت تُغيَّر عند الضَّرورة من وقت إلى آخر كي تلائم تَقَلُّبَ الحالات ، إلّا أنَّ هؤلاء الذين طلبوا إلغاء هذه المزامير من كتاب الصَّلوات ، نسوا في لحظة الحماسة الَّتِي اتَّقدت فيها هذه الفكرة في رؤوسهم ، أنَّ نتيجة ما يفكِّرون فيه واقعة على أصليَّة (الكتاب المقدَّس) ، وما المزامير إلّا جزء من هذا الكتاب ، فهذا يدلُّ على أنَّ كلمة الله (الكتاب المقدَّس) لم تكن خالية من الخلط والمزج البشري ، ومع ذلك فقد جاء هذا الموضوع بطريقة أجلى وأوضح من الأولى في جلسة ٥ يوليو (تموز) سنة ١٩١٧ ، المنعقدة بمجلس كانتربري الكنسي ، حيث طلب بعض السَّادة الإكليريكيِّين (رجال الدِّين المسيحي) أن تُغيَّر كلمات أحد الأسئلة يطلب بها منهم أن يعترفوا بأنَّهم يؤمنون إيماناً صادقاً لا رياء فيه أنَّ كل شيء ورد في كتابهم المقدَّس أتى من عند الله .

كانوا مقتنعين بأنهم لا يستطيعون أن يؤدوا اليين بهذه الصورة المطلوبة ، وذلك لأنهم لا يؤمنون بصحة كثير من الأساطير والقصص والحوادث الواردة في أسفارهم المنزلة ..

وكان السؤال الذي يشكو منه الإكليريكيون كما يأتي :

« هل تصدق تصديقاً حقيقياً كل ما جاء بأسفار العهد القديم ، والعهد الجديد التي تكون الكتاب المقدس ؟ » ، فيكون الجواب : « نعم أؤمن بصحتها » .

فاقترحوا أن يكون السؤال الذي يوجه إلى الإكليريكي عند تعيينه كما يأتي :

« هل تؤمن حقاً بأن أسفار الكتاب المقدس نقلت في كثير من أجزائها ، وبطرق شتى ، الوحي الإلهي الذي تمم بعيسى ؟ وأن يكون الجواب : نعم أؤمن بذلك » .

فأجاب أسقف كنتبري بأن السؤال بالشكل الذي وضعته الجمعية ، لا يغير حقيقة أن الأسفار الشرعية المنزلة ، كانت بوحي إلهي ، وأن لها سلطة لاهوتية ، وأنها جزء مهم من الدين المسيحي ، وطلب أن تغير كلمات السؤال كما يأتي :

« هل تعترف بأن كل أسفار الكتاب المقدس جاءت بوحي من عند الله » ؟

فأجاب أسقف كنيسة المسيح بأن هذا الاقتراح سيعيدهم ثانياً إلى النقطة التي ابتدؤوا منها ، فرفض التصحيح الذي وضعه أسقف كنتبري ، لأنه لم يحز إلا خمسة أصوات ضد ثلاثة وسبعين صوتاً ، واقترحت بعد ذلك عدة إصلاحات وتغييرات ، إلا أن المجلس رفض معظمها ، وأخيراً وافق بأربعة وسبعين صوتاً ضد أربعة أصوات على أن يوضع السؤال إلى الشائسة بالكيفية الآتية :

« هل تؤمن حقاً بأن أسفار الكتاب المقدس نقلت إلينا في كثير من أجزائها ، وبطرق شتى ، الوحي الإلهي الذي تمم بعيسى » ؟

إنَّه وإن كان هذا التَّغيير المقترح قد أراح الضَّمائر الكنسيَّة ، إلَّا أنَّه ممَّا يلفت النِّظَر ، أنَّ المشتركين في هذا المؤتَمَر ، لم يشنهم تعليمهم الدِّيني العالي عن أن يرتكبوا جريمة التَّضليل في تقدير المجهول ، وإيجاد غير المعلوم .

فإذا كانوا لا يستطيعون أن يسلموا بصحَّة وقائع معيَّنة من الكتاب المقدَّس ، فكيف أمكنهم أن يقبلوا شهادته بخصوص عيسى وألوهيَّته ؟ إنَّ المركز كان مضطرباً مختلاً من أهمِّ وجوهه ، وكشف عن خطأ هذه الدَّائرة الفاسدة .. ومع ذلك فقد قُرِّر رسمياً في كنتربري ، أنَّ (الكتاب المقدَّس) لم يكن خالياً من تزييف البشر^(١) .

ومن هنا جاء الإسقاط .

إنَّ الأناجيل المعتبرة عندهم أربعة : إنجيل متَّى ، وإنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا ، ومكان الأناجيل في النَّصرانيَّة مكان القطب والعماد ، وإذا كانت شخصيَّة المسيح وما أحاطوها به من أفكار هي شعار المسيحيَّة ، فإنَّ هذه الأناجيل هي المشتبهة على أخبار تلك الشَّخصيَّة ، من وقت الحمل إلى وقت صلبه في اعتقادهم ، وقيامته من قبره بعد ثلاث ليالٍ ، ثمَّ رفعه بعد أربعين ليلة ، وهي بهذا تشتمل على عقيدة ألوهيَّة المسيح في زعمهم ، والصَّلب والفداء ، أي أنَّها تشتمل على لبِّ المسيحيَّة بعد المسيح ومعناها .

يذكر الإمام محمد أبو زهرة في (محاضرات في النَّصرانيَّة) :

وهذه الأناجيل الأربعة هي التي تعترف بها الكنائس ، وتقرُّها الفِرَق المسيحيَّة ، وتأخذ بها ، ولكن التَّاريخ يروي لنا أنَّه كانت في العصور الغابرة أناجيل أخرى ، قد أخذت بها فرق قديمة ، وراجت عندها ، ولم تعتنق كلُّ فرقة إلَّا إنجيلها ، فعند كلِّ من أصحاب مرقيون ، وأصحاب ديسان إنجيل يخالف بعضه هذه الأناجيل ، ولأصحاب

(١) ينابيع المسيحيَّة ، ص : ٥٨ وما بعدها ، منشورات : لجنة المحقِّقين - لندن : ١٩٩١ .

ماني إنجيل يخالف هذه الأربعة ، وهو الصحيح في زعمهم ، وهناك إنجيل يقال له إنجيل السبعين ينسب إلى تلامس ، والنصارى ينكرونه ، وهناك إنجيل برنابا ، وهناك إنجيل اشتهر باسم التذكرة ، وإنجيل سرن تهس ، ولقد كثرت الأناجيل كثرة عظيمة ، وأجمع على ذلك مؤرخو النصرانية ، ثم أرادت الكنيسة في آخر القرن الثاني الميلادي ، أو أوائل القرن الثالث أن تحافظ على الأناجيل الصادقة في اعتقادها ، فاختارت هذه الأناجيل الأربعة من الأناجيل الرائجة إبان ذاك ، ويذكر بعض المؤرخين أنه لم توجد عبارة تشير إلى وجود إنجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا قبل آخر القرن الثاني ، وأول من ذكر هذه الأناجيل الأربعة أرينيوس في سنة ٢٠٩ م ، ثم جاء من بعده كلينس إسكندريانوس في سنة ٢١٦ م ، وأظهر أن هذه الأناجيل الأربعة واجبة التسليم ، ولم تكتف الكنيسة باختيار هذه الأناجيل الأربعة ، بل حملت الناس على قبولها لاعتقادها صحتها ، ورفض غيرها ، وتم لها ما أرادت ، فصارت هذه الأناجيل هي المعتبرة دون سواها ، ولقد كنا نودّ ونحن ندرس المسيحية وأدوارها في التاريخ ، أن نعرف هذه الأناجيل التي أهملت ، وما كانت تشتمل عليه ، مما كان سبباً في رفضها ، وحمل الناس على تركها ، وخصوصاً أنها كانت رائجة ، وتأخذ بها طوائف من المسيحيين ، ويتدينون هذه الديانة على مقتضاها ، فإن الاطلاع عليها يمكننا من معرفة اعتقاد الناس في المسيح ، وكيف كان ، خصوصاً بين أولئك الذين قاربوا عصره ، وأدركوا زمانه ، ولقوا تلاميذه ، ونهلوا من مناهلهم ، وإذا ضنّ التاريخ بحفظ نسخ منها في سجله^(١) ، فقد كنا نودّ أن تطلعنا الكنيسة على ما اشتملت عليه مما يخالفها ، وكان سبب رفضها ، وترينا حجة الرفض ، لتكون دليلاً منيراً لها على أنها بهذا أقامت ديانة المسيح ، ولم تغيّرهما ، ولكن ضنّ التاريخ علينا فطوى تلك الأناجيل^(٢) ، وضنت

(١) إنّ النسخ وقد تجاوزت السبعين عدداً ، محفوظة بمكتبة الفاتيكان ، ومنوع على أيّ باحث أن يطلع عليها .

(٢) والأصح : ولكن ضنت الفاتيكان علينا فطوت تلك الأناجيل .

الكنيسة فطوت تلك البيّنات ، فلم يبقَ لنا إلا أن نكتفي من الدّراسة بما بين أيدينا ، ولعلّ فيه عناء إن أمعنا النّظر ، وأمعنا في الاستنباط ، وجعلنا من العقل سلطانا ، ومن بدهياته برهاناً^(١) .

وهذه الأناجيل الأربعة لم يملها المسيح ، ولم تنزل عليه هو بوحى أُوحي إليه ، ولكن كُتِبَت من بعده .. وهي تشتمل على أخبار المسيح وصلواته وأقواله وعجائبه ، من بدايته إلى نهايته في هذا العالم .

متى كُتِبَت هذه الأناجيل الأربعة ، ومن المؤلّف ؟

إنجيل متى : كتبه متى ، وهو أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر ، مات ببلاد الحبشة سنة ٧٠ م ، ولقد اتّفق جمهور النّصارى على أنّه كتب إنجيله بالعبريّة أو السريانيّة ، ولكن موضع الخلاف تاريخ تدوينه ، ومن الذي ترجمه إلى اليونانيّة ... ولا شك أنّ جهل تاريخ التّدوين ، وجهل النّسخة الأصليّة التي كانت بالعبريّة ، وجهل المترجم وحاله من صلاح أو غيره ، وعلم بالدين واللّغتين التي ترجم عنها ، والتي ترجم إليها ، كل هذا يؤدّي إلى فقد حلقات في البحث العلمي ، ولئن تسامح الباحث في تاريخ التّدوين وتاريخ الترجمة وملابساتها ، لينعه العلم من الاسترسال في التّسامح ، حتّى لا يرى أن السّلسلة تكون كاملة إذا لم يعرف الأصل الذي ترجم ، فلقد وددنا أن نعرف ذلك الأصل ، لنعرف أكانت الترجمة طبق الأصل ، أم فيها انحراف ، ولنعرف أفهم المترجم مرامي العبارات ومعانيها ، سواء أكانت هذه المعاني تفهم بظاهر القول أو بإشاراته ، أم بلحن القول وتلويحاته ، أم بروح المؤلّف وغرضه ، وممرماه الكلّي من الكلام ، ولكن عزّ علينا العلم بالأصل ، ولقد كنّا نتعزّى عن ذلك لوعرفنا المترجم ، وأنّه ثبت ثقة أمين في النّقل عالم ، لا يترزّد على العلماء ، فقيه في

(١) محاضرات في النّصرانيّة ، ص : ٣٨ وما بعدها ، الطّبعة الثالثة : ١٩٦١ م .

(٢) يقول هورن : « ألّف الإنجيل الأوّل (متى) سنة ٣٧ أو سنة ٣٨ أو سنة ٤١ أو سنة ٤٣ أو سنة ٤٨

أو سنة ٦١ أو ٦٢ أو ٦٣ أو سنة ٦٤ من الميلاد » ، (محاضرات في النّصرانيّة ، ص : ٤٣) .

المسيحية ، حجة فيها ، عارف باللغتين ، فاهم لهما ، مجيد في التعبير بهما ، فعندئذ كنّا نقول : ثقة روى عن ثقة بترجمته ، ونسد الخلة بتلك الرواية ، ونرأب الثمة بتلك النظرة ، ولكن قد امتنع هذا أيضاً ، فقال جمهرة علمائهم إنّ المترجم لم يُعرف ، فبقيت الثمة من غير ما يرأبها^(١) .

إنجيل مرقس : أُلّف باليونانية ، كتبه بطرس عن مرقس سنة ٦١ ونسبه إليه ، فكأنّ بطرس راوي مرقس ، مع أنّ الأول رئيس الحواريين ، والثاني من تلاميذه كما جاء في كتاب : (مروج الأخبار في تراجم الأبرار)^(٢) ، وإذا كان ذلك الإنجيل خلاصة علمه بالمسيحية ، فإذا رواه عنه أستاذه ، فقد روى هذا عن مرقس ما ألقاه عليه وعلمه ، وإنّ ذلك لغريب ! ، لذلك رأى الكاتب القديم أرينيوس : « إنّ مرقس كتب إنجيله بعد موت بطرس وبولس » .

وفي الحق أنّ ذلك الاختلاف ، وإن كان زمنياً في ظاهره ، هو في معناه ولبّيه اختلاف في شخص المحرّر لهذا الإنجيل ، يقول هورون : « أُلّف الإنجيل الثاني سنة ٥٦ وما بعدها إلى سنة ٦٥ ، والأغلب أنّه أُلّف سنة ٦٠ أو سنة ٦٣ »^(٣) .

إنجيل لوقا : يبتدئ هذا الإنجيل في إصحاحه الأول . والفقرة الأولى : « إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخداماً للكلمة ، رأيتُ أنا أيضاً إذ تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيّها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحّة الكلام الذي علّمت به » .

قال هورن : « أُلّف الإنجيل الثالث (لوقا) سنة ٥٣ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤ ، وقد اختلف الباحثون في شخصيّة كاتبه ، وفي القوم الذين كتب لهم ، وفي تاريخ

(١) محاضرات في النصرانية ، ص : ٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص : ٤٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص : ٤٦ .

تأليفه ، ولم يتفقوا إلا على أنه ليس من تلاميذ المسيح ، ولا تلاميذ تلاميذه ، إلا على أنه كُتِبَ باليونانية .

إنجيل يوحنا : « لهذا الإنجيل خطر وشأن أكثر من غيره في نظر الباحث ، لأنه الإنجيل الذي تضمنت فقراته ذكراً صريحاً لألوهية المسيح ، فهذه الألوهية يعتبره نص إثباتها ، وركن الاستدلال فيها ، لذلك كان لابد من العناية به ، إذ كان التثليث هو شعار المسيحية ، وهو موضع مخالفتها لديانات التوحيد ، وأساس التباين بين هذه الديانة وتلك الديانات » ^(١) .

وهذا الإنجيل « تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية » ، كما يرى (استاذلن) ، أمّا في دائرة المعارف البريطانية التي اشترك في تأليفها خمسة من علماء النصارى ، مانصّه : « أمّا إنجيل يوحنا فإنه لا مزية ولا شك كتاب مزور أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضها لبعض ، وهما القديسان يوحنا ومتى ، وقد ادّعى هذا الكاتب المزور في متن الكتاب أنه هو الحواري الذي يحبه المسيح ، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاقتها ، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري ، ووضعت اسمه على الكتاب نصّاً ، مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً ، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها ، وبين من نسبت إليه ، وإنّا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا - ولو بأوهى رابطة - ذلك الرجل الفلسفي الذي ألّف هذا الكتاب في الجيل الثاني ، بالحواري يوحنا الصياد الجليل ، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخطبهم على غير هدى » .

ولقد اختلف المسيحيون في تاريخ تدوين هذا الإنجيل اختلافاً بيناً ، يقول هورن : « ألّف الإنجيل الرابع (يوحنا) سنة ٦٨ أو ٦٩ أو سنة ٧٠ أو سنة ٨٩ أو سنة ٩٨ من الميلاد » ، وكتب لغرض خاص ، وهو أن الأناجيل الثلاثة الأولى ليس

(١) المرجع السابق ، ص : ٤٨ .

فيها ما يدل على ألوهية المسيح ، فكتب الإنجيل المنسوب إلى يوحنا لإثبات ألوهية المسيح التي اختلفوا في شأنها ، لعدم وجود نص في الأناجيل الثلاثة يعينها ، وهذا يدل أيضاً على أن الأساقفة اعتنقوا ألوهية المسيح قبل وجود الإنجيل الذي يدل عليها ، ويصرح بها ، ولما أرادوا أن يحتجوا على خصومهم ، ويدفعوا هرطقتهم في زعمهم ، لم يجدوا مناصاً من أن يلتمسوا دليلاً ناطقاً يثبت ذلك ، فاتجهوا إلى يوحنا ، فكتب - كما يقولون - إنجيل الذي يشتمل على الحجة ، وبرهان القضية ، والبينة فيها على زعمهم ، وهذا ينبئ عن أن الاعتقاد بألوهية المسيح سابق لوجود نص في الكتب عليه ، وإلا ما اضطروا اضطراراً إلى إنجيل طلبوه ، فافتقدوه ، فلما لم يجدوه طلبوا من يوحنا أن يكتبه ^(١) ...

ذكرت مجلة (المجلة) : العدد ٧١٢ ، ٣-١٠/٩٩٣ م ، ص ٥٦ وما بعدها ، تحت عنوان : (العثور على أناجيل كانت غير معروفة من قبل ، الرواية القبطية تقول : إن المسيح لم يُصلب ، وإنما صلبَ شبيه له ، والكتب الجديدة تغير تاريخ السنوات الأولى) ، ومما جاء في المجلة المذكورة :

« بعد حوالي نصف قرن من العثور على المخطوطات القبطية بنجع حمادي ، بدأ الباحثون يدركون أهمية المكتبة التي خبأها الرهبان المصريون في خلال القرن الخامس الميلادي ، حتى لا تقع في أيدي الجنود الرومان ويتم إحراقها بالنار ، تنفيذاً لتعليمات كنيسة روما .

وأصبح الآن - بعد ترجمة ونشر جميع النصوص التي تم العثور عليها - واضحاً أن المعلومات التي وصلت إلينا من نجع حمادي قد تؤدي إلى تغيير شامل في ما نعرفه من تاريخ القرون المسيحية الأولى . »

(١) المرجع السابق ، ص : ٥٣ .

وبعد سرد قصّة العثور على هذه الأناجيل ، وذلك في كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٤٥ م ، ودعوة الحكومة المصريّة عام ١٩٥٦ م إلى عقد مؤتمر في القاهرة ضمّ الباحثين المتخصّصين للعمل على إعداد ترجمة النصوص ، ولكن الاعتداء الثلاثي الذي وقع على مصر في ذلك العام حال دون انعقاد المؤتمر .

فعادت (اليونسكو) بالاشتراك مع الحكومة المصريّة ، ودعت إلى مؤتمر دولي عام ١٩٦١ م ، وتمّ تكوين لجنة عالميّة للعمل ، وكانت الخطوة الأولى هي تصوير كلّ المخطوطات ، وهذا ما تمّ في القاهرة ما بين ١٩٦٢ و ١٩٦٥ م .

أمّا الخطوة الثانية فتمّت بنشر هذه الصّور في مدينة (لايدن) بهولندا عام ١٩٧٠ م لإتاحة الفرصة لأكبر عدد ممكن من الباحثين للاطلاع عليها .

وبعد ذلك تكوّنت لجنة في الولايات المتّحدة لترجمة النصوص تحت رعاية جيمس روبنسون - عالم الدّراسات اللاهوتيّة الأمريكي - وتمّ الانتهاء من الترجمة الإنكليزيّة عام ١٩٧٥ م ، ثمّ ترجمت بعد ذلك إلى الفرنسيّة والألمانيّة .

وتبيّن أنّ هذه كتابات مسيحيّة لبعض الجماعات التي ظهرت في بداية التّاريخ الميلادي كانت تعرف بجماعات (العارفين) ، وكانوا يقضون معظم أوقاتهم في التّعبد وترتيل الكتابات التي عندهم ، أو القيام بإنشاء كتابات جديدة يقرؤونها في اجتماعاتهم الأسبوعيّة .

وتتضمّن المكتبة (التي عثر عليها في نجع حمادي) عدداً من الأناجيل لم تكن معروفة من قبل ، إلى جانب بعض الأشعار والكتابات الفلسفيّة ، ونحن نعرف أنّ العهد الجديد من الكتاب المقدّس يحتوي على أربعة أناجيل منسوبة إلى متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، وهذه هي الأناجيل التي تعترف الكنيسة بصحّتها ، ولكن يحسب ما تمّ العثور عليه في نجع حمادي - يبدو أنه كانت هناك أناجيل أخرى كثيرة متداولة في خلال القرون الأولى للمسيحيّة مثل إنجيل توماس ، وإنجيل مريم المجدليّة ، وإنجيل

فيليب ، وإنجيل المصريين وغيرها من الأناجيل التي وجدت في نجع حمادي ، وبينما الاعتقاد السائد هو أنَّ أناجيل العهد الجديد قد تمَّت كتابتها فيما بين ٦٠ و ١١٠ ميلاديَّة ، فنحن نجد أنَّ أنجيل - الذي يحتوي على أقوال للمسيح الحي - يرجع إلى منتصف القرن الميلادي الأول ، أي إنَّه يسبق أوَّل الأناجيل المعروفة بحوالي عشر سنوات ، كما أنَّنا نجد اختلافات أساسيَّة في هذه الأناجيل عمَّا تعودنا أن نعرفه في الأناجيل الأخرى ..

ولا شكَّ أنَّ أهمَّ الاختلافات الموجودة هي التي تتعلَّق بكيفيَّة موت السيِّد المسيح ، فبخلاف ما نعرفه من الاعتقاد المسيحي بأنَّه قد صُلِبَ بناءً على أوامر الحاكم الروماني لفلسطين (بونتياس بيلاطس) تنفي أناجيل نجع حمادي ذلك صراحةً وتسخر ممَّن يقولون بهذا الرأْي .. فلقد جاء في إنجيل بطرس على لسان بطرس ما يلي :

يقول المُخلَّص : إنَّ الذي رأيته سعيداً يضحك ، هو يسوع الحي ، لكن من يُدْخِلون المسامير في يديه وقدميه ، فهو البديل ، فقد وضعوا العار على الشَّبه ، انظر إليه وانظر إلي .

كما جاء في كتاب آخر يسمَّى كتاب (سيت الأكبر) : كان شخص آخر ، هو الذي شرب المِراة والخل ، لم أكن أنا ، كان آخر ، (سيون) هو الذي حمل الصَّليب على كتفه ، كان آخر هو الذي وضعوا تاج الشَّوك على رأسه ، وكنت أنا في العلاء ، أضحك لجهلهم .

ويبدو أنَّ الجماعات المسيحيَّة الأولى كانت لها وجهات نظر مختلفة في هذه الأمور ، لكن منذ نهاية القرن الثَّاني عندما بدأ الأساقفة يعيدون تنظيم الحركة المسيحيَّة على أساس من النِّظام الكهنوتي ، فإنَّ الأساقفة - وخاصَّة أساقفة كنيسة روما - بدؤوا يفرضون تعاليم بعينها على الكنيسة ، واعتبر من خالفها ضالاً وطرد من الكنيسة .

وعندما دخل الإمبراطور الروماني قسطنطين إلى المسيحية في القرن الرابع ، وأصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية للإمبراطورية ، زاد نفوذ كنيسة روما ، التي أمرت بحرق كل الكتب التي تختلف مع تفسيراتها ، وكان هذا هو الوقت الذي تم فيه حرق معظم ما تبقى في مكتبة الإسكندرية من كتب اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية من كتب الضلال ، وكان هذا هو السبب الذي حدا ببعض الرهبان النجوميين في نجع حمادي إلى إخفاء هذه المخطوطات التي ظلت غير معروفة حتى عثر أبناء علي السمان عليها [عند نهاية الحرب العالمية الثانية .

ولا شك أن المعلومات التي تم الحصول عليها نتيجة ترجمة هذه المخطوطات سوف يكون لها أثر كبير في فهم تاريخ السنوات الأولى لنشأة المسيحية » .

هذه هي الأناجيل ، فهي ليست نازلة على عيسى عليه السلام في نظرهم ، وليست منسوبة له ، ولكنها منسوبة لبعض تلاميذه ، ومن ينتمي إليهم .

هذه هي الأناجيل ، المصدر الأول التاريخي للديانة المسيحية ، يلاحظ عليها وفيها عند البحث ما يلي ^(١) :

١ - أنها ليست من إملأ السيد المسيح ، بل إنه لم يشهدها .

٢ - كاتبوها ليسوا على مستوى الأهلية ليكونوا علماء دين ، لأنهم مجهولون ، إما مجهولو النسب أو الصنعة ، أو العلاقة بالكتاب المدون .

٣ - أنها لرغبات خاصة أملتها عدة بيئات مختلفة ، وهذه الرغبات الخاصة مجهولة الأفراد والهيئات !.

٤ - أن أصولها معترف بضياعها من أهلها ، وأن ترجمة بعضها غير موثوق فيه ، لضياع الأصل ، أو لجهل المترجم .

(١) أضواء على المسيحية ، متولي يوسف شلي ، ص : ٥٠ ، الدار الكويتية ، ط ٢ ، عام ١٩٧٣ م .

هـ - لأنها لا تحمل صفة الرواية حتى في أقل صورها التي يجب أن تتوفر لكتاب سماوي ، أو تعاليم نبي .

مؤتمرات لتنقيحات وإضافات وتغييرات ..

ورجال الكهنوت لا يؤمنون علناً بأن كل أسفار الكتاب (المقدس) نقلت بطريق الوحي .

وفي كنتربري (Canterbury) - مركز رئيس أساقفة الأنغليكان في بريطانيا - يُقرّر رسمياً أن الكتاب المقدس لم يكن خالياً من تزيف البشر .

وهذه الأناجيل الأربعة - المعترف بها - لم يملها المسيح ، ولم تنزل عليه بوحي ، ولكنها كُتبت من بعده ، وهي تشتمل على أخبار المسيح فقط .

ولن نناقش هنا (أعمال الرسل) لانتقطاع السند في نسبتها لكتبتها ، ولعدم معرفة أسماء مؤلفيها .

وشتان ما بين كتاب سماوي مقدس ، نزل وحياً على الرسول المختار من الله تعالى ، ثم تدوين آياته في عهده - ﷺ - وبقي بين أيدي المؤمنين به قرآناً يتلونه في صلواتهم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبين كتاب اختلفت نسخه ، فأخفي بعضها ، وترجم بعضها مع غياب الأصل ، فكثرت فيها الاختلاف نتيجة حذف وإضافة وتزوير وتحريف ، ومرد ذلك كله عدم تدوينه في عهد صاحبه .

وبعدها يقولون ويشيعون : إن القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ ، من منطلق « رمّتي بدائها وانسلت » .

إنه (الإسقاط) ليس غير ، بكل معانيه .





تناقض في القرآن

« من العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقيدياً موحداً متجانساً وخبالياً من المتناقضات ، ولم يصلنا من المعارف الدنيئة ، الأكثر أهمية وخطراً ، إلا آثار عامة نجد فيها - إذا بحثناها في تفاصيلها - أحياناً تعاليم متناقضة » ^(١) .

لن ندافع هنا عن القرآن الكريم ، وسموّه عن التناقض ^(٢) ، ولكننا نقول ببلء فَمِنَّا ، وبأعلى صوتنا : لونزل القرآن الكريم في هذا العصر ، حيث التّقدّم العلمي وازدهاره العظيم ، لما اختلفت نظرته للكون ، ولا اختلفت وصاياه التربويّة والرّوحيّة للإنسان ، فهو الحجّة على صدق ما جاء به الوحي الإلهي .

وقبل توضيح هذا (الإسقاط) ، تحضرنا قصّة (الحاج إبراهيم خليل أحمد) ، الذي كان قساً مبشراً مهمّته تزييف حقائق الإسلام ، ومنها أنّ في القرآن تناقضات عديدة .

الحاج إبراهيم خليل أحمد ، كان اسمه قبل إشهار إسلامه (القسّ إبراهيم خليل فيلوبوس) .. يروي قصّته الكاملة مع الإسلام والإيمان فيقول ^(٣) :

- (١) جولد تسيهر في بحثه : (نحو العقيدة الإسلاميّة وتطوّرها) ، ويشاركه في هذا الإسقاط كثيرون ، منهم : لوسيان كليوفتش في كتابه : (المسلمون تحت الحكم الشّيعي) .
- (٢) لقد قمنا بذلك في الجلسة الثالثة من كتابنا : (الإسلام في قفص الاتّهام) .
- (٣) (القبس) الكويتيّة : الاثنين ٥ رمضان ١٣٩٦ هـ ، الموافق ٣٠ آب (أغسطس) ١٩٧٦ ، العدد : ١٥٤٠ .

أنا من مواليد الإسكندرية في ١٣ يناير (كانون الثاني) ١٩١٩ م ، درست في مدارس الإرسالية الأمريكية حتى الثانوية العامة ، ثم حصلت على دبلوم كلية أسبوط سنة ١٩٤٢ م ، وتخصصت في الدراسات الدينية تمهيداً لدخولي كلية اللاهوت ، ولم يكن الالتحاق بكلية اللاهوت بالأمر السهل ، ولا يستطيع أي حاصل على الدبلوم أن يلتحق بهذه الكلية ، بل لابد من تزكية الكنيسة ، واجتياز عديد من الاختبارات الدقيقة ، ولقد حصلت على تزكية كنيسة العطارين بالإسكندرية ، كما حصلت على تزكية المجمع الكنسي للوجه البحري بعد إجراء اختبارات عديدة ودقيقة ، للتعرف على مدى استعدادي لأن أصبح رجل دين ... ثم حصلت على تزكية المجمع (السنودس) ، وهو يضم مجموعة قساوسة من السودان ومصر ، ويعتبر كمؤتمر ديني عام ... وقد قرّر (السنودس) الموافقة على دخولي كلية اللاهوت سنة ١٩٤٤ بالقسم الداخلي ، ودرست على أيدي أساتذة أمريكيين ومصريين ، وتخرجت في عام ١٩٤٨ ، فعيّنت في بلدة (أسنا) بالوجه القبلي في مصر ، وسجّلت رسالة في العام نفسه عن طريق الجامعة الأمريكية في القاهرة ، وكانت رسالتي عن العمل التبشيري بين المسلمين .. وقد بدأ تعرّفي على الإسلام من خلال دراستي له في كلية اللاهوت ، فحنن في هذه الكلية ، ندرس الإسلام وكل الأساليب التي نستطيع من خلالها زعزعة إيمان المسلمين به ، وتشكيكهم فيه .

وفي سنة ١٩٥٢ حصلت على الماجستير من جامعة برنستون الأمريكية ، وعيّنت أستاذاً في كلية اللاهوت بأسبوط ، وكنت أقوم بتدريس الإسلام والمغالطات والافتراءات الشائعة التي يردّها أعداؤه والمبشّرون ضده ، وقد رأيت في هذه الفترة أن أوسع دراستي لكل جوانب الإسلام ، وقرّرت ألا أكفي بالاطّلاع على كتب المبشّرين والمستشرقين التي تقتصر على الطعن في الإسلام ، ولثقتي بنفسي ، وجبّي للعلم ، قرّرت أن أقرأ وجهة النظر الأخرى ، وأدرس القرآن بتعمّق ، وكان هدفي من هذه كله أن أصبح متمكناً من مادّتي تماماً ، بحيث أستطيع دفع الحجّة بالحجّة ، وأكون

قادراً أن أضيف إلى حجج المبشرين ضدَّ الإسلام حججاً جديدة من خلال دراستي وتعمّقي .. ولكن النتيجة في الواقع كانت عكسيّة ، فقد بدأ موقفني يهتز ، وبدأت أشعر بصراع داخلي عنيف بيني وبين نفسي .. واكتشفت أن مادريته من قبل ، وما كنت أبشر به وأقوله للناس كلّه زيف وكذب .. لكنني لم أستطع مواجهة نفسي ، وحاولت التغلّب على هذه الأزمة الدّاخلية والاستمرار في عملي ، وفي سنة ١٩٥٤ نُقِلْتُ إلى أسوان سكرتيراً عامّاً للإرساليّة السّويسريّة ، وكانت هذه وظيفة صوريّة ، أمّا حقيقة مهمّتي فكانت التّبشير ضدَّ الإسلام في الصّعيد الأقصى ، وخاصّة بين المسلمين .

وفي هذه الأثناء عُقِدَ مؤتمر تبشيري في فندق (كترakt) بأسوان ، ودعيتُ للكلام فيه ، وتكلّمت يومها كثيراً ، وردّدتُ كلّ المطاعن المحفوظة ضدَّ الإسلام ، وبعد أن انتهيت من كلامي ، عاودتني أزمتي الذاتيّة ، وبدأت في مراجعة موقفني مرّة أخرى ، وعدت أسأل نفسي : لماذا أقول هذا وأفعله ، وأنا أعلم أنّي كاذب ، وأنّ هذا الذي أقوه ليس هو الحق ، واستأذنت قبل انتهاء المؤتمر ، وخرجت وحدي متّجهاً إلى بيتي ، كنت مهزوزاً متأزماً للغاية ... وفي تلك اللّيلة شعرت براحة نفسيّة عميقة ، عدت إلى بيتي وقضيت اللّيل كله وحدي في المكتبة أقرأ القرآن ، ووقفت طويلاً عند الآية الكريمة : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١/٥٩] ، كما وقفت طويلاً عند الآية الكريمة : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ☆ وإذا سمعوا ما أنزلَ إلى الرّسولِ تَرَى أَغْثِيَنَّهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشّاهِدِينَ ☆ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢/٥ - ٨٤] .

وفي تلك الليلة - اتَّخذت قراري النهائي^(١) ... وأشهرت إسلامي رسمياً في
١٩٥٩/١٢/٢٥ .

أصدر الحاج إبراهيم خليل أحمد عدّة كتب تكشف عن حقائق الإسلام ، وعن
أساليب المبشرين والمستشرقين ضدّه ، منها :

- ١ - محمد في التّوراة والإنجيل والقرآن ، وهي دراسة مقارنة للأديان الثلاثة .
- ٢ - المستشرقون والمبشّرون في العالم العربي والإسلامي .
- ٣ - الاستشراق والتبشير وصلتها بالإمبرياليّة العالميّة .
- ٤ - المسيح إنسان لا إله .
- ٥ - الإسلام في الكتب السماويّة .
- ٦ - المخطط التبشيري والاستعمار .
- ٧ - اعرف عدوك .. (إسرائيل) عقيدة وسياسة .

وهكذا .. إنّ دراسة مقارنة للأديان تؤكّد أنّ الإسلام دين ذو قوّة روحانيّة تقود
الإنسان (عقلاً ومحاكمة) إلى وحدانيّة الخالق ، وإلى الأخوّة الإنسانيّة .

وإذا أردنا أن نبيّن هذا (الإسقاط) بشكل موسّع ، فعلينا إيراد - وبشكل كامل -
الفصل الثالث من الباب الأوّل من كتاب (إظهار الحق) للشيخ رحمة الله خليل
الرّحمن الهندي ، ولكن سنكتفي ببعض ما أورده (مويس بوكاي) في كتابه : (القرآن
الكريم والتّوراة والإنجيل والعلم) ، دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة^(٢) :

كثيرون من قرّاء الأناجيل يشعرون بالحرج ، بل بالحيرة ، عندما يتأمّلون في
معنى بعض الروايات ، أو عندما يقارنون روايات مختلفة لحدث واحد مروي في كثير

(١) نورد هنا قصّة إسلامه مختصرة ، انظر : (آراء يهدمها الإسلام) ، ص : ١١٢ ، دار الفكر بدمشق .

(٢) طبعة جمعيّة الدّعوة الإسلاميّة العالميّة - طرابلس - الجماهيريّة .

من الأناجيل ، تلك هي الملاحظة التي يقدمها الأب روجي R.P. Roguet في كتابه مقدمة إلى الإنجيل .

من الاختلافات التي هي على جانب كبير من الأهمية بين إنجيل يوحنا والأناجيل الأخرى ، الاختلاف الخاص بالفترة الزمنية لبعثة المسيح ، إذ يحددها مرقس ومتى ولوقا بعام واحد ، أما بالنسبة ليوحنا فهي تمتد على أكثر من عامين ، ويشير (أ. كولمان) إلى هذا الأمر ، وأما الترجمة المسكونية فهي تصرّح عن هذا الموضوع بما يلي : « على حين تحدّثنا الأناجيل الثلاثة المتوافقة عن فترة طويلة بالجليل ، تتبعها مسيرة نحو الناصرة Judee تمتد قليلاً أو قد تقصر ، ثم يليها أخيراً المكوث فترة قصيرة بالقدس ، فإنّ يوحنا على العكس ، يسرد انتقالات عدّة للمسيح من منطقة إلى أخرى ، ويتحدّث عن مكوثه فترة طويلة بأرض الناصرة وبالقدس على وجه خاص (١٩-٥١ إلى ٢-١٣ إلى ٣-٣٦ ، ٥-١ : ٤٧ ، ١٤-٢٠ : ٣١) ويشير إلى احتفالات فصيحة متعدّدة (٢-١٣ ، ٥-١ ، ٦-٤ ، ١١-٥٥) ، وهو بهذا يوحى بأنّ بعثة المسيح قد دامت أكثر من عامين » .

إذن فمن يجب أن يُصدّق ؟ أنصدّق متى أم مرقس أم لوقا أم يوحنا ؟

إنّ دراسة تقديّة لنصوص الأناجيل ، تقود إلى اكتساب مفهوم أدب (مفكّك تفتقر خطّته إلى الاستمرار) ، و (تبدو تناقضاته غير قابلة للحلّ) . ومنها (شجرتا نسب المسيح) .

تطرح شجرتا النسب اللتان يحتوي عليهما إنجيلا متى ولوقا ، مشاكل تتعلّق بالمعقوليّة ، وبالاتفاق مع المعطيات العلميّة ، ومن هنا فهي مشاكل تتعلّق بالصحة .. وبادئ ذي بدء يجب ملاحظة أنّ هذين النسبتين من جهة الرجال معدوما المعنى فيما يتعلّق بالمسيح ، ولو كان من الضروري إعطاء المسيح نسباً ، وهو وحيد مريم (أمه) وليس له أبّ بيولوجي فيجب أن يكون ذلك النسب من جهة مريم فقط .

إنَّ إنجيل متى يجعل نسب المسيح : عيسى بن يوسف بن يعقوب ...

وإنَّ إنجيل لوقا يجعل نسب المسيح : عيسى بن يوسف بن عالي ...

ويُعَلِّم من إنجيل متى أنَّ عيسى من أولاد سليمان بن داود ، ويُعلِّم من إنجيل لوقا أنَّه من أولاد ناثان بن داود .

وفي إنجيل متى من داود إلى المسيح ستّة وعشرون جيلاً ، وفي إنجيل لوقا واحد وأربعون جيلاً .

هذه أوجه اختلاف في نسب المسيح ، وهو نسب يوسف النّجار الذي كان رجل مريم كما تذكر الأناجيل ، وهذا الاختلاف الذي يعترف به المسيحيّون ، ولا يجدون مناصاً من الإقرار به .

ويقول موريس بوكاي ، تحت عنوان : (تناقضات وأمور غير معقولة في الرّوايات) : يحتوي كلٌّ من الأناجيل الأربعة على عدد هام من الرّوايات التي تسرد أحداثاً قد تكون مذكورة في إنجيل واحد فقط ، أو تذكر في عدّة أناجيل أو فيها كلها ، فإذا كانت مذكورة في إنجيل واحد فقط ، فإنّها تطرح مشاكل هامّة ، وعلى هذا ففي حالة ما يكون الحدث بعيد الرمي فإنّ القارئ يدهش أنّ مبشراً واحداً فقط قد ذكره ، وعلى سبيل المثال صعود المسيح إلى السّماء يوم القيامة ، يضاف إلى ذلك أنّ كثيراً من الأحداث مسرود بشكل مختلف ، وأحياناً بشكل مختلف جداً لدى اثنين أو أكثر من المبشرين ، وكثيراً ما يدهش المسيحيّون عندما يكتشفون وجود هذه التّناقضات بين الأناجيل ، فقد كرّر على مسمّهم وبكثير من التّأكيد أنّ كُتّاب الأناجيل كانوا شهداء معانين للأحداث التي أخبروا بها .

ومن الرّوايات المتضاربة أو المتناقضة ، الأحداث الأخيرة التي طبعت حياة المسيح والتي تلت آلامه ، ويلاحظ الأب (روجي) نفسه ، أنّ عيد الفصح معيّن بشكل

مختلف زمنياً بالنسبة إلى عشاء المسيح الأخير مع الحواريين في الأناجيل الثلاثة المتوافقة ، وفي الإنجيل الرابع ، فيوحنا يقول بوقوع هذا العشاء (قبل عيد الفصح) ، أمّا الأناجيل الأخرى فتقول إنه حدث في أثناء عيد الفصح نفسه ، ويؤدّي هذا التّضارب ، فضلاً عن ذلك ، إلى أمور واضحة في عدم معقوليّتها ؛ إذ يستحيل تصوّر هذا الحدث أو ذاك بسبب موقع عيد الفصح الذي تحدّد بهذا الشّكل وبالنسبة إلى هذا الحدث ، وعندما ندرك أهميّة عيد الفصح في الطّقوس اليهوديّة والأهميّة التي اكتسبها هذا العشاء الذي ودّع فيه المسيح حواريه ، فكيف يمكن تصوّر أنّ التّراث الذي نقله المبشّرون فيما بعد قد نسي زمن هذا العشاء بالنسبة إلى عيد الفصح ؟

وبشكل أكثر عموميّة ، تختلف روايات الآلام بحسب الأناجيل ، وهي تختلف بشكل خاص بين الأناجيل الثلاثة الأولى وبين إنجيل يوحنا ، فالعشاء الأخير للمسيح والآلام يحتلّان في إنجيل يوحنا مساحة كبيرة ، تبلغ ضعف المساحة عند كلّ من مرقس ولوقا ، ويزيد نصّ يوحنا بمقدار مرّة ونصف المرّة على نصّ متى ، ويسرد يوحنا خطبة طويلة للمسيح نحو تلامذته ، ويحتلّ سرد هذه الخطبة أربع إصحاحات (من ١٤ إلى ١٧) في إنجيله ، وعبر هذا الحديث الأعظم ، يعطي المسيح آخر إرشاداته لتلامذته الذين سيتركهم كما يسلمهم وصيّته الرّوحيّة ، وليس هناك أي أثر من هذا في الأناجيل الأخرى ، وعلى العكس ، يسرد متى ولوقا ومرقس صلاة المسيح الجيتسماني ، ولا يشير يوحنا إليها .

وأهمّ ما يلفت قارئ الآلام في إنجيل يوحنا ، هو أنّه لا يشير أي إشارة تأسيس القربان المقدّس في أثناء عشاء المسيح الأخير مع الحواريين .

وليس هناك مسيحي لا يعرف إيقونة العشاء الأخير ، حيث يجلس المسيح بين حواريه للمرّة الأخيرة ، لقد صوّر أعظم المصوّرين هذا الاجتماع الأخير وفيه يجلس يوحنا إلى جانب المسيح ، يوحنا .. هذا الذي اعتمدنا اعتباره مؤلّف الإنجيل الذي يحمل اسمه .

ومهما كان في ذلك دهشة للكثيرين ، فإنَّ غالبية المتخصِّصين لا يعتبرون أنَّ يوحنا الحواري هو مؤلِّف الإنجيل الرَّابع ، وهذا الأخير لا يشير إلى تأسيس القربان المقدَّس ، هذا على حين أنَّ تقدِّس الخبز والخمر اللَّذين يصحَّحان جسد المسيح ودمه ، هو الفعل الطَّقسي الكنسي الجوهرى للمسيحيَّة ، إنَّ الأناجيل الثلاثة الأخرى تتحدَّث عن هذا الفعل ، وإن كان ذلك بألفاظ مختلفة .. أمَّا يوحنا ، فهو لا يقول عنه كلمة واحدة ، روايات الأناجيل الأربعة تحتوي فقط على نقطتين مشتركتين : التَّنْبؤُ بإنكار بطرس وخيانة أحد الحواريِّين (ولا يشار إلى يهوذا الأسخريوطي باسمه إلا في إنجيلي متى ويوحنا) ، إنَّ إنجيل يوحنا وحده هو الَّذي يسرد غسل المسيح لأقدام تلامذته في بداية العشاء .

كيف يمكن تفسير هذه الثَّغرة في إنجيل يوحنا ؟

إذا أردنا التَّفكير بموضوعيَّة ، فإنَّ أوَّل ما يرد على الخاطر ، على افتراض أنَّ رواية الأناجيل الثلاثة الأولى صحيحة ، هو فرصة ضياع هذه الفقرة من إنجيل يوحنا الَّذي يسرد الحدث نفسه ، ولكن هذا ما لم يتوقَّف عنده المعلِّقون المسيحيُّون ، ولندرس بعض موافقهم .

يقول أ . تريكو A. Tricot تحت مقال بعنوان (العشاء الأخير Cene) ما يلي : « هو آخر عشاء تناوله المسيح مع الاثني عشر حوارياً ، والَّذي أسس فيه القربان المقدَّس ، ونحن نملك رواية هذا العشاء في الأناجيل الثلاثة المتوافقة ، (مراجع : متى ومرقس ولوقا) ، ويعطينا الإنجيل الرَّابع تفاصيل تكميليَّة ، (مراجع : يوحنا) » .

وفي مقال (القربان المقدَّس) يقول هذا الكاتب ما يلي : « تسرد الأناجيل الثلاثة الأولى تأسيس القربان المقدَّس بشكل مختصر ، وقد كانت تلك نقطة على أهميَّة كبرى في التَّعليم المسيحي الرَّسولي ، وقد أعطى القدِّيس يوحنا تكملة ضروريَّة لهذه الرِّوايات الوجيزة ، وذلك بسرد خطبة المسيح عن خبز الحياة (الإصحاح ٦ : ٣٢-٥٨) » ،

وبالتالي لا يشير المعلق إلى أن يوحنا لم يسرد تأسيس المسيح للقربان المقدس ، المؤلف يتحدث عن تفاصيل تكميلية لتأسيس القربان المقدس (والواقع أن المقصود هو منسك غسل أقدام الحواريين) ، أما فيما يخص (خبز الحياة) الذي يتحدث عنه المعلق ، فالمقصود هو ذكر المسيح - خارج العشاء الأخير - لمن الذي وهبه الله في الصحراء ، في عصر خروج اليهود الذين كان موسى قادم ، ويوحنا هو الوحيد من بين المبشرين الذي يذكر بهذا الأمر ، ولا شك في أن يوحنا يشير في الفقرة التالية في إنجيله ، لإشارة المسيح للقربان المقدس ، وذلك في شكل استطراد خاص بالخبز ، ولا يتحدث أي مبشر آخر عن هذا الحدث .

هكذا إذن يمكن أن ندهش لصمت يوحنا على ما يسرده المبشرون الثلاثة الآخرون ، ولصمت هؤلاء على ما أعلن المسيح عنه في قول يوحنا .

هذه الثغرة الكبيرة في إنجيل يوحنا ، يعترف بها المعلقون على الترجمة المسكونية للعهد الجديد ، ولكنهم يقدمون التبرير التالي لعدم سرد يوحنا لتأسيس القربان المقدس ، يقولون : « إن يوحنا - عموماً - لا يكن أي اهتمام إزاء تقاليد ومؤسسات إسرائيل القديمة ، وربما كان هذا هو الذي جعله يحيد عن الإشارة إلى تأصل القربان المقدس في طقوس عيد الفصح » ، كيف يريدون أن نصدق أن عدم الاهتمام بالطقوس الفصحية اليهودية هو الذي قاد يوحنا إلى أن لا يتحدث عن تأسيس المنسك الرئيسي في طقوس الدين الجديد ؟

إن المشكلة تخرج المفسرين إلى درجة أن علماء اللاهوت يحتالون في البحث عن صور أولية أو معادلات للقربان المقدس في أحداث حياة المسيح التي يسردها يوحنا ، فهكذا يرى أ. كولمان O.Culmann في كتابه (العهد الجديد) أن معجزة قانا^(١) وتكاثر الخبز ، هما بمثابة صورة مسبقة لسر العشاء المقدس (تناول القربان المقدس) ،

(١) قانا : قرية في الجليل (فلسطين) ، ذكر الإنجيل أن المسيح حول فيها الماء خمرأ في مأدبة عرس .

ولنذكر بأن ما حدث بقانا هو تحويل الماء إلى خمر نفذت في أحد الأعراس (وهي أول معجزة للمسيح ، ويذكرها يوحنا وحده من بين كل المبشرين ، في الإصحاح الثاني من إنجيله ، الآيات من (١ إلى ١٢) ، أمّا فيما يختص بتكاثر الأرغفة (يوحنا ، الإصحاح السادس ، الآيات من ١ إلى ١٣) ، فقد أدّى ذلك إلى إطعام خمسة آلاف شخص بخمسة أرغفة تكاثرت بمعجزة ، وعندما سرد يوحنا هذه الأحداث فإنه لم يضيف أي تعليق خاص ، إنّ عليّة تقريب هذه المعجزات من تأسيس القربان المقدّس هي من وحي خيال المفسّر الصّرف ، ولا يرى القارئ سبب هذا التّقريب ، كما يظلّ مببلاً جداً عندما يكتشف أنّ هذا الكاتب نفسه ، يرى أنّ شفاء المشلول والأعمى يبشّران بالتّعميد ، وأنّ « الماء والدّم الخارجيّ من صدر المسيح بعد موته يجمعان في حدث واحد إحالة إلى التّعميد والقربان المقدّس » .

ويعطي الأب روجي في كتابه (مقدّمة إلى الإنجيل ، ص : ١٨٢) أمثلة على الاختلاط والفوضى والتّناقض التي تسود روايات (ظهور المسيح بعد قيامته) ، فيقول :

« لا تطابق تماماً في الأناجيل الثلاثة المتوافقة في قائمة النّساء الآتين إلى القبر ، فليس هناك إلّا امرأة واحدة في إنجيل يوحنا ، وهي مريم المجدليّة ، ولكنها تتحدّث بضمير الجماعة كما لو كانت لها رفيقات فهي تقول : « لانعرف أين وضعوه » ، أمّا في إنجيل متى فملاك هو الذي يعلن للنّساء أنّهنّ سيرين المسيح بالجليل ، ولكن المسيح بعد لحظة يقابلهنّ على مقربة من القبر ، ولا شك أنّ لوقا قد شعر بهذه الصّعوبة وعدّل قليلاً في مصدره ، يقول الملاك : « تذكرون كيف تحدّث إليكنّ عندما كان بالجليل ... » ، والواقع أنّ لوقا لا يشير إلّا إلى ظهور المسيح ثلاث مرّات بعد قيامه ، أمّا يوحنا فيقول إنّّه ظهر مرّتين على ثمانية أيّام بجمع بيت المقدس ، ثمّ في المرّة الثالثة يظهر بالقرب من البحيرة .. إذن بالجليل ، وأمّا متى فإنّه يتحدّث عن مرّة واحدة

لظهور المسيح بالجليل ، ويستبعد (روجي) من هذه الدّراسة خاتمة إنجيل مرقس الّتي تتحدّث عن ظهور المسيح ، لأنّه يعتقد أنّها « قد كتبت بقلم آخر » .

وكُلّ هذه الأمور تتناقض مع الإشارات إلى ظهور المسيح المحتواة في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (٧-٥/١٥) ، إذ يقول إنّهُ قد ظهر لأكثر من خمسة شخص في وقت واحد ، ولجأك ولكلّ الحواريين دون أن ينسى نفسه .

وإنّه لَمِمّا يثير الدهشة بعد ذلك أن يندّد الأب روجي في هذا الكتاب نفسه « بالخوارق الطّنانة والطّفوليّة في بعض الأناجيل المزوّرة ، فيما يتعلّق بقيامة المسيح ، ألا تصلح هذه الأوصاف بشكل كامل لمتّى وبولس نفسه الّذي يتناقض تماماً مع المبشّرين الآخرين فيما يختصّ بظهور المسيح بعد قيامته ؟

وتتدّ المتناقضات حتّى نهاية الرّوايات ، لأنّه ليس يوحنا ، ولا متّى يشيران إلى صعود المسيح ، فمرقس ولوقا فقط يتحدّثان عن هذا .

وبالنّسبة لمرقس (١٦: ١٩) فإنّ المسيح « قد رُفِعَ إلى السّماء وجلس على يمين الله » ، وهذا دون تحديد تاريخي بالنّسبة لقيامته ، ولكن لا بدّ من ملاحظة أنّ نهاية إنجيل مرقس الّتي تحتوي على هذه الجملة ، ليست نصّاً صحيحاً ، وهي نصّ كُتِبَ وأُضيف بعد ذلك في رأي الأب روجي ، حتّى وإن كانت الكنيسة تعتبره قانونياً .

يتبقّى إنجيل لوقا ، فهو الوحيد الّذي يذكر حدث الصّعود ، وذلك في نصّ لا يناقشه أحد (٢٤: ٥١) ، يقول : « انفصل المسيح عنهم وحُمِلَ إلى السّماء » ، ويضع لوقا الحدث في نهاية رواية قيامة المسيح وظهوره للأحد عشر حوارياً^(١) ، وتتضمّن تفاصيل الرّواية الإنجيليّة أنّ الصّعود قد حدث يوم القيامة ، ولكن لوقا يصف في (أعمال الرّسل) - والكلّ يعتقد أنّه كاتبها - مرّات ظهور المسيح للحواريين بين الآلام

(١) المقصود هو الأحد عشر حوارياً حيث إنّ الثّاني عشر ، وهو يهوذا ، قد مات .

والصُّعود بالألفاظ التالية : « وقد حصلوا منه على أكثر من آية على حين أظهر نفسه لهم وحدّثهم ، طيلة ^(١) أربعين يوماً ، عن ملكوت الله » (١ : ٢-٣) ، إنّ هذه الفقرة من (أعمال الرُّسل) هي الأصل في تحديد العيد المسيحي للصُّعود بأربعين يوماً بعد الفصح وحيث يحتفل بالقيامة ، التاريخ إذن محدّد على عكس إنجيل لوقا ، ويضاف إلى ذلك أنّ ليس هناك أي نصّ آخر يبرّر هذا التّحديد التاريخي .

إنّ المسيحي وقد عرف هذا الموقف يشعر بالحيرة ، فالتّناقض واضح ، ومع ذلك فالترجمة المسكونيّة للعهد الجديد تعترف بهذا الواقع ، ولكنّها لا تفيض في الحديث عن التّناقض ، بل هي تكتفي بالإشارة إلى احتمال أهميّة هذه الأربعين يوماً بالنسبة لرسالة المسيح .

وإنّ المعلّقين الّذين يريدون شرح كل شيء ، والتّوفيق بين ما لا يقبل التّوفيق يعطوننا في هذا الشّأن تفسيرات شاذّة .

وإنجيل يوحنا هو المبشّر الوحيد الّذي سرد ما حدث في نهاية العشاء الأخير للمسيح وقبل القبض عليه ، أي آخر أحاديثه مع الحواريّين ، وينتهي هذا الحدث بخطبة طويلة ، فإنجيل يوحنا يفرد أربع إصحاحات (من ١٤ إلى ١٧) لتلك الرّواية الّتي لا نجد لها أثراً في الأناجيل الأخرى ، ومع ذلك فهذه الإصحاحات من إنجيل يوحنا تعالج مسألة أساسيّة وآفاق مستقبل ذات أهميّة بالغة ، وهي معروضة بكامل العظمة والجلال الّذين يميّزان هذا المشهد لوداع السيّد لتلاميذه .

كيف يمكن أن نشرح الغياب التّام في أناجيل متى ومرقس ولوقا للوداع المؤثّر الّذي يحتوي على الوصيّة الرّوحيّة للمسيح ؟ يمكن أن نطرح السّؤال التّالي : هل كان النّصّ موجوداً أولاً عند المبشّرين الثلاثة الأوّلين ؟ ألم يحذف فيما بعد ؟ لماذا ؟ ولنقل

(١) هكذا في الأصل . والصّواب : طوال .

فوراً إنه لا يمكن الإتيان بأية إجابة ، فاللغز مستغلِق تماماً بالنسبة لهذه الثَّغرة الكبيرة في رواية المبشرين الثلاثة الأولين .

إنَّ ما يسود الرِّواية هو مستقبل البشر الَّذي يتحدَّث عنه المسيح ، واهتمام السيِّد بالتَّوجُّه إلى تلامذته وإلى الإنسانيَّة برُمَّتها عبرهم ، معطياً إرشاداته وأوامره ومحدِّداً بشكل نهائي المرشد الَّذي على الإنسانيَّة أن تتبعه بعد اختفائه ، إنَّ نصَّ إنجيل يوحنا - وهذا النص وحده - يسمِّي بشكل صريح هذا المرشد باسم يوناني هو Parakletos ، الَّذي أصبح في الفرنسيَّة Paraclet ، وها هي ذي الفقرات الجوهرية من هذه الخطبة حسب التَّرجمة المسكونيَّة للعهد الجديد : « إذا كنتم تحبُّوني فستعملون على اتِّباع أوامري ، وسأصلي للأب الَّذي سيعطيكم Paraclet آخر » (١٤ : ١٥ - ١٦) .

وبعد شرح لغوي يقول موريس بوكاي : وعندما يقول المسيح حسب إنجيل يوحنا (١٦ : ١٤) : « سأصلي لله وسيُرسل لكم Paraclet آخر » ، فهو يريد بالفعل أن يقول إنَّه سيرسل إلى البشر وسيطاً (آخر) ، كما كان هو وسيطاً لدى الله ، وفي صالح البشر في أثناء حياته على الأرض .

ذلك يقودنا بمنتهى المنطق إلى أن نرى في الـ (Paraclet) عند يوحنا كائناً بشرياً مثل المسيح يتمتَّع بمجاسَّتي السَّمع والكلام ، وهما الحاسَّتَان اللَّتان يتضمَّنهما نصُّ يوحنا بشكل قاطع ، إذن فالمسيح يصرِّح بأنَّ الله سيرسل فيما بعد كائناً بشرياً على هذه الأرض ليؤدِّي الدور الَّذي عرفه يوحنا ، ولنقل باختصار إنَّه دور يسمع صوت الله ، ويكرِّر على مسامع البشر رسالته ، ذلك هو التفسير المنطقي لنص يوحنا إذا أعطينا الكلمات معناها الفعلي .

إن وجود كلمتي (روح القدس) في النص الَّذي نملك اليوم^(١) ، قد يكون نابعاً من

(١) تفسيراً لكلمة Paraclet التي كانت سائدة في القرن الأوَّل بمعنى : الوسيط والمدافع والمنقذ ..

إضافة لاحقة إرادية تماماً تهدف إلى تعديل المعنى الأول لفقرة تتناقض - بإعلانها بمجيء نبي بعد المسيح - مع تعاليم الكنائس المسيحية الوليدة التي أرادت أن يكون المسيح هو خاتم الأنبياء .

ويختم موريس بوكاي بقوله : « هناك العبارات المذكورة في الأناجيل فهي نفسها تثبت تناقضات جلية .. فخيالات متي ، والمتناقضات الصارخة بين الأناجيل والأمور غير المعقولة ، وعدم التوافق مع معطيات العلم الحديث ، والتعريفات المتوالية للنصوص ، كل هذا يجعل الأناجيل تحتوي على إصحاحات وفقرات تنبع من الخيال الإنساني وحده ..

ألم تقل إنه (الإسقاط) ليس غير ؟ وإن كل ما يقال بشأن القرآن الكريم من قبيل : « رمتني بدائها وانسلت » ؟.



القرآن

رؤى رآها محمد ﷺ

يذكر فيليب حتّي ، في كتابه (تاريخ العرب المطوّل) في معرض حديثه عن سيرة محمد ﷺ : « فيما هو نائم [ﷺ] يوماً في هذا الغار [غار حراء] ، سمع صوتاً يأمره قائلاً : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [خ سورة العلق ، فكان هذا أول الوحي وبدء الرسالة ^(١)] .

ويذكر نولدكه : « إنّ سبب الوحي النازل على محمد [ﷺ] ، والدعوة التي قام بها ، هو ما كان ينتابه من داء الصرع » ^(٢) .

احترار (المُسْقِطُونَ) الحاقدون المتعصبون من أعداء الإسلام في اختيار طرق الدسّ والكيد والكذب ، حتّى أوقعوا أنفسهم في كثير من الأحيان بالتناقض .

والغريب فيهم أنهم يقبلون أن تكون التّوراة وحياً من الله ، وتنزيلاً منه على موسى عليه السّلام ، ويقبلون أن تكون أقوال الحواريين وتلامذة المسيح عليه السّلام ، رواية عنه كما سمعوها ، أو كما وصلت إليهم على أنها وحي من الله ، ثابت في نصّه وحروفه : « فيأني الحقّ أقول لكم إلى أن تزول السّماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من النّاموس حتّى يكون الكلّ » ، [متى : ١٨/٥] ، لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من النّاموس ، على ما بين رواياته من اختلاف وتناقض .

(١) تاريخ العرب المطوّل ، ص : ١٥٧ .

(٢) حاضر العالم الإسلامي ، لوثرروب ستودارد : ٣٤/١ .

أما ما أنزل على محمد بن عبد الله ﷺ ، فهو - بزعمهم وإسقاطهم - رؤى ومنامات ، ومتى كان الإنسان يرى في أحلامه كتاباً مُحْكَمًا ، لا تناقض فيه ، ولا يخالف عقلاً أو علماً ، وفيه تشريع متكامل للمجتمع ، ينظم له قواعد حياته السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة ؟

باللعجب العجاب .. الروايات المتناقضة ، والأقوال التي يخجل الإنسان أن تنسب إليه ، فينسبها أولئك المتعصبون إلى الله ، تعالى وجلّ عما يقولون ، تلك كلها آيات أوحى بها إلى رسل وأنبياء ، والكتاب المتكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، رؤى ومنامات ؟!

إذا كان علماء النفس قد قالوا : إنّ الهوى يعمي ويصمّ ، فإنّي أقول : إنّ التعصّب يعمي ويصم ، ويقلب الباطل حقّاً ، والحق باطلاً .

وعلى كلّ ، أين الإسقاط في الرؤى والصرع ؟

أولاً (الرؤى) :

يعلم الباحثون أنّ أول إشارة لإنجيل مسيحي كانت سنة ١٥٠ م ، في كتابات بَبْيَاس (Papias) الذي كتب في عام ١٣٥ م : إنّ يوحنا الأكبر - وهو شخصيّة لم يستطع الاستدلال على صاحبها - قال إنّ مرقس ألف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس ^(١) .

« ولا يدعى الإنجيل الرابع [إنجيل يوحنا] أنّه ترجمة ليسوع ، بل هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتيّة بوصفه كلمة الله ، وخالق العالم ، ومنقذ البشريّة ، وهو يناقض الأنجيل الأخرى في كثير من التفاصيل وفي الصّورة العامّة التي يرسمها للمسيح » ^(٢) .

(١) قصّة الحضارة : ٢٠٧/١١ .

(٢) قصّة الحضارة : ٢٠٩/١١ .

« وملاك القول أنَّ ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر ، وأنَّ فيها قطعاً تاريخية مشكوكاً في صحتها ، وكثيراً من القصص الباعثة على الرّيبة والشّبهة بما يروى عن آلهة الوثنيين »^(١) .

- أوّل إشارة لإنجيل مسيحي سنة ١٥٠ م .
- ذكريات بطرس الّتي نقلها إلى مرقس .
- عرض لحياة يسوع من وجهة النّظر اللاّهوتية .
- تناقضٌ كثيرٌ بين الأناجيل .
- نقاط تاريخية مشكوك في صحتها ، وقصص كثيرة باعثة على الرّيبة ...

ثمّ يلي الأناجيل الأربعة المعتمدة [متى ، مرقس ، لوقا ، يوحنا] : أعمال الرّسل ، ورسائل إلى أهل : رومية ، وكورنثوس ، وغلاطية ، وأفسس ، وفيلبي ، وكولوسي ، وتسالونيكي ، وتيوتساوس ، وتيطس ، وفليمون ، والعبرانيين ، ثمّ رسالة : يعقوب ، وبطرس ، ويوحنا ، ويهوذا .

ثمّ توجّه هذا كله بـ (رؤيا يوحنا) .

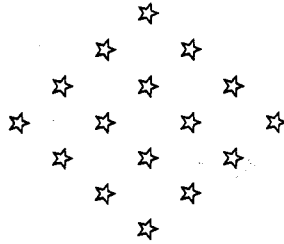
ومن هنا جاء إسقاط (الرّؤى) ، لتغطية (رؤيا يوحنا) الّتي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من (كتابهم المقدّس) !!

ثانياً (نوبات الصّرع) :

أمّا نوبات الصّرع ، فلن نتكلّم عنها مطوّلاً ، فالعالم المسيحي كلّهُ يعلم أنّ شاول (بولس الرّسول) ، الّذي تحوّل فجأة من الدّ أعداء يسوع وأتباعه ، إلى رسول مبشّر بما جاء به يسوع ، كان مصاباً بداء الصّرع ، وهذه حقيقة يعلمها كلّ مسيحي مطّلع ، ومن هنا جاء إسقاط (الصّرع) .

(١) قصّة الحضارة : ٢١٠/١١ .

والعاقل يعلم ، أنَّ المصايين بالصَّرع ، حافظتهم معطّلة في نوبات صرعهم ،
ومحمد ﷺ حافظته أجود ماتكون عند هبوط الوحي ، والنَّصارى لا ينكرون الوحي
ظاهرة ، ويعترفون به للأنبياء ، ولكنَّهم ينكرونه لمحمد بن عبد الله ﷺ ، ولو نزل
عليه القرآن الكريم اليوم ، بعد كلِّ اكتشافات العِلْم المذهلة ، مع سبر أغوار الأرض
والمحيطات ، والتحليق في أعماق الكون ، لما اختلفت نظرته إلى الكون ، أو الحياة ،
أو الإنسان ، والمكابرة في هذه الحقيقة ، هي مكابرة في المحسوس الملموس .



عقلنة الإسلام

يتساءل المبشرون وقد امتلكهم الغضب : كيف يستطيع دين العربي ، الذي لا يقدّس العقل ، أو يحترمه ، أن يسابق كنيسة دين ابن الله ؟ وهل دين الإسلام إلا مجموع خرافات وأباطيل لا يقبلها عقل^(١) ؟

عجيب هذا (الإسقاط) وغريب ، لم تعرف ديانة من الشرائع السماوية والأرضية ، ما عرفه الإسلام من اعتماد على العقل والتفكير والبعد عن الأساطير والأسرار ، ولم يجعل الله من وسائل رسوله محمد ﷺ في دعوته للناس ، ومحاولة إقناعهم أية وسيلة تقوم على السّحر أو الخوارق التي لا يقبلها عقل ، كالتقلاب العصا إلى أفعى ، وإحياء الموتى ، وإن حدثت معجزات على يد الرسول الكريم ﷺ ، فلم تكن أبداً من باب البرهنة على صدق النبوة ، وإنما لضرورات ، أو ربّما لتزيد المؤمنين إيماناً وثباتاً ، وكانت المعجزة الكبرى في الإسلام هي كتابه المجيد (القرآن الكريم) الذي تحدّى به العرب ، وما زالت أوجه إعجازه تبدو على مرّ الأجيال .

وعندما طلب المشركون المعجزات من رسول الله ﷺ ، نزل الله قرآناً يُتلى إلى قيام الساعة : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا

(١) الهلال والصليب ، خليل خالد أفندي ، طبع في مطبعة الهداية بالقاهرة سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م ، بعناية الشيخ عبد العزيز جاويز ، (انظر صفحة ٦٢ من الكتاب المذكور وما بعدها) .

نَذِيرٌ مُبِينٌ ☆ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ [العنكبوت : ٥٠/٥١] .

والقران الكريم في الكثير الكثير من آياته يخاطب العقل ، ويدعو إلى التفكير ، ويحضُّ على التدبُّر ، وما أكثر الآيات القرآنيَّة التي تنتهي بقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ ﴾ ، ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ...

فأين هذا من محاولة إثبات أنَّ الثلاثة هي واحد ، وأنَّ الواحد هو ثلاثة ؟ وما وظيفة كل من أفراد هذا التثليث ؟

وأين هذا من قولهم إنَّ الابن مولود غير مخلوق ، والابن ليس أحدث من الأب ؟ وأين العقل من قولهم : « لا تقل في قلبك كيف يمكن أن يتجسَّد الله ويصير إنساناً ، فدع ذلك لأنَّه من شأنه الخاص » ^(١) .

ويقول القس (وهيب عطا الله) : إنَّ التَّجسُّد قضية فيها تناقض مع العقل والمنطق والحس والمادَّة والمصطلحات الفلسفيَّة ، ولكننا نصدِّق ونؤمن أنَّ هذا ممكن حتَّى ولو لم يكن معقولاً ^(٢) . ويتساءل الدكتور أحمد شلبي ^(٣) :

ادَّعى المسيحيُّون أنَّ صلب المسيح كان لتحقيق العدل والرحمة ، وأيُّ عدل ، وأيُّ رحمة في تعذيب غير مُذنبٍ وصلبه ؟ قد يقولون إنَّه هو الَّذي قَبِلَ ذلك ، ونقول لهم إنَّ من يقطع يده أو يعذبُ بدنه أو ينتحر ، مُذنب ولو كان يريد ذلك .

وإذا كان المسيح ابن الله ، فأين عاطفة الأبوة ؟ وأين كانت الرَّحمة حينما كان الابن الوحيد يلاقي دون ذنب ألوان التعذيب والسَّخْرية ، ثمَّ الصَّلْب مع دقِّ المسامير في يديه ...

(١) شرح رسالة القديس بولس إلى أهل رومية ، ص : ١٣٩ .

(٢) مقارنة الأديان (المسيحيَّة) ، ص : ١٤٤ ، عن : طبيعة السيِّد المسيح ، ص : ١٨ .

(٣) في مقارنة الأديان (المسيحيَّة) ، ص : ١٦٢ وما بعدها .

وإذا كان صلب المسيح عملاً تمثيليّاً على هذا الوضع ، فلماذا يكره المسيحيّون اليهود ويرونهم آثمين معتدين على السيّد المسيح ؟

وهل كان نزول ابن الله وصلبه للتّكفير عن خطيئة البشر ضروريّاً ، أو لم تكن هناك وسائل أخرى من الممكن أن يغفر الله بها خطيئة البشر ؟

يجيب القسّ (بولس سباط) عمّا سبق من تساؤلات بقوله : لم يكن تجسّد الكلمة ضروريّاً لإنقاذ البشر ، ولا يتصوّر ذلك مع القدرة الإلهيّة الفائقة الطّبيعة .

ثمّ يسترسل هذا الكاتب فيذكر السّبب في اختيار الكلمة ليكون فداء لخطيئة البشر ، فيقول : إنّ الله على وفرة ماله من الذّرائع إلى فداء النّوع البشري ، وإنّقاذه من الهلاك الذي نتج من الخطيئة ومعصية أمره الإلهي ، قد شاء سبحانه أن يكون الفداء بأعزّ ماله ، لما فيه من القوّة على تحقيق الغرض وبلوغه سريعاً .

ويصرخ الدكتور شبلي في وجه هذا الكاتب : إنّهُ ليس من الحكمة في شيء أن نفتدي بدينار ، مانستطيع أن نفتديه بفلس ، تعالى الله عن ذلك .

وإجابة أخرى عن هذه التّساؤلات ، على لسان الأب بولس إلياس ، الذي يقول :

مما لا ريب فيه أنّ المسيح كان باستطاعته أن يفتدي البشر ويصالحهم مع أبيه بكلمة واحدة ، أو بفعل سجود بسيط يؤدّيه باسم البشريّة جمعاء لأبيه السّماوي ، لكنّه أبى إلا أن يتألّم ، لالأنّه مريض يتعشّق الألم ، ولا لأنّ أباه ظالم يطربّ لمراى الدّماء ، وأيّة دماء ؟ ابنه الوحيد ، وما كان الله بسفّاح ظلوم ، لكن الله الابن شاء مع الله الأب أن يعطي النّاس أمثولة خالدة من المحبّة ، تبقى على الدّهر ، وتحركهم على النّدامة على ما اقترفوه من آثام ، وتحملهم على مبادلة الله المحبّة .

فأين المنطق و (العقلنة) في هذه الإجابات العاطفيّة السّخيفة ؟!

وبعيداً عن العقل ، تعتقد الأديان البدائية وتعتمد على خوارق العادات ،
والمسيحية من الأديان التي تعول في بقائها وانتشارها على عجائب الشفاء ، وآثار القوى
الخفية الغيبية .

جاء في كتاب (الشرق والغرب) قصة عُرِفَت باسم (الرُّمَح المقدَّس) ،
خلاصتها : دفع الصليبيون من أجل عبور آسية الصغرى ثمناً باهظاً ، إذ فقدوا أفضل
جنودهم وخيرة عساكرهم ، بينما استولى اليأس والفرع على البقية الباقية .

وبدأ الخوف من تفكك الجيش ، وفرار الجنود يساور القادة ، فعمدوا إلى بعض
الحيل الدنيئة لصدِّ هذا الخطر ، وربط الجنود برباط العقيدة ، ومن تلك الحيل التي
رُوجوا لها ، مارواه المؤرخون عن ظهور المسيح والعذراء أمام الجنود الهيايين ، ووعدهم
بالصفح عن الخطايا والخلود في الجنة ، إذا ما استماتوا في معاركهم ضدَّ المسلمين .

غير أنَّ هذا الأسلوب النظري لم يلهب حماس الجنود ، ولم يحقق الغرض الذي
ابتدعه الصليبيون من أجله ، فكان لابد من أسلوب آخر ينطوي على واقعة ماديّة
يكون من شأنها إعادة الإيمان إلى القلوب التي استبدَّ بها اليأس وتقوية العزائم التي
أوهنتها الحرب ، وهنا أُذيع بين الجنود قصة اكتشاف الرُّمَح المقدَّس .

تلك الواقعة التي روى تفاصيلها المؤرخ (جيبون) ، فضلاً عن غيره من المؤرخين
المعاصرين ، قال ^(١) :

إنَّ قساً يدعى بطرس بارتلمي من التَّابعين لأسقفية (مارسيليا) ^(٢) ، منحرف
الخلق ذا عقلية شاذة ، وتفكير ملتوٍ معقد ، زعم لمجلس قيادة الحملة الصليبية ، أن قدِّيساً
يدعى (أندريه) ^(٣) زاره أثناء نومه وهذَّده بأشدَّ العقوبات إن هو خالف أوامر السماء ،

(١) قنائف الحق ، ص : ٥١ .

(٢) مارسيليا Marseille : مرفأ في جنوبي فرنسا على البحر المتوسط .

(٣) (القدِّيس) أندراوس الكريتي (ت ٧٤٠ م) ، ولد في دمشق ، وترهَّب في أورشليم ، عيِّن أسقفاً في
جزيرة كريت .

ثم أفضى إليه بأنَّ الرُّمَح الَّذِي اخترق قلب عيسى - عليه السَّلام - مدفون بجوار كنيسة القديس بطرس في مدينة (أنطاكية) ^(١) ، فروى (بارتلمي) هذه الرؤيا لمجلس قيادة الجيش ، وأخبرهم بأنَّ هذا القديس الَّذِي طاف به في منامه ، قد طلب إليه أن يبادر إلى حفر أرض المحراب لمدة أيَّام ، تظهر بعدها (أداة الخلود) الَّتِي (تخلَّص) المسيحيَّين جميعاً ، وأنَّ القديس قال له : « ابجثوا تجدوا ... ثم ارفعوا الرمح وسط الجيش ، وسوف يرق الرمح ليصيب أرواح أعدائكم المسلمين » .

وأعلن القسُّ بارتلمي اسم أحد النبلاء ليكون حارساً للرمح ، واستمرت طقوس العبادة من صوم وصلاة ثلاثة أيَّام ، دخل في نهايتها اثنا عشر رجلاً ليقوموا بالحفر والتنقيب عن (الرمح) في محراب الكنيسة (!) .

لكنَّ أعمال الحفر والتنقيب الَّتِي توغَّلت في عمق الأرض اثني عشر قدماً ، لم تسفر عن شيء ، فلما جنَّ اللَّيْل ، أخلد (النَّبِيل) الَّذِي اختير لحراسة الرمح إلى شيء من الرَّاحة ، وأخذته سِنَّةٌ من النَّوم ، وبدأت الجماهير الَّتِي احتشدت بأبواب الكنيسة تتهامس!

فاستطاع القسُّ بارتلمي في جنح الظَّلام أن ينزل إلى الحفرة مُخْفِياً في طيَّات ثيابه قطعة من نصل رمح أحد المقاتلين العرب ، وبلغ أسماع القوم رنينٌ من جوف الحفرة ، فتعالت صيحاتهم من فرط الفرح ، وظهر القسُّ ويده النِّصل الَّذِي احتواه بعد ذلك قماش من الحرير الموشَّى بالدَّهَب ، ثم عُرِضَ على الصَّليبيِّين ليلتمسوا منه البركة ، وأذيعت هذه الحيلة بين الجنود ، وامتلأت قلوبهم بالثِّقة ، وقد أمعن قادة الحملة في تأييد هذه الواقعة ، بغضِّ النَّظر عن مدى إيمانهم بها ، أو تكذيبهم لها ..

(١) أنطاكية : مدينة على نهر العاصي في لواء الإسكندرون ، أسَّسها سلوقس الأوَّل نيكاتور سنة ٣٠٧ ق م ، دخلها الصَّليبيُّون سنة ١٠٩٨ م مع بدايات الحروب الصَّليبيَّة .

وعلى هذا النحو ، ولئلا هذا الغرض ، جرت أسطورة ظهور العذراء في شهر آذار (مارس) سنة ١٩٧٨ ، في كنيسة عادية بالقاهرة ، كاهنها - فيما عِلِمَ - رجل فاشل ، لا يتردد الأقباط على دروسه ^(١) .

وبين عشية وضحاها أصبح كعبة الآلاف ، فقد شاع وملاً البقاع أن العذراء تجلّت شبحاً نورانياً فوق برج كنيسته ، ورأها هو وغيره في جنح الليل البهيم .
وردّ هذا الباطل باحث مسيحي .

يقول Otte Meinardus في كتابه Chirstian:Faith and Life : « في شهر مارس - آذار - سنة ١٩٦٨ صرخت كنيسة العذراء بالزيتون بشارع (طومان باي) صرخة مدوية بأن العذراء ظهرت بها ، وأنها تشفي المرضى ، وتعيد الإبصار للعميان ، وقد سمع بهذه الصرخة آلاف المصريين ، فاتجهوا ليروا هذا الأمر الجلل ، ولم تقنع القيادة المسيحية بمصر بأن يُذاع مثل هذا الخبر دون توثيق ، فأرسل البطريك كروئس السادس ، مطران (بني سُوَيْف) ^(٢) ليرى ذلك بنفسه ، وليعلنه بصفة رسمية ، وفي الثاني من إبريل - نيسان - أعلن هذا المطران ظهور العذراء في هذه الكنيسة ، وأنها ظهرت عدّة مرّات مجمها الطبيعي ، أو ظهر النصف الأعلى منها ، وقد أذاع المطران هذا الإعلان في مؤتمر صحفي ذاكراً أنّه رأى العذراء بنفسه ، وأنّ آلاف الناس رأوا ذلك معه » ^(٣) .

ويقرّر المؤلف أنّ الذي ظهر ليس إلا انعكاساً ضوئياً ^(٤) ، وليس بحال من الأحوال

(١) قذائف الحق ، ص : ٥٠ وما بعدها .

(٢) بني سُوَيْف : مدينة في مصر على النيل ، عاصمة محافظة بني سُوَيْف .

(٣) Christian Egypt P.265 ، انظر : مقارنة الأديان (المسيحية) ، ص : ١٠٩ .

(٤) وهذا ما أكّده الدكتور محمد جمال الدين الفندي ، أستاذ الطّواهر بكلية العلوم في جامعة القاهرة ، وذكر ذلك (شوتلاند) في كتابه : الكهرباء الجوّية Atmospheric Electricity ، وحاول الدكتور الفندي نشر ذلك في الصّحف القاهرية فأبّت ، قائلة : إنّ هذه الحادثة - على كذبها - تشجّع السيّاحة ، (قذائف الحق ، ص : ٥٠-٥٦) .

ظهوراً للعدراء ، كما قرّر الحقيقة القائلة : إنّ العدراء لم تكن تشفي المرضى وهي حيّة منذ ألفي عام ، والذي يطالع الأناجيل الأربعة بعناية وعمق ، لا يجد لمريم البتول قدسية خاصّة ، وكل ماتناله من إجلال يرتبط بأنّها أم عيسى ، وليس في الأناجيل قطّ ما يثبت لها معجزات في حياتها .

ويذكر كذلك أنّ البطريرك لم يتّجه بنفسه إلى كنيسة العدراء إلّا بعد أربعة أشهر من هذا الإعلان ، ممّا يدلّ على تهاونه به ، ولو حدث ظهور العدراء فعلاً لأسرع لاستقبالها والسجود لها ، ولكن سلوكه كان أقلّ حماساً وانفعالاً من معظم الأقباط ^(١) .

ويستمر المؤلف فيقول إنّ الكنائس في شبرا وفي المعادي ^(٢) أخذت تتنافس في ادّعاء هذا الأمر لتجذب لها جماهير المخدوعين ، بل وصل الأمر إلى كنائس شتى في جميع بلاد الشرق الأوسط أخذت تدّعي هذا الادّعاء ^(٣) .

ويختتم المؤلف وصفه لهذه المسألة بحديثه عن كارثة بشرية تسببت عنها ، فيذكر أنّه في ١٩ مايو - أيار - سنة ١٩٦٨ قُتل وطئاً تحت الأقدام حوالي خمسة عشر شخصاً في زحام داخل كنيسة شبرا ، وبهذا الحدث الجلل توقّف هذا الباطل ، وقطعت ألسنة الكاذبين .

ومن ذروة العقل ، وقمة الفكر السليم في المسيحية التي تطالب بعقلنة الإسلام ، التالي :

إنّ الشخص في المسيحية إنّما يصير مسيحياً من خلال التعميد ، ويقول القسيس له أنّه أصبح مسيحياً ، كذلك يستطيع القسيس أن يحكم على شخص بأنّه لم يعد مسيحياً ، فيصير كذلك .

(١) Christian Egypt, P.267

(٢) شبرا والمعادي ، حيّان من أحياء مدينة القاهرة .

(٣) وظهرت في (الحبشة) قريباً من أحد المساجد الكبرى ، فاستولت عليه السلطة فوراً ، وشيّدت على =

وإذن .. فالشخص في المسيحية ليس حراً كاملاً الحرية الشخصية في اعتقاده بما يشرده إليه عقله ، بل إن كونه مسيحياً أو غير ذلك منوط بما يتفق به رئيسه الدّيني ، ولقد جرت المسيحية على هذا الأصل طوال تاريخها ، ولم يناع فيه بعض النصارى إلاّ أخيراً .

والحق أن الشعوب المسيحية تحمّلت نتيجة لهذا الاعتقاد آلاماً تفوق الوصف ، أحدثها كثير من البابوات والأساقفة والقساوسة وقضاة محاكم التفتيش طوال قرون عديدة ، لم تنته إلاّ في أواخر القرن التاسع عشر ، وذلك بما وضعوا من نظريات دينية وعلمية وهمية فرضوها فرضاً على المؤمنين ، وتصدّوا لمن قاومها من العلماء بالحديد والنار^(١) .

أمّا النتائج المباشرة لمثل هذه التعاليم^(٢) التي تلقّاها آباء الكنيسة الأوائل باعتبارها أوامراً لا يأتيتها الباطل من بين يديها ، ولا من خلفها ، فكانت عجيبة جداً ، فقد شاع في طول عالم النصرانية وعرضه روح تستهدف ترك الدنيا وما فيها ، والانقطاع إلى الآخرة ، حتّى لقد شاع القول بأنّه مادام هذا العالم سيهلك ويزول ، فلماذا إذن

= المكان كلّ كنيسة سامقة !! وظهرت في (لبنان) فشدت من أزر المسيحية التي تريد فرض وجودها على جباله وسهوله ، مع أن كثرة لبنان مسلمة ، وما هي ذي قد ظهرت في القاهرة لتضاعف من نشاط الأقباط كي يشددوا ضغطهم على الإسلام ، وظلّت جريدة (وطني) الطائفية تتحدّث عن هذا التجلّي الموهوم قريباً من سنة ، إذ العرض مستمر ، والخوارق تترى ، والأمراض المستعصية تشفى ، والحاجات المستحيلة تقضى ...

كلّ ذلك وأفواه المسلمين مكّمة ، وأقلامهم مكسورة حفاظاً على الوحدة الوطنية ، وسوف تتجلّى مرّة أخرى بداهة عندما تريد ذلك الحابرات المركزية الأمريكية ، والله في خلقه شؤون .. (قذائف الحق ، ص : ٥٦) .

(١) حضارة الإسلام ، جلال مظهر ، ص : ١٦٠ .

(٢) ونتيجة لرأي اللاهوتيين ترك الدنيا وانتظار ملكوت السّماء ، طبقاً لإنجيل متى ، الإصحاح : ٦ و ١٠ و ١٩ ، كثر الحصيان الذين خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السّماوات ، من استطاع أن يقبل فليقبل !!؟

التفكير فيه وفي أموره ؟ ثم إنه ساد جو من الزهد العجيب ، ويدلنا التاريخ على كثير من القديسين الذين تركوا أجسادهم نهياً للحشرات والهوام تدنياً ، ولا عجب فقد امتنع بعضهم عن الاستحمام ، أو غسل الأيدي والأطراف طوال حياته ، وشاع المثل القائل بأن القذارة من الإيمان^(١) ، قروناً عدة^(٢) .

« إن الحياة في الأوساخ والقاذورات كانت تعتبر في نظر عدد غفير من القديسين الذين أعطوا المثل للمجتمع الأوربي ، ووضعوا مبادئ كنسية ، دليلاً على القداسة والتقوى ، وثبتت أقوال القديس جيروم ، وما جاء في كتاب صلوات الكنيسة الرومانية ، وبطريقة مثيرة للعواطف ، الحقيقة الماثلة في أن القديس هيلاريون عاش طول حياته في قذارة جسدية مطلقة ، ولقد مجد القديس أثاناسيوس القديس أنطونيو لأنه لم يغسل قدميه قط ، وأن أكثر الدلائل المثيرة الدالة على قداسة القديس إبراهيم تشير إلى أنه لم يغسل يديه أو قدميه لمدة خمسين عاماً طوالاً .

وأما القديسة سلفيا ، فلم تغسل أي جزء من جسدها قط تبعاً للتعالم الدينية ، وكانت القديسة مريم المصرية عنواناً على القذارة ، وأما القديس شمعون ستايلاتيز فلم يكن له نظير قط في القذارة في أي زمان أو مكان ، وإن أقل ما يمكن أن يقال فيه أنه كان يعيش في أوساخ وقذارات لا يحتملها زائروه »^(٣) .

ويكفي أن نذكر القارئ في هذا المقام ، أن محكمة التفتيش الدينية هدمت في

(١) أين هذا من شعار الإسلام والمسلمين : « النظافة من الإيمان » ؟ !

(٢) حضارة الإسلام ، جلال مظهر ، ص : ١٦١ عن ،

A.D.Withe: A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom.

Vol.11.P.69.

(٣) المرجع السابق ، ص : ١٦١ .

القرن السادس عشر ، بعد طرد المسلمين من إسبانية ، الحمّامات التي كان المسلمون قد أنشؤوها ، سواء العامة أو الخاصة ، باعتبارها من مخلفات الكفار^(١) .

ولا عجب إذا قلنا إن معظم منازل أوربة كانت إلى عهد قريب غير مزوّدة بحمّامات ، ويقول الأستاذ أندرو ديكسون وايت إنّ أحداً في العالم المسيحي لم ينادِ بأنّ النظافة من الإيمان قبل جون وزلي في أواخر القرن الثامن عشر^(٢) .

ومّا يذكر في مجال (العقلنة) أيضاً ، لما قال المسلمون بكروية الأرض ، أحدث ذلك اضطراباً شديداً في عالم النصرانية ، ولقد حكمت الكنيسة على كريستوفر كولبس الذي سافر إلى المحيط الأطلسي لعلّه يكشف أرضاً جديدة ، بأنّ عمله هذا مخالف لأصول الدين ، حكم بهذا مجمع (سلامونك) ، ولم يفده ، ولم ينقذه إلاّ معاونة بعض الملوك ، على الرغم من الكنيسة التي عرضت أمره على أقوال الآباء ورسائل الرُّسل والأنجيل ، والنبوات والزُّبور والأسفار الخمسة .

ومن المضحكات أنّ الكنيسة ثارت ثائرتها عندما نقلت امرأة تسمى (ماري مونتاجه) سنة ١٧٢١ م إلى أوربة طريقة الحقن تحت الجلد بمادّة المرض ، هذه الطّريقة التي اكتشفها المسلمون^(٣) .

وعلى الرغم مما سبق ، يطالبون المسلمين والإسلام (بالعقلنة) ، علماً أن عقيدتهم براء منها ، وشاهد ذلك كتاب :

(١) المرجع السابق ، ص : ١٦٣ ، عن :

H. Th. Buckle:History of Civilization in English, Vol.11,P.486.

(٢) المرجع السابق ، ص : ١٦٣ ، عن :

A.D.White:A History of the Warfare of Science With Theology in Christendom,
Vol.11.P.69.

(٣) الدّعوة الإسلامية دعوة عالميّة ، ص : ٤٨٦ .

أُسطورة تجسّد الإله في السيّد المسيح

أشرف على التّحرير بروفيسور جون هيك (أستاذ اللاهوت جامعة برمنجهام) .
عَرَّبَه : د . نبيل صبحي ، دار القلم بالكويت ، ط ١٩٨٥/١ م .

The Myth of God Indcarnate

Edited by: John Hick

Firsf published 1977 by SCM Press Ltd. 58 Bloomsbury Street, London WCI.

الكتاب أبحاث لـ :

- دون كويّيت : محاضر في الإلهيّات وعميد كلّية عمانوئيل ، جامعة كمبردج -
بريطانية .
- ميكائيل غولدر : محاضر في اللاهوت في جامعة برمنجهام - بريطانية .
- جون هيك : بروفيسور اللاهوت في جامعة برمنجهام - بريطانية .
- لِسلي هُولْدِن : محاضر في دراسة الأناجيل في كلّية كينغ - جامعة لندن -
بريطانية .
- دنيس ناينهام : مدير كلّية كيبيل ، أكسفورد - بريطانية .
- موريس وايلز : بروفيسور الإلهيّات والكتاب المقدّس في كلّية المسيح ،
أكسفورد - بريطانية .
- فرنسيس يُونغ : محاضرة في دراسة الأناجيل في جامعة برمنجهام - بريطانية .

كلمة الناشر البريطاني :

١٨٦٠ م تصادم بين الكنيسة والعلم ، وذلك التّصادم الذي تجلّى بين هاكسلي ،
والمطران ولبرفورس ، فصدرت مجموعة مقالات ومراجعات في كتاب ، قيل عنه : لغم

شُرِّير للإيمان المسيحي ، ومؤلفوه السبعة وصفوا بأنهم (سبعة ضد المسيح) ، وقامت محاولات في المحكِّمة لتجريد القساوسة الأنجليكان ، من بين الكتاب السبعة من منصبهم الكهنوتي .

كانت ردود الفعل على كتاب (أسطورة تجسُّد الإله في السيِّد المسيح) عنيفة .. إلّا أنَّها لم تكن كُلُّها معادية ، فلقد كان الاهتمام بالكتاب شديداً ، وبيعت الطَّبعة الأولى كُلُّها يوم إصدارها ، وأعيد الطَّبع مرَّات بعد ذلك بقليل .

أهمِّية الكتاب ترجع لسببَيْن :

١ - الكتاب دراسات لطبيعة لغة العقيدة المسيحيَّة ، تهتمُّ باستكشاف معنى الكلمات الَّتِي يردُّدها المسيحيُّون في معتقداتهم ولغة عبادتهم .

٢ - ويثير الكتاب موضوع العلاقة بين المسيحيَّة والأديان الكبيرة العالميَّة الأخرى . وهذه المسألة لم تحظْ إلّا بالقليل من النقاش في المجتمع الأوربي المعاصر المتعدِّد العناصر والأجناس .

الكتاب ليس من نوع الجزم القاطع الَّذِي لا يقبل نقاشاً ، إنَّه يشير إلى مشكلات ويقترح اتِّجاهات يمكن أن يكون فيها الحلُّ المطلوب .

ولا يطلب الكتاب من الجميع أن يقبلوه ، بل هو دعوة عاجلة لنوع من الأفكار اللازمة إذا أرادت المسيحيَّة الإبقاء على سلامتها الفكريَّة في عالم اليوم والغد .

في الكتاب أبحاث عشرة كتبها سبعة أساتذة ، ستَّة رجال وامرأة ، هدفها : البحث في جذور الأسطورة ومصادرها الَّتِي تسرَّبت إلى العقيدة المسيحيَّة ، وعقيدة السيِّد المسيح الأصليَّة براء منها ، والَّتِي جاءت بمعتقد التَّجسُّد - أو الحلول - والتَّأليه ، والتَّثليث ، ويرى الكتاب السبعة مجتعيين ، أنَّ الوقت قد حانَ لترك هذه الأسطورة الدَّخيلة على دعوة المسيح .

- يتساءل البروفسور موريس وايلز أستاذ الإلهيات والكتاب المقدس في جامعة أكسفورد في الفصل الأول : هل من الممكن وجود مسيحية دون تجسد ؟ وهناك أساس متين - في نظره - للدعوة إلى ترك الادعاء بالتجسد والوهية المسيح .

- البحث الثاني للأستاذة (فرنسيس يونغ) المحاضرة في دراسة الأناجيل في جامعة برمنغهام ، تقول : الأناجيل وثائق ذات أهداف متعددة وآتية من خلفيات مختلفة ، يتوزع تاريخ تأليفها على ثلاثة أرباع قرن ، وناقشت ألقاب يسوع في الأناجيل ومعانيها الممكنة في خلفياتها التاريخية ، واستنتجت ما يلي :

أ - إن هذه الألقاب والأفكار كانت موجودة قبل أن يتبناها المسيحيون الأوائل ، ويمكن الاطلاع عليها في وثائق غير مسيحية ، وبتفسيرات غير مسيحية .

ب - نسبت هذه الألقاب إلى يسوع ... ولم يدعيها يسوع نفسه .

ج - لهذه الألقاب أصول يهودية - يونانية .

د - لا توفر الأناجيل معلومات مباشرة من الوحي عن ألوهية يسوع .

- الفصل الثالث : ميكائيل غولدر (المحاضر في اللاهوت في جامعة برمنغهام) ، يقول : من الواضح تماماً أن المعتقدات التقليدية عن : الله ، والمسيح ، والخلاص ، والدَّينونة .. وغيرها ليست متأسكة ، وغير مفهومة ، إلا أنني أعتقد - وكذلك زملائي الذين شاركوا في هذا الكتاب - أننا لسنا مجبرين على الاختيار بين هاوية الإلحاد أو جمود المعتقدات المسيحية التقليدية .

إن المسيحية تقول بتجسد أقنوم الله في المسيح ، وهذه النظرة هي التي قدست في الكتب الدينية مع كل مشاكلها ، وهي تضم تناقضات لا يمكن حلها .

- وفي المقالة الرابعة ، يكشف (غولدر) عن الأصول التي جاءت منها معتقدات ثنائية الطبيعة ، والتجسد ، والتأليه ، ومن الذي أدخلها على المسيحية الأصلية ، ومتى

كان ذلك ، ويؤكد (غولدر) رأيه بقوله : « إنَّ العمل الكامل في تأليه يسوع يقع عبؤه على كتف يوحنا » .

- وفي المقالة الخامسة للأستاذة (فرنسيس يونغ) تنقل بتفصيل من التاريخ اليوناني الوثني القديم قصصاً وأساطير عن الآلهة ، وعملية التأليه برأي الأستاذة فرنسيس مستلهمة كلياً من الوثنية .

الأساطير الوثنية اليونانية أدخلت التجسّد والتثليث والتأليه في المسيحية ، إنَّ تأثير صورة يسوع بلورت عناصر كانت موجودة قبل ظهوره ، ويبدو أن هناك عناصر أساسية أربعة :

١ - استعمال جَمَلٍ مثل (ابن الله) كان متداولاً قبلاً بلا شك .

٢ - التأليه ، وصعود الإنسان الاستثنائي إلى مملكة سماوية من التقاليد اليونانية واليهودية .

٣ - الاعتقاد بكائنات سماوية بعضها ينوب عن الله في يوم الدينونة ، وأولهم ربما كان أداة الله في عملية الخلق .

٤ - فكرة ظهور رئيس لهذه الكائنات على الأرض في تجسّد حقيقي .

- الفصل السادس (لسلي هولدن) المحاضر في الأناجيل بجامعة لندن ، يلامس الموضوع نفسه بقفازٍ حريري ، ويحاول بأنعم وأرقّ أسلوب وعبارة ، إقناع المسيحيين بترك التعبيرات القديمة عن المسيح مثل (ابن الله) و (الله) للتاريخ ، لأنها لا تصلح للحاضر ، ولا يمكن للدفاع عنها بالمفهوم الحرفي ، فهي رمزية ، وليست حقيقية .

- الفصل السابع (دُون كوبيت) عميد كلية عمانوئيل بجامعة كبردج ، وبدأ بذكر (يوحنا الدمشقي ٦٧٥-٧٤٩ م) ، الذي دافع عن (الأيقونات) ، فيقول كوبيت :

« ومن السُّخرية أنْ حَرَّيْتُهُ في الدِّفاع عن الأيقونات كانت بسبب حماية المسلمين له ، وهو يعيش بينهم ، فكان قادراً على الدِّفاع من داخل بلاد الإسلام ، في وقت لم يكن يوحناً آمناً لاتخاذ مثل هذا الموقف في الإمبراطورية المسيحية » .

وردَّ يوحناً على القائلين إنَّ الأيقونات ليست في الكتب المقدَّسة باعتباره بتلك الحقيقة مضيئاً : لن تجدوا أيضاً في الكتب المقدَّسة التَّثليث وثنائية الطَّبيعة للمسيح ، ويعترف يوحناً الدَّمشقي أنَّ الأيقونات والتَّثليث والتَّجسُّد كلُّها بدعٌ جديدة حثَّ النَّاس على التَّمسُّك الشَّدِيد بها كتقاليد مقدَّسة انتقلت إلينا من آبائنا ، فإذا ضاعت هذه البدعُ يصبحُ الإنجيلُ كلُّه مهدِّداً .

ثمَّ يورد (كويت) ما أضرتَّ به عقيدة التَّجسُّد بالإيمان بالله الواحد ، ويقول :

إذا كان الله ذاته متجسِّداً كلياً في المسيح ، يمكن عبادة يسوع مباشرةً على أنَّه الله دون المخاطرة بخطأ أو تجديف ، ويمكن الدِّفاع هكذا عن عبادة المسيح كأمرٍ مميِّزٍ عن عبادة الله ، وهذا ما حدث فعلاً فعاد التَّوجُّه المباشر للمسيح في الطُّقوس التَّعبُديَّة ، والمُثَلُّ على وثنية المسيحية كان في الاتفاق على تأسيس مجلس الكنائس العالمي على أساس العقيدة الَّتِي تعترف بأنَّ سيِّدنا يسوع المسيح (هو الله) وهو (المنقذ) ولا شيء غير ذلك !!!

- الفصل الثَّامن للبرفسور (وايلز) يتحدَّث فيه أكاديمياً عن الأسطورة (الميثولوجيا) في عالم اللاهوت ، إنَّها خرافيَّة وليست حقيقيَّة .

- الفصل التَّاسع للبرفسور (جون هيك) عن يسوع والديانات العالميَّة ، وقارن بين ظهور بوذا ونشوء البوذية ، وظهور المسيح ونشوء المسيحية من بعده .

بوذا : تجسيد لإلهٍ متسامٍ ، والماهايانا عقيدة الأجسام الثَّلاثة ، وكذلك يسوع .

ويقول : عبادة كائن بشري تحطُّم فكرة وجود إله واحد ، مع ميثافيزيكيَّة معقَّدة

للتثليث ، القديس لوقا : أعلن يسوع أنه إنسان أرسله الله إليكم مُؤيداً بأعمال ضخمة وأمارات ، وبعد ثلاثين عاماً فقط افتتح إنجيل مرقس : ابتداءً إنجيل يسوع المسيح ابن الله ، وبعد ثلاثين عاماً أخرى يوحنا عزى هذا الكلام إلى يسوع نفسه وصوّره على أنه إله يمشي على الأرض .

ومع نمو اللاهوت المسيحي عبر القرون حصل الانتقال الهام من (ابن الله) إلى (الإله الابن) ، وهذا التعبير ظهر في الإنجيل الرابع ثم سمح به رسمياً داخل الكنيسة بقبول هذا الإنجيل دون نقده .

إنّ القول : (إنّ يسوعاً الناصري التاريخي هو أيضاً الله) هو قولٌ خالٍ من أي معنى كما لو قلنا : إنّ هذه (الدائرة) المرسومة بالقلم على الورق هي أيضاً (مربع) ، إنّ فكرة التجسّد هي أسطورة ، ميثولوجيّة بالمعنى الحرفي .

- وختم الكتاب بالفصل العاشر بمقالة البروفسور (دينيس ناينهام) مدير كليّة كسبيل بأكسفورد ، وبعد أن أكّد إنسانيّة المسيح قال : لست مستعداً للانضمام إلى الذين ينكرون الوجود التاريخي لیسوع ، ولكن المسيحيّة التي أضحت دين الإمبراطوريّة الرومانيّة ربما لم يكن له إلا صلة قليلة بالواقع التاريخي لمؤسّسي هذا الدين .

إنّ الذين يدعون التجسّد والتأليه والتثليث يعوّن تماماً المشاكل المتضمّنة في تقديم وتبرير مثل هذه الادّعاءات ، ومن المستحيل تبرير هذه الادّعاءات على أسسٍ تاريخيّة صرفة مهما توسّعت الشبكة لاصطياد الأدلة .

والأنجيل لا تستطيع توفير الأدلة اللازمة .



الكتاب ، مناقشات يمكن وصفها بأنها مراجعة ذاتية للمعتقدات الشائعة في المسيحية مع تحليلها ونشر أصولها ونقدتها واقتراح الاستغناء عنها بإجماع المؤلفين ، والجديد في هذا المجال هو أن علماء اللاهوت الكبار هؤلاء من بروتستانت وكاثوليك يفكرون بصوت مرتفع كما يقول التعبير الإنكليزي : (Thinking Loud) للمرة الأولى .

قال أليوت : « تكييف المسيحية نفسها باستمرار لوضع يمكن معه الاعتقاد بها » ، هذا كان سابقاً . أما مع تقدم البحث العلمي ، والمكتشفات الأثرية الحديثة ، والأبحاث المقارنة بين العقائد العالمية تجعلنا نقول :

« لا يمكن للمسيحية ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين أن تكييف نفسها باستمرار لوضع يمكن معه الاعتقاد بها » .
« التام جرح والأساة غيب » .

هذه نماذج فقط من أفكار الذين يطالبون الإسلام بالعقلنة .

إنهم يطالبون الإسلام بالعقلنة ، وهو الذي يدعو إلى منهج : فكر ثم اقتنع ، بدلاً من منهجهم : آمن ولا تفكر .

يدعون الإسلام إلى العقلنة ، وهو الذي جعل جوهر العقيدة ، التوحيد المطلق لله عز وجل ، مع إعمال العقل ومحامته في كل أموره . بينما جوهر العقيدة المسيحية التي اخترعها شاؤول اليهودي لغز لم يحل ، ولن يحل ، أسفر عن مذاهب متناحرة ، فقد صارت الكنائس نفسها مسرحاً للقتال وسفك الدماء ، والاضطهاد الوحشي ، وكاد هذا الصراع يذهب بالمسيحية لولا أن الدولة سارعت إلى إنقاذها ، وكان قسطنطين فوزاً لها ، أبعدها عن نهايتها المؤلمة المحتومة .

أما الإسلام ، فأغزر الناس علماً أسبق الناس إلى تأييده ، وقد أثارت هذه الظاهرة دهشة إحدى الصحف الهندية ، الصادرة باللغة الإنكليزية ، فلم تجد مندوحة

عن الاعتراف بأنَّ الحرِّيَّة العلميَّة في الغرب ، أدَّت إلى إفلاس العقيدة الدِّينيَّة ، وإثارة الشُّكوك حولها ، ونشر المذهب المادِّي ، على حين أنَّها أدَّت في الإسلام إلى زيادة تمسُّك المسلمين بدينهم .

ولذلك راح العلماء يقولون : إذا كان عيسى بشراً فَلِمَ تعبدونه ؟ وإذا كان إلهاً ففيم البكاء على آلامه ؟

عقيدة لم تتفق مع العقل منذ أن ادَّعت أنَّ المسيح الإله مات على الصَّليب ، ولم تقبل مواكبة العلم وتقدُّمه في يوم من الأيام ، ولم تعترف بحرِّيَّة المعتقد في فترة من فترات تاريخها ، والإفك والبهتان شمة من شيم كهنوتها ، فأثرت مَدَنِيَّة (حضارة تجاوزاً) كسيحة ، الإنسان فيها وحش متعطَّش للمغانم المادِّيَّة ، فهانت دون ذلك القيم المُدعاة ، وتلاشت المبادئ المعلنة .. ويكفي الإسلام فخراً أنَّه كرَّم الإنسان فعلاً ، وحافظ على إنسانيَّته بقيم ثابتة منفذة ، ومبادئ سامية راسخة في نفوس أتباعه .

ولقد صوّرت دائرة معارف لاروس (القرن التَّاسع عشر) نحت كلمة دين ، قول رجال الدِّين في أوربة للإنسان : « ولكن أطع وأنت أعمى » ، فأين هذا من دعوة الإسلام للإنسان « هاتِ عقلك وأقبل » ؟

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرَّعد : ٤/١٣] .

﴿ نَفَّضَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرُّوم : ٢٨/٣٠] .

لذلك يقول غوستاف لوبون : « إنَّ العرب أوَّل من علَّم العالم كيف تتفق حرِّيَّة الفكر مع استقامة الدِّين » ، فمن بحاجة إلى العقلنة ، الإسلام الَّذي يدعو إلى تحكيم العقل ، أم المسيحيَّة الَّتِي تقول : أطع وأنت أعمى ، وصدِّق وآمن ولو لم يكن ذلك معقولاً ؟ !!



الإسلام عدوُّ العِلْم

يقول أرنست رينان : « حارب الإسلام العِلْمَ والفلسفة » .

ويقول وليم جيفورد بالكراف : « متى توارى القرآن ومدينة مكّة عن بلاد العرب ، يمكننا أن نرى العربي حينئذ يتدرّج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلاّ محمد وكتابه » ^(١) .

ويقول كرومر ^(٢) : « إنّ الإسلام دينٌ منافٍ للمدنيّة ، ولم يكن صالحاً إلاّ للزمن والمحيط اللذين وُجِدَ فيهما ، وإنّ المسلمين لا يمكن أن يرقوا في سلّم الحضارة والتّمدّن ، إلاّ بعد أن يتركوا دينهم ، وينبذوا القرآن وأوامره ظهريّاً » ^(٣) .

وركّزت الكنيسة على أنّ الإسلام لا يستقيم مع المدنيّة في سبيل ، وهي ترى أنّ ماقامت به أوربة من استعمار ، عمل إنساني جليل ، والأوروبيون - ومبشّروهم - جديرون أن يُسمّوا برسل المدنيّة .

(١) حاضر العالم الإسلامي ، ص : ٩٣ .

(٢) اللورد الإنكليزي كرومر (إفلين بارينغ) Cromer : (١٨٤١ - ١٩١٧ م) ، مندوب إنكلترة في مصر :

(١٨٨٣ - ١٩٠٧ م) .

(٣) الإسلام روح المدنيّة ، ص : ١٣ .

إنه إسقاط ، ولكن مهما عادى متعصب الإسلام ، وحاول إلصاق التهم به ، فإنه يجب أن يحذر من قول يوقعه في حفرة الجهل لدى من يعرف الإسلام ، ولو معرفة بسيطة ؛ ذلك لأن الإسلام لا يماثله في دفع أتباعه نحو العلم والاستزادة من بحوره أي دين آخر ، إنه الدين الذي كانت أول لبنة في بنائه كلمة ﴿ اقْرَأْ ﴾ ، ثم وضع الناس عامة وأتباعه الدارسين لكتابه الكريم بصورة خاصة ، أمام مشاهد الكون بسائه وكواكبه وشمسه وقمره وغيومه وأمطاره وبحاره وجباله وأنهاره ونباته وحيوانه وإنسانه .. وشجّعهم على البحث والدراسة لكشف قوانين الكون ومعرفة أسرارهِ : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت : ٢٠/٢٩] .

وجعل نبي الإسلام محمد ﷺ طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وأوجب على كل مسلم أن يكون عالماً أو متعلماً ، وفي فترة قصيرة من الزمن بعد انتشار الإسلام ، انخرست موجة الأمية والجهل ، وارتفعت منارات العلم حيث وصل الإسلام وحلّ المسلمون ، فمن سمرقند وبخارى شرقاً ، إلى قرطبة وطليطلة غرباً ، لا نجد مدينة ولا قرية إلا وفيها المدارس (الكتاتيب) وحلقات العلم والمكتبات ، وأعداد كبيرة من العلماء ، وطلاب العلم ، وكانت ترتفع مكانة الإنسان بعلمه حتى ولو لم يكن مسلماً ، والأمثلة على ذلك لا حصر لها .

طبيعة الإسلام الاعتماد على العلم وتحكيم العقل ، وعنده أن منزلة العالم فوق منزلة العابد . وفي القرآن الكريم أكثر من سبعمئة آية تحث على العلم والنظر في الكون ، ويقول النبي ﷺ : « الحكمة ضالة المؤمن ، التقطها أينما وجدها » ، ثم إن الذين يقرؤون تاريخ العرب ويعونه ، يذكرون أن هارون الرشيد^(١) لم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم ، ولا إلى الدين الذي كان يعتنقه ، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة .

(١) هارون الرشيد ، الخليفة العباسي الخامس : (١٧٠-٩٣ هـ - ٧٨٦-٨٠٩ م) .

ويذكرون أنه في حكم المأمون^(١) كان رجال العلم من نصارى وصابئة .. يؤمنون مجلس ذلك الخليفة ، ويجادلون في حضرته علماء المسلمين في العلوم العقلية والنقلية ، وفيما يختص بآداب الديانات .

كل ذلك كان يجري بفضل التسامح الإسلامي ، ولكننا لا نذكر أن أمة من الأمم المسيحية في ذلك العصر^(٢) ، كانت تحتل ظل علماء المسلمين إذا هم أرادوا أن ينعموا في تلك البلاد بمثل ما ينعم به أقرانهم من النصارى في بلادهم ، بل إن ما هو أدل على بعد النصرانية عن التسامح ، ما رددته التاريخ من أمر تغت الطوائف المسيحية بعضها مع بعض ، واضطهاد الواحدة للأخرى ، حتى بعد أن علمهم الإسلام سعة الصدر والتسامح ، فلم يذكر لنا التاريخ أن كثيراً من رجال العلم المبرزين من النصارى ، كانوا يذوقون أشد أنواع المظالم والعسف من أيدي إخوانهم في الدين ، بسبب أن أولئك ينتمون إلى طائفة غير طائفهم^(٣) .

ألم ينع التاريخ ذكر أولئك الحكماء الذين كانوا يحرقون علانية باسم الدين ؟ بل قد وعى التاريخ ذكرهم ، وذكر هجيتهم التي نافسوا فيها هجية القبائل المتوحشة ، وطاولوا بها ما يفعله الوثنيون الذين يجعلون من أنفسهم قرايين لأهتهم .

حكمت محكمة التفتيش التي أسسها البابا^(٤) في مدة ثماني عشرة سنة ، من سنة ١٤٨١ م إلى سنة ١٤٩٩ م على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء ، فأحرقوا ، وعلى ستة آلاف وثمان مئة وستين بالشنق بعد التشهير ، فشهروهم

(١) المأمون (عبد الله بن هارون الرشيد) ، الخليفة العباسي السابع ، تولى بعد مقتل أخيه الأمين سنة : ١٩٨ هـ / ٨١٣ م .

(٢) عصر الحضارة الإسلامية الزاهر ، أيام الرشيد والمأمون .

(٣) الهلال والصليب ، ص : ٣٣ ، عن كتاب الإسلام والنصرانية للأستاذ محمد عبده ، ص : ٢٦ .

(٤) محاكم التفتيش أو (محاكم التحقيق) ، شكلت في إسبانية بمرسوم بابوي في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٤٧٨ م ، ثم عمت أوربة كلها .

وشُنقوا ، وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة بهم ،
فنفذت^(١) .

صادروا حرّية الفكر ، حتّى داخل أوساط رجال الكنيسة أنفسهم ، فأى كاهن
أو راهب يتجرأ على مناقشة المسلّمات الفكرية للكنيسة ، أو يدعو إلى تطويرها كان
يُحكّم بكفره وزندقته ، أو يطرد من رحاب الكنيسة ، لا ، بل يعاقب بالموت شنقاً
أو حرقاً ، فالتسامح محظور في شؤون المعتقدات ، ولغة التّكفير والإعدام هي لغة
التّعامل مع المخالفين ، وإن كانت مخالفتهم مظنونة غير ثابتة ، ولقد سنّ الملك الفرنسي
(شارلمان) قانوناً يقضي بإعدام كل من يرفض أن يتنصّر ، وأصبحت حرّية الفكر
جريمة يُعاقب عليها بمنتهى القسوة ، حتّى تأسّست محاكم التفتيش ، والتي تولّى
شؤونها رجال الدّين للدّفاع عن المعتقدات ، وكانت التّهمة أو الوشاية كافية لإحراق
المتّهم بعد التّنكيل به .

في مقاطعة (بريتانيا) الفرنسيّة ، وفي أواخر القرن الثّاني عشر ، مفكران
مصلحان هما : أموري البيناوي ، وتلميذه داود الدّنياتي ، كانا يهاجمان جمود الكنيسة
وتحجّرها و (ديكتاتوريتها) ، فشكّلت الكنيسة لهما ولأتباعها محكمة عاجلة حكمت
عليهما وعلى أتباعها بالحرق بالنّار ، وأُحرق بالفعل عدد من الأتباع ، أمّا المفكران فقد
هربا حتّى ماتا مختلفين ، فأمرت الكنيسة بنش قبريهما ، وإحراق رفاتهما .

(١) الهلال والصليب ، ص : ٣٤ ، قالت صحيفة الجارديان البريطانيّة في ١٩٨٣/٦/٢٩ : عقدت لجنة علميّة
دينيّة في الفاتيكان برئاسة البابا جون بول الثّاني لرّد اعتبار جاليلو ، وتصحيح خطأ الكنيسة بشأنه
عندما قال إنّ الأرض هي التي تدور حول الشّمس على خلاف ما ذكر في المهدّئين القديم والجديد ،
ويعلق الشّيخ ديدات بالتّالي : إنّ الكنيسة رفضت أيضاً في القرن السّابع الميلادي ما جاء به
الرّسول ﷺ ، والآن بعد ثبوت إعجاز ما جاء في الإسلام في نواحي الحياة كافّة ، أدعو الكتائيين إلى
تدبر القرآن الكريم ، (المسلمون : ٢٧٧) .

وأُحرق في رومة الرَّاهب الفيلسوف الإيطالي (جوروانو برونو) ، لأنَّه نادى
بضرورة العلم ، وضرورة التَّجربة ، وبجرِّية التَّفكير ، وإبداء الرّأي ، فاتَّهم بالمروق
والهرطقة ، وأُحرق .

والرَّاهب البوهيمي الدكتور جون هيس أُحرقوه بالنَّار عام ١٤١٥ م لأنَّه كان
يخطب باللُّغة البوهيميَّة الَّتِي يفهمها النَّاس ، لا اللَّاتينية ، ويخالف تحجُّر الكنيسة .

والرَّاهب الهولندي هرمان فان ديزويك أُحرق بتهمة المروق والهرطقة
عام ١٥١٢ م في مدينة لاهاي لاتباعه - وإعجابه - لمذهب أرسطو وفلسفة الفيلسوف
العربي ابن رشد .

لقد وقفت الكنيسة ورجالها في وجهِ العِلْم والعلماء ، لأنَّهم - أي رجال الكنيسة -
وجدوا أنَّ طريق العقل والعِلْم يؤدِّي إلى كشف زيفهم ، وإبطال جهلهم ، وفضح
تعاليمهم وتفاسيرهم .

لقد اعتقدت الكنيسة أنَّ الكتاب (المقدَّس) قد حوى بين دفتيه كل ما يمكن
للإنسان أن يعرفه أو يبتغيه ، سواء في هذه الدُّنيا أو في الآخرة ، ومن ثمَّ وضعوا
نظريَّاتهم اللاهوتيَّة ، وبنوا عقائدهم الدينيَّة على هذا الأساس ، واتفقوا إلى أنَّ هذه
النظريَّات والعقائد المستمدَّة من النُّصوص الصَّريحة للكتاب (المقدَّس) ، هي وحدها
الَّتِي ينبغي للنَّاس أن يؤمنوا بها ، وأنَّ الذين يعارضونها أو يشكُّون في صحتِّها ، إنَّما
يستحقُّون اللَّعنة والعذاب والهلاك ، وبرَّروا لأنفسهم اتِّخاذ أقصى ضروب القهر
والتَّنكيل بمن يعارضهم ، مستمدين هذا التَّبَرير من نظريَّة توهَّموها ، هي أنَّهم طالما
كانوا الممثليين لله في الأرض ، ورعاة كنيسته ، فلماذا لا يقلِّدونه إذ يعذب المارقين من
دينه تعذيباً أبدياً في مدَّته ، رهيباً في قسوته ، ويفعلون بعباده كما يفعل هو بهم^(١) .

(١) - حضارة الإسلام ، جلال مظهر ، ص : ١٥٩ .

واعتقدت الكنيسة أيضاً ، أن الدليل الذي قدّمه المسيح على صدقه ، هو ما كان يصنع من الخوارق والمعجزات ، وهي كثيرة جداً تفيض بها صفحات الأناجيل ، ومن ثمّة جعلت هذه الخوارق والمعجزات دليلاً على صحّة الدّين للآتين من بعده ، ولما كانت خوارق العادات أموراً مخالفة لقوانين الطّبيعة وسنن الكون وشرائعه ، فإنّها بالتّالي كانت مضادّة لكلّ علم من العلوم الّتي اكتشف العلماء قوانينها الطّبيعيّة كالفلك مثلاً ، وهي علوم لا بدّ أن نجد فيها ما يخالف هذه الخوارق^(١) .

ومن هنا وقف هذا الأصل عائقاً كبيراً جداً في وجه العلوم ، وصدّها عن الانطلاق في مداها الطّبيعي ، وبرّر لرجال اللاّهوت المسيحي مواقفهم المعروفة ضدّ العلم ، والّتي لم يتنازلوا عنها تنازلاً نهائياً إلّا في أواخر القرن التّاسع عشر^(٢) .

وكان لزاماً في عالم كهذا يعيش في هذا الجوّ العجيب ، أن يتناول آباء الكنيسة النّصوص الدّينيّة الّتي تحضّ على احتقار العلم والعلماء ، ويجعلوا من تفسيرها جحياً يلقون فيه بالعلم والعلماء :

« لا يخدعن أحد نفسه ، إن كان أحد يظنّ أنّه حكيم بينكم في هذا الدّهر ، فليصِرْ جاهلاً لكي يصيرَ حكيماً ، لأنّ حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله ، لأنّه مكتوب الآخِذُ الحكماء بمكرهم ، وأيضاً الرّب يعلم أفكار الحكماء أنّها باطلة ، إذن لا يفتخرن أحدٌ بالنّاس .. »^(٣) .

« اختار الله جهّال العالم ليخزي الحكماء ، واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء .. »^(٤) .

(١) الإسلام والنّصرانيّة مع العلم والمدنيّة للأستاذ محمد عبده ، ص : ٢٢ و ٢٣ .

(٢) حضارة الإسلام ، جلال مظهر ، ص : ١٥٩ .

(٣) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس : ٢١-٨/٣ .

(٤) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس : ٢٧/١ .

« انظروا أن لا يكون أحدٌ يسبيكم بالفلسفة وبغرورٍ باطلٍ حسب تقليد الناس ، حسب أركان العالم ، وليس حسب المسيح » ^(١) .

لذلك .. أصبحت أعمال الفلاسفة والعلماء باطلة ، وأصبح المثل الشائع في طول العالم المسيحي وعرضه أن الجهالة أم التقوى ورأس العبادة ، وبناء عليه ، لم يعد غريباً أن يعن رجال الكنيسة في القضاء على كل مظاهر العلم القديم والفلسفة ، وأن يغالوا في اضطهادهم للعلماء والفلاسفة ، وبدأ عصر عجيب انهارت فيه كل أسس الحضارة القديمة التي بذل في وضعها قدماء المصريين والبابليين واليونان آلافاً من السنين .

« وأصرَّ قوَّاد الفكر الجديد على أن كلَّ شيءٍ فيما عدا خلاص النفوس حق وقلة عقل وسخافة ، واعتبروا أن كلَّ علم دنيوي أمر لا طائل من ورائه ولا نفع فيه ، بل إنهم اعتبروا أن العلم خطر » .

وبدأت الكنيسة بعدها بعملية تخريب هذا العلم القديم ، الذي سمَّوه آنذاك بالعلم الوثني ، وثارَت في طول العالم المسيحي وبعرضه موجة عارمة محومة من الاضطهاد والبطش ضدَّ العلماء وكلامهم الباطل الدَّنس . وكما قال أحد القديسين : هُدمَ معبد القيصر الذي بالإسكندريَّة ، وأحرقت مكتبته في سنة ٣٦٦ م ، وهدم معبد السرايوم ، وأحرقت مكتبته في سنة ٣٩١ م .

وفي سنة ٤١٥ م انتقض جماعة من الرهبان على العالمة الجليلة (هيباشيا) ، ابنة الفلكي (ثيون) ، وآخر أستاذة للطبِّ والرياضيات بجامعة الإسكندريَّة وجردوها من ثيابها ، وقادوها مكشوفة العورة إلى كنيسة في الإسكندريَّة بتحريض من كيرلس بطريق الإسكندريَّة ، الذي كان يغار من شعبيَّتها ، والذي أراد أن يضع حداً للعلم الوثني في مدينته ^(٢) .

(١) رسالة بولس إلى أهل كولوسي : ٨/٢ .

(٢) حضارة الإسلام ، ص : ١٦٦ ، عن :

« وظلّت موجات الاضطهاد ضدّ العلم والعلماء تتكرّر ، حتّى شهدت أرض أوربة في القرن السّادس آخر فلاسفتها بوثيوس (٤٨٠-٥٢٤ م) وهو يعدم بتهمة المروق من الدّين والمهرطقة ، وكان كلّ اضطهاد من هذا القبيل يبعد عن دنيا المسيحيّة عدداً من أحسن الرّجال الذين كانوا يُقتلون أو يفرون إلى الشّرق (إلى فارس) ، ليحلّ محلّهم على رأس المجتمع ، أجهل الرّجال ، وأسوأ المثل » ^(١) .

ونظرت الكنيسة منذ عصورها الأولى إلى علم الفلك باعتباره من العلوم البائرة عديمة الجدوى ، ذلك أنّه جاء في الكتاب (المقدّس) أنّ الأرض سوف لا تلبث أن تهلك وتزول ، وأنّ الله سوف يخلق سماوات جديدة ، وأرضاً جديدة : « لأنّي هأنذا خالق سماوات جديدة وأرضاً جديدة ، فلا تذكر الأولى ، ولا تخطر على بال » ^(٢) .

ولقد عبّر القديس أوغسطين ^(٣) عن هذا الشّعور بقوله : « ماذا يعني أن تكون السّماء كرة تضمّ الأرض في وسط الكون ، أو أن تكون منسدلة عليها من كلّ جانب » .

وتسكّت الكنيسة فترة طويلة ، وبناء على نصوص الكتاب (المقدّس) بالفكرة القائلة بأنّ قبة صلبة - أو سماء - تمتدّ فوق الأرض ، وأنّ الأجرام السماويّة ماهي إلّا أنوار علّقت فيها ، وأعلن القديس فيلاستريوس في مبحثه الشّهير ، الذي ألفه في ضروب المهرطقة : « بأنّ إنكار القول بأنّ الله يُحضّر النّجوم من خزائنه ويعلّقها في السّماء كل ليلة هرطقة ، وأنّ أيّ رأي يخالف هذا الرّأي باطل في نظر المعتقد الكاثوليكي » .. ونتيجة لجهود عدد من رجال اللاّهوت ، تكوّن نظام فلكي ديني مقدّس ، قاوم كل فكر فلكي علمي صحيح ، ولا تخفى علينا المآسي الّتي تعرّض لها عدد من علماء الفلك طوال قرون عدّة .

(١) المرجع السّابق (جورج سارتون) ، ص : ١٥ .

(٢) سفر اشعيا : ١٧/٦٥ .

(٣) أوغسطين Augustin : (٢٥٤-٤٣٠ م) ، أسقف هيون (إفريقية) .

وهكذا .. فإنَّ النظريَّة الكنسيَّة القائلة بأنَّ كلَّ مساعي الإنسان باطلة أعاقَت الفكر العلمي ، وشلَّت المحاولات العلميَّة قروناً طويلة ، ظلَّت سائرة حتَّى أواخر القرن التاسع عشر ، « ففي النِّصف الثَّاني من القرن الثَّامن عشر ، وعلى التَّحديد في سنة ١٧٧٢ م ، ألقى اللاهوتي الإنكليزي (إدوارد ماسي) عظةً عنوانها : (مزاولة التَّطعيم ضدَّ الجدري خطيرة وآثمة) ، أكَّد فيها أنَّ الشَّيطان هو بلا شكَّ الَّذي يصيبنا بالأمراض ، وأنَّ العناية الإلهيَّة ترسل الأمراض عقاباً على الخطايا .

وفي سنة ١٧٨٥ م رفض الكاثوليك في مدينة مونتريال - في كندا - أن يُحصَّوا أنفسهم ضدَّ الجدري ، وهدَّدوا السُّلطات إن أرغمتهم على ذلك بحمل السَّلاح وإراقة الدِّماء » (١) .

ومن أعجب الأشياء أن نعلم أنَّ ضرب المسوس بالسيَّاط لإخراج الشَّيطان من جسده ، كان من أقلَّ العقوبات عنفاً وفضاعة ، وربَّما يكون أكثرها شيوعاً ، ولقد راقَت هذه الطَّريقة المثيرة للعجب لرجل حكيم عاقل ، مفكِّر رحيم ، هو السيِّر توماس مور في القرن السَّادس عشر ، فأمر بأنَّ يجلد المجانين علناً .

وشكسبير جعل إحدى شخصيَّات رواياته يشير إلى الجنون باعتبار أنَّ المجنون يستحقُّ (منزلاً معتمداً وسوطاً) .

أورد أسامة بن منقذ في (الاعتبار : ١٣٢) الحادثة التَّالية : « ومن عجيب طبَّهم أنَّ صاحب (المنيطرة) كتب إلى عمِّي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيباً نصرانيّاً يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيَّام حتَّى عاد ، فقلت له : ما أسرع ماداويت المرضى ! قال : أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دمَّة ، وامرأة لحِقَها نُشَافٌ ، فعملت للفارس لبيخةً ففتحت الدَّمَّة وصلَّحت ، وحمَّيتُ المرأة ورطبْتُ مزاجها ، فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيئاً

(١) حضارة الإسلام ، جلال مظهر ، ص : ٥٤٠ .

يداويهم ، وقال للفارس : أيُّها أحبُّ إليك : تعيش برجل واحدة ، أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة ، قال : أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً ، فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحطَّ ساقه على قُرْمَةِ خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، أَقْطَعُها ، فضربه - وأنا أراه - ضربة واحدة ما انقطعت ، ضربه ضربة ثانية ، فسال مخُ السَّاق ومات من ساعته ، وأبصر المرأة فقال : هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه ، وعادت تأكل مأكْلهم : الثُّوم والخردل ، فزاد بها النُّشاف ، فقال : الشَّيْطان قد دخل في رأسها ، فأخذ الموس وشقَّ رأسها صليباً ، وسلخ وسطه حتَّى ظهر عظم الرُّأس وحكَّه بالملح ، فماتت في وقتها ، فقال لهم : بقي لكم إليَّ حاجة ؟ فقالوا : لا ، فجئتُ ، وقد تعلَّمتُ من طَبِّهم ما لم أكن أعرفه .

ليس هذا فقط ، بل إنَّهم كانوا يعتقدون أيضاً أنَّ الشَّيَاطين تدخل أجسام الحيوانات ، ومن ثَمَّ كانت هذه الحيوانات الَّتِي تصوَّروا أنَّ الشَّيَاطين دخلتها تُرقي وتحام وتضرب ، ويحكم عليها وتعدم ، ولا غرابة أنَّه في سنة ١٧٣١ م وَضِعَت مادة في لائحة المجلس البلدي لمدينة (ثوبون) تقول : تقرَّر أن تنضمَّ هذه المدينة مع غيرها من مدن المقاطعة في الحصول على حرم كنسي من روما ضدَّ الحشرات ، وأنَّها سوف تدفع حصَّتها في تكاليف استصدار هذا القرار^(١) .

وفي تشرين الأوَّل (أكتوبر) سنة ١٨٧٨ م ، أصدرت الهيئة الدِّينية المشرفة على جامعة (فاندربلت) الأمريكيَّة ، وتحت تأثير مثل هذه الأفكار بياناً يتعلَّق برأيها في العلم غير المقرَّر شرعاً ، جاء فيه : « هذا عصر جرَّد فيه العلم نفسه من الثَّياب الَّتِي تزيِّن الإنسانيَّة وتبجِّلها ، وأصبح يمشي في العراء في عريٍّ مخزٍ ، إنَّ الادِّعاءات الوقحة المتسمِّة بالعجرفة والغطرسة الَّتِي يدَّعيها هذا (العلم الكاذب الاسم) ، كانت شديدة الوطأة ،

(١) المرجع السابق ، ص : ٥٤٢ .

مناظرة على المضي في سبيلها ، حتّى لقد ضلّ للأسف المجموع الأكبر من الطبقة المفكّرة ، غير أنّ جامعتنا وحدها تلك الشّجاعة الكافية لتضع قبضتها الناشئة ، ولكن القويّة النّشطة ، على خناق هذه التّأمّلات الهوجاء ، وتقول : إنّنا سوف نقضي على هذا «^(١) .

والحديث عن محاربة الكنيسة للعلم والعلماء يطول ، ويكفيينا قول لكتانشيوس : « إنّني لفي حيّرة من أمر هؤلاء الذين إذا أخطؤوا مرّة ، واستمروا في غيرهم مدافعين عن الباطل يباطل آخر ! » .

إنّ الحقيقة العلميّة اختفت تماماً تحت وطأة هذا الضّغط اللاّهوتي قروناً من الزّمان ، حتّى بدأ تأثير الحضارة الإسلاميّة يؤتي ثماره نتيجة اطلاع الأوربيين على حضارتنا في صقلية والأندلس وجنوبي إيطاليا ، عندئذ بدأت قبضة هذا الأسلوب تضعف شيئاً بعد شيء ، وأذعن كبار رجال الكنيسة بعض الشّيء للاتّجاهات العلميّة تحت التّأثيرات الإسلاميّة .

يقول (نيكلسون) : « لقد صحب هذا التّوسّع (الفتوحات الإسلاميّة) نشاط فكري لا عهد للشرق بمثله من قبل ، حتّى لقد لاح أنّ النّاس في العالم - الإسلامي - كلّ ابتداء من الخليفة ، إلى أقلّ المواطنين ، قد أصبحوا طلاباً للعلم ، أو على الأقلّ من مناصريه ، وكان النّاس طلباً للعلم يسافرون عبر قارات ثلاث ، ثمّ يعودون إلى ديارهم وكأنّهم نحل تشبّع بالعسل ، ليفضوا بما جمعوا من محصول علمي ثمين إلى حشود من التّلاميذ المتشوّقين للعلم ، وليؤلّفوا بهمة عظيمة تلك الأعمال الّتي اتّصفت بالدقّة وسعة الأفق ، والّتي استمدّت منها العلم الحديث - بكلّ ما تحمل هذه العبارة من معانٍ - مقوماته بصورة أكثر فاعليّة ممّا نفترض «^(٢) .

(١) المرجع السابق ، ص : ٥٤٤ و ٥٤٥ .

R.A.Nicholson: A Literary History of the Arabs, P.281 .

(٢)

ومن الظواهر العجيبة التي تحار فيها الأفهام بادئ الرأي ، ما هو مشاهد من فشل البعثات التبشيرية حتى في أوساط الجهلاء ، وما هو مشاهد من انتشار الإسلام في أوساط العلماء خاصة ، « ولكنني أدلك على أحد الأسباب التي تميّط اللثام عن هذا اللغز ، ذلك أن القرآن ورسول الإسلام يعتمدان على العقل والمنطق ، ويستشهدان بالظواهر الكونية على صحة العقائد التي يناديان بها ، وفساد العقائد التي يرفضانها »^(١) .

« الإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم »^(٢) .

« وكان المسلمون في القرون الوسطى (عندما قامت الكنيسة في أوربة تحرق العلماء) متفردين في العلم والفلسفة والفنون ، وقد نشروها أينما حلت أقدامهم ، وتسربت عنهم إلى أوربة ، فكانوا سبباً لنهضتها وارتقائها »^(٣) .

« ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب المسلمين ، فجميع الأمم التي كانت ذات صلة بالعرب المسلمين اعتنقت حضارتهم ، ولو حيناً من الزمن »^(٤) .

الإسلام عدو العلم ، إسقاط قميء مفضوح ..

أنسي الغرب - على سبيل المثال - فضل ابن خلدون في فلسفة الاجتماع وفلسفة التاريخ ، وسبقه ليكيافيلي ، وجون لوك ، وباتستا فيكو ، وفولتير ، وهردر ، وتارد ، وجان جاك روسو ، ونيتشه ...؟

أم نسي الشريف الإدريسي ، وابن رشد ، والرازي ، وابن سينا ، وابن زهر ، وابن النفيس ...؟

(١) المثل الأعلى في الأنبياء ، ص : ١٨٧ .

(٢) حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ص : ١٢٦ .

(٣) Sedillot في كتابه (تاريخ العرب) .

(٤) حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ص : ٥٨٥ .

أُمّ تراه نَسِيَّ جابر بن حَيَّان ، وموسى بن شاكر وأولاده ، وعبد الرَّحمن الخازن ،
وبديع الزَّمان الجزري ...؟

أَنَسِيَّ لوغارتمات الخوارزمي ، وأبحاث إبراهيم الزُّرقالي التي اقتبس منها
كوبرنيكس ؟

أَنَسِيَّ ابن الهيثم رائد علم البصريّات بلا منازع ، وأبا المنهج العلمي ، إذ لولاه لما
سمع النَّاس قطُّ بروجر بيكن الَّذي لا يكاد يخطو خطوة في علم البصريّات دون أن يشير
إلى ابن الهيثم ، أو ينقل عنه ، حتَّى قال : والجزء السَّادس من هذا المؤلَّف يكاد كلُّه
يعتمد على كشف هذا العالم الطَّبَّيعي ابن الهيثم .

أَنَسِيَّتْ أوروپَّة هذا ، في الوقت الَّذي كانت ترسم فيه المصوِّرات لجهنم ، وأين تقع
تحت سطح الأرض ، وتمنع العلماء أن يقولوا بكروية الأرض ، وما محاكمة غاليلو عنا
بغائبة ! فأَي عقيده بحاجة إلى (عقلنة) الإسلام أم مسيحيَّة شاول ؟ ولكنَّه ...
الإسقاط .



حارب الإسلام

الفلسفة

يدّعي (أرنست رينان) في كتابه : (الإسلام والعلم) ، أن الإسلام حارب العلم والفلسفة .

(إسقاط) آخر ، وقبل مناقشته ، علينا أولاً أن نتفق على المقصود من كلمة الفلسفة ، فهل هي التفكير الحر ، وإبعاد الفكر عن جميع القيود ، وسلوك طريق العقل ، واتباع أساليب المنطق العقلي للوصول إلى (الحكمة) ؟ إذا كان الأمر كذلك ، نستطيع القول مؤكّدين بأنه ما عرفت الدنيا ديناً أو عقيدة ، أو نظاماً فكرياً دفع الناس عامة ، وأبناءه خاصة في هذا الطريق كالإسلام ، فالحكمة ضالة المسلم ، أينما وجدها التقطها .

أما إذا كان المقصود بعبارة حارب الإسلام الفلسفة ، وقوفه في وجه بعض الفلاسفة ، أو نقده لأساليبهم ، فهذا أمر آخر ، وهو برهان على أن الإسلام سمح لأصحاب الآراء - ولو كانت هذه الآراء تناقض آراءه - بقول آرائهم انطلاقاً من حرية الكلمة ، ولكنه سلك طريق العقل في الحوار الفلسفي ، والنقاش العقلي ، فللإسلام فلسفته المتميزة ، أطلق بعضهم عليها في فترة من الزمن اسم (علم الكلام) .

أما الذين حاربوا الفلسفة ، وكل أنواع التفكير الحر ، فإننا هم رجال الكنيسة ، وذلك لأنّ الكثير الكثير ممّا تقوم عليه دعاواهم ، لا يتفق مع العقل والتفكير الحرّ ، فهم يريدون أن يلقوا بما يريدون من أفكار وآراء ، وأنّ الواحد يساوي ثلاثة ، والثلاثة

تساوي واحداً ، ولا يقبلون حولها نقاشاً أو حواراً ، وعلى من حولهم الإيمان بها والتّصديق والتّسليم ، أكانت مقبولة من العقل أو مرفوضة .

يقول الدكتور عبد الرّحمن بدوي^(١) : دور العرب في تكوين الفلسفة الأوربيّة في العصور الوسطى دور مزدوج :

دور الرّسول الحامل لهم رسالة اليونان في الفلسفة .

ودور الفاعل المؤثر بما ابتكر وأنتج .

فعن طريق العرب عرفت أوربة في القرنين الثّاني عشر والثّالث عشر مؤلّفات أرسطو ، وقطعاً من فلسفة أفلوطين وأبرقلس ، ومعالم من فلسفة أفلاطون ، إذ قام المترجمون في طليطلة ، وفي صقلية ، بترجمة كتاب (البرهان) من منطق أرسطو ، أعني (التّحليلات الثّانية) ، و (السّماء والعالم) ، و (الكون والفساد) ، و (السّماع الطّبيعي) ، و (الآثار العلويّة) ، كما ترجموا كتاب (الخير المحض) المنسوب إلى أرسطو ، وهي في الحقيقة فصول منتزعة من (إلهيّات) أبرقلس .

وأعمق من هذا أثراً بكثير ، أثر الفلاسفة أنفسهم في أوربة ، حينما تُرجمت بعض مؤلّفاتهم إلى اللّاتينيّة ، وبعض اللّغات الأوربيّة الحديثة الناشئة ، فترجم يوحنا الإسباني قسم (الطّبيعيّات) من كتابه (الشّفاء) ، وقسم (النّفس) ، و (الإلهيّات) من (الشّفاء) لابن سينا أيضاً ، كما ترجموا (مقاصد الفلاسفة) للغزالي ، ومن ناحية أخرى ترجم جيرردو الكريموني جملة رسائل للكندي فيلسوف العرب ، منها رسالة في العقل ، ورسالة في الجواهر الخمسة ، كما ترجم - فيما يبدو - رسالة (في العقل) للفارابي .

« ولما بدأت عقول ممتازة في قراءة آثار الفلاسفة المسلمين ، بدأت النّهضة الحقيقيّة للفكر الفلسفي الأوربيّ ، وذلك في القرن الثّالث عشر ، فأحدث ابن سينا أولاً تأثيراً

(١) دور العرب في تكوين الفكر الأوربيّ ، ص : ٣٠ ، ط ٣ ، سنة ١٩٧٩ .

عميقاً واسعاً ، خصوصاً إلهياته المتأثرة بأرسطو والأفلاطونية المحدثة معاً ، والتي يفسّر فيها الكون ابتداءً من الأوّل الذي يصدر عنه العقل الثّاني ، ثمّ الثّالث وهكذا حتّى العاشر ، وهو العقل الّذي يؤثّر في الإنسان مباشرة ، فهذا التّصوير لصدور العالم عن الله الواحد ، هو الّذي سيعتقه الفلاسفة الأوربيّون ، بدلاً من التّصوير الوارد في التّوراة ، والّذي كان سائداً حتّى ذلك الحين ^(١) .

إن كبار الفلاسفة الأوربيّين في القرنين الثّالث عشر ، والرّابع عشر الميلاديّين ، تأثّروا واقتبسوا وتبنّوا نتاج الفلاسفة المسلمين ، وأولهم ألبرتس الكبير : (١٢٠٧ - ١٢٨٠ م) الّذي درس ما ترجم إلى اللاتينية من مؤلّفات الفلاسفة المسلمين دراسة عميقة ، وكاد ينقل عنهم كل نظريّاته الرّئيسيّة في الفلسفة ، وإن لم يستطع أحياناً الجهر بذلك خوفاً من السّلطات الدّينية المسيحيّة .

فقد أخذ عن ابن سينا القول بأنّ النّفس جوهر عقلي ، كما أخذ عنه نظريّة الواحد وصدور العقول عنه ، فضلاً عن ذلك ، فإنّه في إدراكه وفهمه للفلسفة الأرسطيّة ، إنّما اعتمد كل الاعتماد على الفارابي وابن سينا وابن رشد .

وإذا ما انتقلنا من ألبرتس الكبير ، إلى أكبر الفلاسفة الأوربيّين في القرن الثّالث عشر ، وهو القديّس توما الإكويني ، وجدنا آثار الفلسفة العربيّة أعمق وأنضج ، وإن كان أخفى في الظّاهر ، لأنّه لم يكن يذكر مصادره .

وأوّل شيء يظهر فيه تأثير الفلاسفة المسلمين في القديّس توما ، هو البراهين الّتي أوردها لإثبات وجود الله بطريق العقل ، فالبرهان الثّالث من بين براهينه الخمسة - وهو أقواها - إنّما أخذه من الفارابي وابن سينا ، ويقوم هذا البرهان على أساس تقسيم الوجود إلى واجب وممكن ، والممكن لا يمكن أن يستمر في حال الإمكان إلى غير نهاية ،

(١) دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ، ص : ٣١ .

بل لابد من وجود واجب الوجود ، تنتهي إليه الممكنات ، وهذا الكائن الواجب الوجود هو الله ، فإنَّ الممكن هو الَّذي يوجد ثمَّ يفسد ، وهو الَّذي وجد أو سيوجد ، وكان من الممكن ألاَّ يوجد ، أمَّا الواجب فهو الَّذي لا يمكن إلا أن يكون موجوداً ، والممكن لا يستطيع بنفسه أن يفسر وجوده ، إذ لو لم يوجد إلا بممكنات ، لأمكن ألا يوجد شيء ، فلكي يوجد شيء كان لابداً من أن يكون هناك موجود واجب الوجود ، وهذا الواجب الوجود هو الله .

وكان هذا البرهان عمدة البراهين لإثبات وجود الله ، وهو البرهان نفسه الَّذي عرضه الفارابي في كتابه : (آراء أهل المدينة الفاضلة) ، وعرضه ابن سينا في : (النجاة) ، و (الشفاء) ، ومن الثَّابت ييقين أن توما قد قرأ ابن سينا والفارابي ، لأنه يشير إلى مؤلفاتها هذه صراحة ، فن الثَّابت ييقين أيضاً أن توما إنَّما أخذ برهانه الرَّئيسيَّ على وجود الله من الفارابي وابن سينا .

كذلك أخذ القديس توما فكرة ضرورة الوحي الإلهي عن الفلاسفة المسلمين .

وعن ابن رشد أخذ القديس توما مذهبه في النقل والعقل ، أي الصِّلة بين العقل والوحي ، أو النظر والإيمان ، فكلاهما يقرّر أنَّ العقل يقدر على البحث عن الحق شيئاً فشيئاً ، وكلاهما يعترف بعجز العقل أمام بعض الحقائق الإلهية ، والاتِّفاق بينهما - كما بيّن أسين بلاثيوس^(١) - اتِّفاق في كلِّ شيء : في الموقف العام الذي وقفه كلاهما من هذه المسألة ، واتِّفاق في الآراء والأمثلة الَّتِي أوردها كلاهما ، بل اتِّفاق أحياناً في العبارات الَّتِي يستعملها كل منهما . ولا يمكن أن يكون اتِّفاقاً بالعرض ، ومن طريق توارده الخواطر ، وإنَّما هو في الحقيقة نقل ، أي إنَّ القديس توما أخذ هذه الآراء بمحاذيرها من ابن رشد^(٢) .

(١) المرجع السابق ، ص : ٣٤ عن : كتاب أسين بلاثيوس (آثار الإسلام) :

Huellas del Islam, P.50-53.

(٢) بينما صاحب (المنجد في الأعلام) الأب لويس معلوف اليسوعي يذكر عن توما الإكويني التالي : =

ويقول الدكتور بدوي :

وهذا يفضي بنا إلى التَّحدُّث عن تأثير هذا الفيلسوف العربي العظيم ، ابن رشد ، وهو تأثير لا يجاريه فيه أيُّ فيلسوف عربي آخر ، لأننا لانستطيع مثلاً أن نتحدَّث عن فارابيَّة أو سيناويَّة لاتينيَّة ، ولكننا نجد في مقابل ذلك (رشيديَّة لاتينيَّة) قويَّة توافرها أنصارها في أوربَّة طوال أكثر من قرنين من الزَّمان .

وقد بدأت حركة الرُّشيديَّة اللاتينيَّة ، أي أتباع ابن رُشد من الأوربيِّين منذ أن ترجم ميخائيل اسكوت شروح ابن رشد على مؤلَّفات أرسطو ، في الفترة الواقعة بين سنة ١٢٢٨ و ١٢٣٥ ميلاديَّة ، حينما كان فلكيًّا في بلاط فردريك الثاني في بالرمو بصقلية ، وتزعَّمها سيجر البرابنتي الذي رأى في مذهب ابن رُشد الحقيقة نفسها ..

وعلى الرِّغم ممَّا لقيته الرُّشيديَّة اللاتينيَّة من هجوم واضطهاد من جانب السُّلطات الدينيَّة ، في أواخر القرن الثالث عشر ، فإنَّها استمرَّت تنو وتنتشر وتكسب الأنصار طوال القرن الرَّابِع عشر ، فنجد جان دي جاندان Jean de Jandann ، المتوفَّى سنة ١٣٢٨ م ، يخلص كل الإخلاص لمذهب ابن رشد ، ويدافع عنه ضدَّ القديس توما ، لأنَّ ابن رشد هو في نظره نصير الفلسفة الكامل المجيد .

لقد عُرِف ابن رشد في أوربَّة باسم (الشَّارح) ، ويعنون شارح كتب أرسطو ، ولكنَّه لم يكن شارحاً لكتب أرسطو فقط ، فكثيراً ما كانت شروحه على أرسطو في حقيقتها حجة لإبراز آرائه الشخصيّة ، أو تفسير الآراء القديمة تفسيراً صحيحاً ، هذه الشُّروح كانت الوسيلة الوحيدة لفهم أرسطو ، حتَّى إنَّها كانت تطبع مع كتب أرسطو نفسها ، وحتَّى إنَّ وليم أكرز ، المتوفَّى سنة ١٢٣١ م ، فقيه باريس ، وعضو اللجنة

= « توما الإكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤) راهب دومينيكاني ولد في إيطالية وعلم في جامعة باريس ، معلَّم الكنيسة وحجَّتها في اللاهوت والفلسفة المدرسيَّة (سكولاستيك) ، اطلع على آراء ابن سينا والغزالي وابن رشد عن طريق التَّرجمات اللاتينيَّة وانتقدها » ، ص : ١٩٦ ، الطبعة الثانية عشرة .

التي ألفها البابا غريغوريوس التاسع لتهديب كتب أرسطو ، اعتمد على كتاب ماوراء الطبيعة لأرسطو ، وعلى شرحه لابن رشد ، وقد نُقِلَت كتب ابن رشد إلى العبرية واللاتينية ، وطُبِعَت في البندقيّة وحدها أكثر من خمسين مرّة .

وكان من حسنات اقتباس الغرب فلسفة ابن رشد بكاملها ، أن حلّت عقال الفكر الأوربي ، وفتحت أمامه باب البحث والمناقشة واسعاً على مصراعيه ، وترك الاعتدال على الروايات الدينيّة^(١) ، عندها هبّت الكنيسة لتقاوم هذا التيار الجارف بكل سبيل ، وأعلنت على ابن رشد حرباً شعواء دامت قرنين كاملين ، فحرّمت دراسة الفلسفة وتدريسها ، وقتلت مناصريها ، وأحرقت كتبها .

وكان على رأس المذهب الرُّشديّ (سيغر الباسوني) ، الذي احتلّ مقاماً سامياً في جامعة باريس ، فاستصدرت الكنيسة حكماً بطرده من تلك الجامعة ولكن ذلك لم يبدّل رأيه ، ولا خفّف من نشاطه ، إلاّ أنّه قُتِلَ غيلة .

قال الفيلسوف الألماني (عمانويل كانت : Kant) : (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م) رأيه في المكان والزمان ، وإنّهما ليسا « شيئاً بذاته » ، إنّهما وعاءان كبيران يحتويان على جميع الحقائق المحسوسة والمعقولة ، ولكنهما وعاءان بلا قعر ، ولا جوانب ، إنّهما في الحقيقة (فكرة) خالصة ، تمكّننا من تخيّل الأشياء مرتبة بعضها إلى بعض ، أو منسوقة بعضها خلف بعض ، وهما في ذلك كله قدر كان بأول العقل ، وبالبدية لبالحواس ...

وابن رشد هو الذي قال : « والزَّمان معنى ذهني لا وجود له على الحقيقة » ، وقال أيضاً : « إنّ الزَّمان شيء يفعلُه الذَّهن في الحركة ، لأنَّ الزَّمان ليس هو شيئاً غير ما يدركه الذَّهن من هذا الامتداد المقدَّر للحركة ، فإنَّ كان من المعروف بنفسه أن الزَّمان موجود ، فينبغي أن يكون هذا الفعل للذَّهن من أفعاله الصَّادقة المنسوبة إلى العقل لا إلى الخيار ، والزَّمان ليس بذِي وضع »^(٢) .

(١) عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص : ١١٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص : ١١٧ و ١١٨ .

وأبو النصر الفارابي^(١) ، أكبر فلاسفة المسلمين ، هل تنسى أوربة كتابه العظيم :
(آراء أهل المدينة الفاضلة) ؟ ألم يقتبس الفيلسوف الإنكليزي (هبز) معظم أفكاره ؟

ولقد سبق الفارابي جان جاك روسو ، وفردريك نيتشه عندما قال : إن الجمعية
أساسها الاتفاق ، أو العقد بين الأفراد ، وإن بقاءها رهن بقبول عدة قيود تفرضها
العادة ، وينظمها القانون ، ورفض الفارابي أن يغزو القوي الضعيف ...

إنَّ في هذه الآراء لنسباً كبيراً ووثيقاً إلى الفلسفة الأوربية في أواخر القرن
الثامن عشر ، بل إنها فلسفة الثورة الفرنسيَّة ، وإنجيلها (العقد الاجتماعي) لمؤلفه
جان جاك روسو .

لقد كان أثر الفارابي في اتجاه التفكير الأوربي عظيماً ، فكتبه نُقِلَتْ إلى اللاتينية ،
وطبعت جملة واحدة في باريس عام ١٦٢٨ م .

ومن فلاسفة العصور الوسطى الذين تأثروا بفلسفة الفارابي ، الراهب الفرنسي
(فنسان دوبوفيه Vincent de Beauvais) المتوفى نحو سنة ١٢٦٤ م ، الذي ضمَّ أجزاء
من فلسفة الفارابي برمتها إلى كتابه .

أما ألبرتوس ماغنوس (ألبرت الكبير) كبير فلاسفة الكنيسة في العصور الوسطى
فإنه لم يستطع عرض فلسفة أرسطو بأحسن مما عرضها الفارابي ، لذلك لم يجد بداً من
أن يقتفي آثار الفيلسوف المسلم في عرض فلسفة أرسطو^(٢) .

وتأثر متى الأكواسبارطي - الذي أصبح كرديناً عام ١٢٩١ م ، وتوفى عام
١٣٠٢ م - بنظرية الفيض عند ابن سينا .

(١) أبو النصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي ، (ت ٨٥٠ م ، المعلم الثاني ، تخرَّج ابن سينا على كتبه
وانتفع بها ، ولد بفاراب على نهر جيحون ، ونزل بغداد فأتقن العربية ومَلَكَ زمامها ، وألَّف بها كل
تصانيفه .

(٢) عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص ٩٥ ، ودائرة المعارف الإسلامية : ٤٠٧/١ .

أما أبو العلاء المعري^(١) ، الذي لم يجمع آراءه في سلك واحد ، استطاع أن يثير التفكير في أدمغة الذين حوله ، كما كان يفعل سقراط تماماً .

جاء تحت عنوان : (المصادر الإسلامية للكوميديا الإلهية لدانتي) : « كانت قبلة هائلة تلك التي ألقاها المستشرق العظيم (أسين بلاثيوس) ، وهو يلقي خطاب استقباله في الأكاديمية الملكية الإسبانية في جلسة ٢٦ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٩ م ، لما أعلن أن (دانته) في (الكوميديا الإلهية) قد تأثر بالإسلام تأثراً واسع المدى ، يتغلغل حتى في تفاصيل تصويره للجحيم والجنة ، إذ تبين له أن ثمة مشابهات وثيقة بين ماورد في بعض الكتب الإسلامية عن معراج النبي [ﷺ] ، وما في (رسالة الغفران للمعري) ، وبعض كتب محيي الدين بن عربي من ناحية ، وبين ماورد في (الكوميديا الإلهية) ، وفي هذه المشابهات من الدقة والتفصيل ما يجعل من المؤكد أن التشابه هنا لم يكن أمراً عرضياً وتوارد خواطر ، بل كان من تأثر مباشر بالتصورات الإسلامية للأخرة ، وراح (أسين) يعدد نقاط التشابه هذه استناداً إلى المصادر الإسلامية ، مقارناً إياها بما ورد في (الكوميديا الإلهية) ، وكل ذلك بعلم غزير ، ومنهج دقيق »^(٢) .

وتجلت آثار حجة الإسلام أبي حامد الغزالي في أوربة في ثلاث مظاهر :

في السببية ، فيرى الغزالي أن الأمور تتم بإرادة الله لها ، لا بالأسباب الظاهرة لنا ، واقترب (أرنت رينان) - الذي قال : إن الإسلام حارب العلم والفلسفة - من الحقيقة عندما قال : إن (دافيد هيوم) الفيلسوف الإنكليزي ، لم يقل شيئاً في السببية فوق ما قاله الغزالي .

(١) أحمد بن عبد الله بن سليمان التُّوخي المعري (ت ١٠٥٧ م) من كتبه : لزوم ما لا يلزم ، وسقط

الزُّند ، وضوء السُّقط ، وأشهرها : (رسالة الغفران) .

(٢) دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ، ص : ٤٩ .

وفي الشكّ ، فقد بدأ (ديكارت) الفرنسي المتوفى سنة ١٦٥٠ م ، كما بدأ الغزالي بخمسة قرون ونصف القرن : « لندع الشكّ يتسرّب إلى كلّ اقتناع ، بل إلى كلّ عقيدة فينا ، ولكن لنهاجم شكوكنّا واحداً واحداً ، ولنحاول أن نصرّفها » .

وإخضاع العقل للدين والفلسفة للفقه ، وهذا من أبرز ما تركه التفكير الإسلامي على التفكير الأوربي في العصور الوسطى .

ولابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن سعيد ، المتوفى سنة ١٠٦٤ م) ، نظريّة في المعرفة ، حيث يرى أنّها تكون بشهادة الحواس ، أي بالاختيار لما تقع عليه الحواس ، أو بالعقل من غير حاجة إلى استعمال الحواس الخمس ، أو ببرهان راجع من قُرب أو من بُعد إلى شهادة الحواس .

ثم إنّ ابن حزم يعتقد أنّ جميع أنواع المعرفة يجب أن تعتمد على الحواس التي تعتمد هي بدورها على ما حولها من المحسوسات ، ويقول الدكتور عمر فروخ : « هذه هي المشكلة التي يزعم مؤرّخو الفلسفة الأوربيّة أنّها عرضت أوّل ما عرضت للفيلسوف (كانت) في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد ، مع أنّها عرضت لفيلسوفنا ابن حزم في أواسط القرن الحادي عشر ، قبل (كانت) بسبعة قرون ونصف القرن » ^(١) .

أمّا أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل (ت ١١٨٥ م) ، صاحب قصّة (حي بن يقظان) ، أعظم وأشهر قصّة كُتبت في العصور الوسطى ، لقد أراد منها أنّ الإنسان العاقل بفطرته يصل عن طريق تفكيره الصحيح إلى مرتبه من السعادة ، كذلك التي يصل إليها الذين يأخذون الشريعة من الأنبياء أخذاً صحيحاً ^(٢) .

لقد تأثر سبينوزا بقصّة ابن طفيل ، كما نالت إعجاب ليبينتز ، وظهر أثر هذه القصّة أيضاً في قصّة روبنسون كروزو ، التي ألّفت سنة ١٧١٩ م .

(١) عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص : ١٠٤ .

(٢) قصّة الحضارة : ٣٦٩/١٣ .

وابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) المتوفى سنة ١٤٠٦ م ، يقول عنه (أرنولد توينبي) في كتابه : (دراسة التاريخ) : إن ابن خلدون نسيج وحده في تاريخ الفكر ، لم يدانه مفكر كان قبله ، أو جاء من بعده في جميع العصور .

وفلسفة ابن خلدون دارت حول نقطتين رئيسيتين : فلسفة الاجتماع ، حيث بحث في علم الاجتماع العام الاقتصادي ، ثم الاجتماعي ، ثم السياسي ، ونظرية الدولة^(١) .

أما فلسفة التاريخ ، فقد أراد ابن خلدون أن يكشف العوامل التي تسير الوقائع التاريخية ، والقوانين العامة التي تتمشى عليها الدول والشعوب في تطورها ، مع إيجاد معيار صحيح يتحرى به المؤرخون طريق الصدق ، والخطأ فيما ينقلونه من الأخبار والوقائع .

جمع ساطع الحصري على التقريب أهم المؤلفات التي تتعلق بفلسفة التاريخ مباشرة ، فوجدها بعد ظهور مقدمة ابن خلدون ، تنحصر في عشرة كتب ، منها : الأمير ليكيا فيلي الإيطالي ، والحكومة المدنية لجون لوك الإنكليزي ، والعالم الجديد لجان باتيستا فيكو الإيطالي ، وطبائع الأمم وفلسفة التاريخ لفولتر الفرنسي ، وآراء فلسفية في تاريخ البشرية لهردر الألماني .. وكلهم اقتبسوا منه في كتبهم .

ولقد سبق ابن خلدون علماء الاجتماع بقرون : سبق غبريل تارد بالقول وبالمحاكاة والتقليد ، وكان ابن خلدون أعمق وأنضج ، لأنه أعطى رأياً متميزاً ، واعتبر التقليد ظاهرة ضعف ، لادلالة قوة .

(١) يرى ابن خلدون أن الدولة هي التاجر الكبير ، وهي كالشاعر البارح البعيد النظر ، من واجبه أن تتأكد من أن الضرائب التي تستوفيها تعود إلى التداول بين الناس ، والضرائب المعتدلة أعظم حافز على العمل ، ومن الناحية الأخرى ، فإن الضريبة لا تثمر إذا هي فرضت تعسفياً .

وسبق دوركهائيم بالقول بالقسر الاجتماعي ، فالإنسان ابن مجتمعه ، والظاهرة الاجتماعية تفرض نفسها على الأفراد .

وامتاز عن فيكو في مجرى تاريخ الأمم وتطوراتها أنه كان موضوعياً .

والشبه جلي بينه وبين ميكياثيلي في دراسات السلطة والحكومات والإمارات ، والأساليب التي يجب اتباعها في الحكم .

ووجه الشبه بينه وبين جان جاك روسو واضحة من حيث الإيمان الشديد بحياة التَّقشُّف ، وبينه وبين فردريك نيتشه في نظرية : الحقُّ للقوة ، ولابن خلدون لمحات لتفسير الظواهر السياسية بالعامل الاقتصادي^(١) .

(لقد كان ابن خلدون) شغوفاً بفلسفة التاريخ ، مع (معاناته السياسية) ، فكانت تجربته غنيّة ، ولم يكن رائداً في علم الاجتماع السُّكوني ، بل هو رائد في علم الاجتماع الحركي ، بدليل أنه لم يدرس المدن الفاضلة ، بل المدن القائمة .

يقول (ريسلر J.C.Riesler) : « لم يسبق أن حمل أحد من العرب أو من الغربيين قبل ابن خلدون ، وجهة نظر تجمع بين الشُّمول والفلسفة الحقّة في آن واحد ، والاعتقاد السائد بين منتقدي ابن خلدون ، هو أنه أعظم مؤرّخ أنتجه الإسلام ، ومن أعظم المؤرّخين في العصور الوسطى »^(٢) .

الحديث يطول عن مآثر الفلاسفة المسلمين ؛ عن الفارابي وابن سينا ، والكندي وابن حزم ، والغزالي وابن رشد ، والمعري وابن طفيل ، وابن باجة وابن خلدون ..

(١) سبق ابن خلدون بقرون كارل ماركس في نظرية فضل القيمة ، إن قيمة العمل إنّما تقاس بكميّته ، يقول ابن خلدون حرقياً : « وقد يكون مع الصّنائع في بعضها غيرُها مثل النّجارة والحياكة معها الخشب والغزل ، إلّا أنّ العمل فيها (أي في النّجارة والحياكة) أكثر ، فقيّمته أكثر » ، (دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ، ص : ١٣٨) .

(٢) La Civilisation Arabe , Paris 1956

هؤلاء الفلاسفة المسلمون ، أين ترعرعت فلسفتهم ؟ وأين قدّموا نتاجهم ؟ وأين نشره ؟

وهل مِنَع واحد منهم باسم الإسلام عرض ما يرى ويعتقد أو نشره ؟ أم نعموا جميعاً بحريّة الفكر والاعتقاد ، في الوقت الذي كانت تحرق الكتب والعلماء ، ويُطارد الفلاسفة ؟

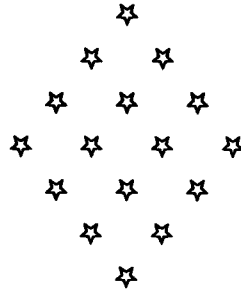
قال (إنج) عميد كُتَيْة القديس بولس مخاطباً شعبة اتّحاد رجال الكنيسة في أكسفورد : « يودُّ كثيرون من رجال الكنيسة لوأنَّ حركة الحريّة الفكرية وقعت خارج باب الكنيسة ! ولكن انظروا ماذا تكون النتيجة لوأنَّ صوت الفكر الحر اختنق داخل الكنيسة الإنكليزيّة ! إذن لكانت الكنيسة تعتقد الآن أنَّ الشَّمس تدور حول الأرض ، وأنَّ الجنّة في مكان يمكن الوصول إليه في طيّارة إذا عُرِف الطّريق ، لأنَّ جهنّم تحت أقدامنا ، وأن ثَوْران البراكين - كما يزعم رجل الدّين في العصور الوسطى - ناشئ من زيادة سكّان الجحيم ، كلُّ هذه أمور لم يؤمن بها رجل متعلّم ، ولم يسعه الإيمان بها ، ولو أنَّ الكنيسة ظلّت متمسّكة بهذه العقائد ، لما بقي فيها مكان إلّا للحمقى والدّجاجلة » ^(١) .

وكم كنّا نتمنّى أن (أرنست رينان) قد كتب الأدلّة ، وأورد الأمثلة التي تثبت أنَّ الإسلام حارب العلم والفلسفة ، لنحاورها ونناقشها ، ولكننا أمام (إسقاط) ، والإسقاطات على مختلف أنواعها ، من طبيعة طرحها أنها لا تحتاج إلى أدلّة أو براهين .

عندما قال (سيمون أوكلي) في كتابه (تاريخ العرب) الذي ظهر المجلد الأوّل منه سنة ١٧٠٨ م : « إنّ المسيحيّين الأوربيّين يدينون للمسلمين بأوّل ما عرفوه من الفلسفة » ، أبدى الاستشراق رأياً يقول : إن موقف (أوكلي) من المسلمين كان صدمة مؤلمة للجمهور الأوربي !!

(١) المثل الأعلى في الأنبياء ، ص : ٥٧ .

الحقيقة في عُرْف (المُسْقِطِينَ) صدمة مؤلمة ، خصوصاً إن كانت بحق الإسلام
والمسلمين ، لقد قال (ولیم وستن) - خليفة نيوتن في جامعة كمبردج - الحقيقة في يوم
من الأيام ، وأنصف الإسلام بكلمات ، أدت إلى طرده من كمبردج .
فمن الذي حارب العلم والفلسفة وحرية الرأي والكلمة !!؟



حرق المسلمون الكتب والمكتبات خلال فتوحاتهم

حارب الإسلام العلم^(١) ، ودليل ذلك : إحراق المسلمين لمكتبة الإسكندرية بأمر من الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطّاب ، عندما فتحوا مصر سنة ٦٤٢ م بقيادة عمرو بن العاص ، « إن المسلمين كانت لهم رغبة عظيمة في محو كل كتاب غير القرآن والسنة » .

روى قصّة إحراق مكتبة الإسكندرية غريغوريوس ، أبو الفرج المعروف بابن العبري^(٢) ، كما رواها البغدادي^(٣) وابن القفطي^(٤) ، اللذان عاشا في القرن الثالث عشر الميلادي ، دون ذكر السند ، ولا يستبعد أن يكونا مع ابن العبري ، قد أخذوا عن مصدر ضائع معادٍ للمسلمين .

(١) كما يدّعي أرنست رينان ، في كتابه : الإسلام والعلم .

(٢) غريغوريوس أبو الفرج بن أهرن المعروف بابن العبري - كان أبوه يهودياً تنصّر - ولد سنة ١٢٢٦ م في مدينة ملطية قاعدة أرمينية الصغرى ، وتوفي سنة ١٢٨٦ م في مدينة مراغة من أعمال أذربيجان ، نُصّب أسقفاً لليعاقبة في مدينة حلب ، وارتقى إلى رتبة (جاثليق) على كرسي المشرق سنة ١٢٦٤ م ، والجاثليق : رئاسة رؤساء الكهنة السريانيين في بلاد المشرق ، العراق وفارس وما إليهما ، ويقال لصاحب هذه الرتبة عند رجال الكنيسة المفريان ، أي (المثر) ، (الأعلام : ٥/١١٧) .

(٣) عبد اللطيف البغدادي : (١١٦٢ - ١٢٣١ م) .

(٤) علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي : (١١٧٢ - ١٢٤٨ م) .

وأسهب بعض المؤرخين المحدثين في تفنيد رواية الإحراق ، لاسيما رواية أبي الفرج ، وذكروا ما يدل على أن عمراً وعمراً بريئان مما نسب إليهما ، وهذه هي رواية أبي الفرج عن كيفية الحريق على يد عمرو بن العاص ، قال :

« كان في وقت الفتح رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين يسمى يوحنا النحوي ، كان قسيساً قبطياً من أهل الإسكندرية ، وفي هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين يحيى المعروف عندنا (بغرماطيقوس) أي النحوي ، وكان إسكندرياً يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ، ويشيد عقيدة (ساوري) ، ثم رجع عما يعتقد النصارى في التثليث ، فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه ، فلم يرجع ، فأسقطوه من منزلته ، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم ، فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية ، التي لم تكن للعرب بها أنسة ، ما هاله ففتن به ^(١) .

وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع ، صحيح الفكر ، فلازمه وكان لا يفارقه ، ثم قال له يحيى يوماً : إنك قد أحطت بمجاول الإسكندرية ، وختمت على كل الأشياء الموجودة بها ، فمالك به انتفاع فلا أعارضك فيه ، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به ، فقال له عمرو : وما الذي تحتاج إليه ؟ قال : كتب الحكمة التي في خزائن الملوكية ، فقال له عمرو : لا يمكنني أن أمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : وأما الكتب التي ذكرتها ، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ، ففي كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها ، فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على

(١) الطبعة الأخيرة من كتاب أبي الفرج : (تاريخ مختصر الدول) والمتواجدة في الأسواق حالياً ، تقف في الرواية إلى هنا ، وحذفت الفقرة التالية ، وهذا اعتراف من يطبع تراث أبي الفرج بكذبه وافترائه ، انظر ص : ١٠٢ وما بعدها .

حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها ، فاستنفدت في ستة أشهر ، فاسمع ما جرى واعجب ! » .

هذه الرواية أشبه بالخرافة ، فقد ذكر فيها ابن العبري أن كتب المكتبة كفت أربعة آلاف حمام ، وهي عدد حمامات الإسكندرية كما ذكرها ابن العبري ، لمدة ستة أشهر ، وهذا غير معقول ، فالمخطوطات التي ادعى أنها أحرقت ٧٠٠ ألف مخطوط ، أحرقت في ٤٠٠٠ حمام عام ، فيكون نصيب كل حمام ١٧٥ مخطوطة ، وهذا يكفي لعدة أيام ، لالسته أشهر كما يدعي ، لذلك قال البروفيسور ألفرد بتلر : « لا يمكن الشك بهذه المسألة أكثر من هذا » ^(١) .

ولو قصد عمرو تدمير المكتبة ، لأحرقها في الحال ، ولم يتركها تحت رحمة أصحاب الحمامات ، وإلا لتمكن يوحنا النحوي الذي بنى ابن العبري روايته عليه من أخذ ما يلزم من هذه الكتب بثن بخس ، ولتسرّب قسم كبير من الكتب ، ليظهر فيما بعد ، وهذا مالم يحدث .

ويذكر (بتلر) : أن يوحنا هذا مات قبل الفتح الإسلامي لمصر بثلاثين أو أربعين سنة .

ولو كانت الرواية صحيحة ، لذكرها (أوتبخا) المؤرخ المعاصر للفتح الإسلامي لمصر ، والذي وصف فتح مصر بإسهاب .

- الأولى سنة ٤٨ ق . م على أثر إحراق أسطول يوليوس قيصر .

- والثانية في عهد القيصر تيودوسيوس ، وذلك سنة ١٣٩١ م ، فنسجت هذه الرواية على منوال الحريقين السابقين .

(١) انظر تاريخ الإسلام : ٢٤١/١ ، وعدد الملل أب (أغسطس) ١٩٧٢ ، وبمبحث لستين بيترو بعنوان : The Islamic Review : Did the Conguering Muslims Destroy the Library of Alexandria في مجلة : عدد ١٩٥٥ ، صفحة : ٢٩-٣٠ .

زار (أورازيوس Orazius) الإسكندرية في أوائل القرن الخامس الميلادي ، فذكر أن رفوف المكتبة خالية من الكتب عند زيارته « ينشق فيها البوم » بعد أن أثلّفت بنحو عشرين سنة ، وقد أثلّفتها (تيوفيل) بطريق الإسكندرية ، بعد أن نال الأمر الإمبراطوري بإتلافها .

وهكذا .. مع أنّ التعاليم الإسلامية تخالف هذه الرواية ، لأنها تحترم الكتب الدينية لأهل الكتاب ، فهي أيضاً مخالفة لعادات المسلمين التي عُرفوا بها عند الفتح ، ولو فرضنا أنّ هذه المكتبة بقيت إلى الفتح الإسلامي ، لم يكن هناك ما يمنع من نقلها إلى القسطنطينية على أيدي الروم أثناء الهدنة التي عقدت مع المسلمين ، وقد أجاز لهم عمرو في هذا الصلح أن يحملوا كلّ ما يقدرّون عليه ، وكان لديهم من الوقت ما يمكنهم من نقل مكتبات لا مكتبة واحدة ، فالحكاية محض افتراء .

الإسلام لم يكن في يوم من الأيام عدوّاً للعلم ، إنّه الدّين الذي بدأ دستوره الإلهي الخالد بكلمة ﴿ اقْرَأْ ﴾ ، وثنّى بقسم (بنون) - التي هي الدّواة - ﴿ ن ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ .

الغرب المتمسك بالمسيحية ، هو الذي ظلّ بضعة عشر قرناً عدوّاً للعلم محارباً له ، بعيداً عن المدنية والعلوم والمعارف والصناعات النّافعة إلى غاية ينجّل العقل من تصوّرها ، وما نفع أوربة مالدنيا من الدّين ورجاله في رفعها مما كانت فيه من التّأخّر والهمجية ، ولم تتقدّم نحو المدنية إلّا يوم اختلطت بالمسلمين ، وعندها قامت قيامة الإكليروس عليها ، وكفّروا كلّ من يتعلّم غير علوم الكنيسة واضطهدتهم وقتلتهم حرّقتهم ، إلى غير ذلك من الفظائع التي شوّهت وجه الإنسانية .

متى كان للمسيحية مدنية يفتخر بها ، سوى تعاليم الكنيسة التي لا يجوز لأحد أن يتلقّى سواها ؟ وهي تعاليم أخروية بحته ، وتأمّر بالنّفرة من كلّ رقيّ وتقدّم دنيوي ، حتّى إنّها تنظر إلى الأغنياء نظرهما إلى أعظم المجرمين المذنبين ، فحرّمت عليهم الدّخول

في ملكوت السماوات ، فزمم أمر الأمة كان بيد رؤسائها الروحيين ، وييدهم الحلُّ والرَّبط حتَّى إنَّهم صرَّحوا أنَّ إرادة السَّماء تابعة لإرادتهم ، فما رأوه حسناً وإن كان سيِّئاً فهو حسن عند الله بزعمهم ، فأثَّروا بذلك في نفوس النَّاس ، وملكوا إرادتهم وحرَّيتهم ، حتَّى أيقن أتباع الكنيسة أنَّ لا عزم لهم ولا إرادة ، فما يأمر به الكاهن فهو الحق ، وإن كان خطأ صراحاً^(١) .

« من هنا أعرض المسيحيون الأولون عن شواغل هذا الكون ، وصدَّوا عن سبيل النَّظر فيه إظهاراً للغنى بالإيمان والعبادة عن كلِّ شيء سواهما ، وحجروا على همم النَّفوس أن تنهض إلَّا إلى الدَّعوة إلى ذلك الإيمان ، وتلك العبادة ، ووسائل الدَّعوة هي الإيمان والعبادة كذلك ، فإذا نزعَت العقول إلى علم شيء من العالم ، وضعوا أمام نظرها كتب العهد القديم ، وحصروا العِلْم بين دَفَّاتها استغناء بالوحي عن كلِّ عملٍ للعقل سوى ما يفهمه من عبارات الوحي ، ولا يسمح لكلِّ ذي عقل أن يفهم ما يشاء ، بل يتلقَّى فهمه من رؤساء الكنيسة خوفاً من الزَّيغ عن الإيمان السَّليم^(٢) .

حصروا التَّعليم في الأديار ، ومنعت الكنيسة أن ينشر بين العامَّة إلَّا ما كان دعوة إلى الصَّلاح وتقرير الإيمان على وجه ظاهر ، وبقي غير القسيسين في جهالة حتَّى بأمر الدِّين وحقائقه وأسراره ، وعندما ظهرت النُّجمة ذات الذَّنْب ، التي تنسب إلى (هالي)^(٣) في سنة ١٦٨٢ م فاضطربت لظهورها أوربَّة ، ولجؤوا إلى البابا واستجاروا

(١) الإسلام روح المدنيَّة ، ص : ١٠٤ .

(٢) البروتستانت - بعد الإصلاح الدِّيني وانفصالهم عن الفاتيكان - رأوا أنَّه يجوز تفسير الكتاب لغير الكنيسة .

(٣) لاحظ إدmond هالي Halley الفترات الزَّمنيَّة المتساوية لظهور المذنب في الأعوام : ١٥٣١ ، ١٦٠٧ ، ١٦٨٢ ، وتابع هالي بنفسه عام ١٦٨٢ حركة المذنب ومداره في السَّماء ، فقال : إنَّ هذا المذنب يظهر كلَّ ٧٦ عاماً على شكل دوري ، وتحقَّق ما تنبَّأ به هذا العالم ، ولهذا أطلق اسمه على المذنب ، وصار يعرف بمذنب هالي .

به فأجارهم وطردها من الجو ، فولّت في الفضاء مذعورة من لعنته ، ولم تعد إلا بعد ستّ وسبعين سنة !!

لم يكن يُسمح لأحد أن يُبدي رأياً يخالف صريح ما في الكتاب ، (التّوراة والإنجيل) ، وعندما أظهر (بلاج) رأيه في أن الموت كان يوجد قبل آدم ، أي إنّ الحيوانات كان يُدركها الموت قبل أن يُخطئ آدم بالأكل والجلاد إلى صدور أمر إمبراطوري بقتل كلّ شخص يعتقد بذلك !! يقول المؤرّخ^(١) : وهكذا عُذّ الاعتقاد بأن الموت كان يزور الأحياء قبل آدم جريمة على المَلِك .

أُحرقت كتب البطالسة والمصريّين بالإسكندريّة على عهد جول قيصر ، ثمّ إنّ تيوفيل بطريق الإسكندريّة انتحل أدنى الأسباب لإثارة ثورة في المدينة لإتلاف ما بقي في مكتبة البطالسة ، بعض بالإحراق ، وبعض بالتّبديد ، وقال (أورايزوس) المؤرّخ إنّهُ رأى أدرج المكتبة خالية من الكتب بعد أن نال (تيوفيل) الأمر الإمبراطوري بإتلافها بنحو عشرين سنة .

ثمّ جاء بعد (تيوفيل) ابن أخته (سيريل) ، وكان خطيباً مفوّهاً ، له على الشّعب سلطان بفصاحته ، وكان في الإسكندرية بنت تُسمّى (هيباتي الرّياضيّة) ، تشغل بالعلوم والفلسفة ، وكان يجتمع إليها كثير من أهل النّظر في العلوم الرّياضيّة ، وكان لا يخلو مجلسها من البحث في أمور آخر ، خصوصاً في هذه المسائل الثّلاث : مَنْ أنا ؟ وإلى أين أذهب ؟ وماذا يُمكنني أن أعلم ؟ فلم يحتمل ذلك القدّيس (سيريل) ، مع أن البنت لم تكن مسيحيّة ، بل كانت على دين آبائها المصريّين ، فأخذ يُثير الشّعب عليها حتّى قعدوا وقبضوا عليها وهي سائرة إلى دار ندوتها وجردوها من ثيابها ، وأخذوها إلى الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوها هناك ، ثمّ قُطّع جسما وجرد اللّحم عن العظم ، وما بقي منها ألقي في النّار^(٢) .

(١) لم يذكر النصّ اسم المؤرّخ ، ولعلّه (بلاج) .

(٢) الإسلام روح المدنيّة ، ص : ١٠٥ ، عن كتاب : الإسلام والنّصرانيّة مع العلم والمدنيّة .

وجاء في مجلّة (المقتبس)^(١) : « قال (كوندي) في تاريخه : إن مسيحي إسبانية لما استولوا على قرطبة حرقوا كل ما طالت إليه أيديهم من مصنّفات المسلمين ، وعددها مليون وخمسون ألف مجلد ، وجعلوها زينة وشعلة في يوم واحد ، ثم رجعوا على سبعين مكتبة في الأندلس ، وأنشأوا يتلفون كل ما عثروا عليه في كلّ إقليم من مؤلّفات العرب ، وقال أحد مؤرّخيهم (ربلس) : إنّ ما أحرّقه الإسبانيول من كتب الأندلسيّين بلغ ألف ألف وخمسة آلاف مجلد ، وذكر بعض المؤرّخين أنّ أحد جثالثتهم^(٢) أمر بإحراق ثمانين ألف مجلد في ساحات غرناطة عقيب استيلائهم عليها ، وإنّهم قبضوا على ثلاث سفن قاصدة مراكش تقلّ ما عزّ على المسلمين أن يخلفوه وراءهم من أسفارهم ، فألقوها في قصر (الإسكوريال) ، ثم لعبت فيها النيران » .

وبعد كلّ ما سبق ، أليس اتّهامهم للإسلام وأهله ، بعدائه للعلم ، وتحريق الكتب في مكتبة الإسكندريّة ، من قبيل (الإسقاط) ؟

إن أعمال الخلفاء من بني أميّة ، ومن بني العبّاس في الحفاظ على الكتب الهنديّة والفارسيّة والرّوميّة واليونانيّة والسريانيّة كثيرة جداً ، بل وسعى بعض هؤلاء الخلفاء إلى جلب هذه الكتب من مدن أوربة وغيرها ، وبذلوا الكثير من أجل الحصول عليها ، وسعوا إلى ترجمتها إلى العربيّة والاستفادة منها في مختلف الاختصاصات كالطبّ والفلك والرياضيات والنّبات وغيرها ، أمّا كتب الفلسفة اليونانيّة فقد درسوها وتقذوها ، وأوجدوا فلسفة إسلاميّة تقف في وجه الفلسفة اليونانيّة ذات الأصول الوثنيّة المادّيّة .

(١) لصاحبها محمد كرد علي (١٨٧٦ - ١٩٥٣ م) مؤرّخ وأديب سوري من الكبار ، من مؤسّسي الجمع العلمي في دمشق ورئيسه ، أنشأ جريدة المقتبس سنة ١٩٠٨ م ، أشهر كتبه : خطط الشّام .

(٢) إنّ الكردينال اكسيمينس الذي قاد بنفسه حملة همجيّة لحرق التّراث العربي الإسلامي ، فأحرق مئة ألف مجلد وأكثر ...

وهذا الموقف السليم من كتب الشعوب ومكتباتهم أمر طبيعي في الإسلام ، اقتبسه المسلمون من سنة رسول الله ﷺ ، فعندما فتح المسلمون حصن الوطيح ، وحصن السّلام في غزوة خيبر ، وجدوا صحائف متعدّدة من التّوراة ، فجاء اليهود يطلبونها ، فأمر رسول الله ﷺ بدفعها إليهم .

وهذا التسامح ، والموقف الإنساني ، سبقه تسامح آخر عندما ترك صحائف اليهود ولم يتعرّض لها بسوء ، ولم ينظر لها نظرة غير طبعيّة ، مع شدة عداوة اليهود للمسلمين ، فقد سمح لبني النضير بعد غزوة أُحُد بحمل صحفهم عند جلائهم عن المدينة المنورة .

لقد انتشرت الكتب والمكتبات في ظل حكم المسلمين وحضارتهم في المشرق والمغرب ، أي من مناطق ما وراء النهر في بخارى وسمرقند ، مروراً بحد الهند وفارس وبغداد ودمشق ومصر ، حتى مدن المغرب والأندلس ، وضاعت أصول كثير من الكتب اليونانية في أوربة ، وعرفت من ترجمتها العربيّة .

إنّ التعصّب الذمّيم جعلهم يلصقون بالمسلمين ما وقعت فيه أوربة التي رعتها الكنيسة ورجالها خلال عصورها الوسطى المظلمة ، وبدايات عصر النهضة ، فقد أبادوا الكتب العربيّة حقداً منهم على العرب والإسلام ، مهما كان نوع تلك الكتب واختصاصها ، يقول غوستاف لوبون : « وأما إحراق مكتبة الإسكندريّة المزعوم ، فمن الأعمال الهمجيّة التي تأبأها عادات العرب المسلمين .. ولا شيء أسهل من أن تثبت بما لدينا من الأدلّة الواضحة أنّ النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندريّة قبل الفتح العربي الإسلامي »^(١) .

وكذلك (ريسلر) في (الحضارة العربية ، ص ١٠١) ، اعتبر حريق الإسكندريّة أسطورة . فهل لمسنا (الإسقاط) بعد هذا كلّهُ ؟

(١) حضارة العرب ، ص : ٢١٣ .

الإسلام عدو المرأة !

يعترف فولتير^(١) بالتالي :

لقد نسبنا إلى القرآن كثيراً من الأباطيل ، ولكنّه في الحقيقة براء منها ، فالفُسُصُ صَنَفُوا كتباً كثيرة في ذمّ المسلمين ، وكتب كتائبنا - وهم لا يحصرهم العدُّ - مؤلّفاتٍ واسعة ، استطاعوا بها أن يجعلوا النساء من حزبهم ، ذلك بأنّهم نقلوا إليهنّ بأنّ محمداً يعتبرهنّ حيوانات ذات ذكاء ، وأنّ الشريعة الإسلامية لا تراهنّ إلاّ إماء لا يملكن من دنياهنّ شيئاً ، ولاحظ لهنّ في الحياة الآخرة^(٢) .

ويقرّر فولتير : وبديهي أنّ هذا الكلام باطل ، ومع ذلك فقد كان النّاس يصدّقونه ، ويقول :

« إنّ الذين عزّوا إلى القرآن أنّه يخيّض من مقام المرأة ، إنّما يعزّون إليه ذلك بهتاناً وكذباً »^(٣) .

(١) فولتير (فرانسوا ماري أرواي) : Voltaire : (١٦٩٤ - ١٧٧٨ م) ، مؤلّف فرنسي ، من نوابغ زمانه ، تزعم حركة الفلسفة المادّية ، وقاوم رجال السّلطة الدّينية والمدنيّة ، وتقدم بقلمه الرّشيق اللاذع .

(٢) الهلال والصليب ، ص : ٨٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص : ٩٠ .

ومن الذين عزوا - زوراً وبهتاناً - إلى الإسلام (إسقاطاً) ما ليس منه ، اللورد (كرومر)^(١) الذي قال : « إنَّ لفشل الإسلام كنظام اجتماعي أسباباً ، منها أنَّه جعل المرأة في مركز منحطٌ كثيراً عن الرجل »^(٢) .

والسير (وليم مور) في كتابه : (حياة محمد) ، عندما ادَّعى أنَّ المسلمين يجهلون معنى الارتباط الزوجي جهلاً كبيراً^(٣) ، وحال المسلمين ترتقي عندما يتبعون سنة النَّصارى في مجال الرِّابطة الزوجية (!) .

ويكرِّر رجال الكهنوت في مواعظهم ونشراتهم قولهم : « إنَّ الكنيسة دون سواها ، هي التي حرَّرت »^(٤) ورعت حقوق المرأة » .

إسقاط ، ودعوى باطلة بطلان ما يتَّهمون به القرآن الكريم ، من أنَّه يحطُّ من منزلة المرأة .

ونحن هنا لسنا في صدد إيراد بحث شامل عن مكانة المرأة وحقوقها في الإسلام ، فالموضوع موضوع (إسقاط) ليس غير ، لكننا مضطرون إلى إيراد ومضات من القرآن الكريم ، تبدّد وهمهم وبهتانهم ، وتلقي شعاعاً من الحقيقة على جوانب مكانة المرأة في الإسلام .

جاء في كتاب الله المجيد :

(١) اللورد كرومر (إفلين بارينغ) Cromer : (١٨٤١ - ١٩١٧) ، المعتد البريطاني في مصر من سنة ١٨٨٣ إلى ١٩٠٧ م .

(٢) الإسلام روح المدنية ، ص : ٢٥٧ .

(٣) الهلال والصليب ، ص : ١١٨ .

(٤) التحرير لا يكون إلا من عبودية ، والمسلم (ذكر وأنثى) لا يعطي العبودية مخلوق ، بل يعطيها للخالق وحده .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرُّوم : ٢١/٣٠] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١/٤] .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ☆ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٧٢-٧١/٩] .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧/١٦] .

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر : ٤٠/٤٠] .

﴿ وَعَاشِرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُمْ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٧/٤] .

وقال رسول الله ﷺ :

« أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله » .

« خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » .

« ما أكرم النساء إلا كريم ، وما أهانن إلا لئيم » .

ومن آخر ما وصّى به ﷺ ، وهو في سكرات الموت : « الله الله في النساء » .

ومن حقّ المرء أن يتساءل : ولكن - في الإسلام - للرجال على النساء درجة ،
وسمح بتعدد الزوجات ، وسمح أيضاً بالطلاق ... فأين الإسقاط ؟!

أولاً : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾
[البقرة : ٢٢٨/٢] ، إنها درجة إدارة مؤسسة الأسرة تحت شعار المودة والرحمة ، فهي درجة
مسؤولية تسمى (القوامة) .

فالقوامة للرجل ، وظيفه داخل كيان الأسرة لإدارة هذه المؤسسة الخطيرة ،
وصياتها وحمايتها ، ووجود القيم في مؤسسة ما ، لا يلغي وجود حقوق الشركاء فيها ،
والعاملين في وظائفها .

ومن الدلائل الفطرية الطبيعية لقوامة الرجل ، شعور المرأة بالحرمان والنقص
والقلق وفقدان السعادة ، وعندما تعيش مع رجل لا يزاوِل مهام القوامة ، وتنقصه
صفاتها اللازمة .

ثانياً : أمّا تعدد الزوجات ، فالقول الحقّ : الزوجة الواحدة هي الأصل في
الإسلام ، وسار على ذلك أكثر من ٩٨ ٪ من المسلمين ، ولكن عوامل متعددة تدفع
الرجل - مسلماً كان أو غير مسلم - إلى التزوُّج بزوجة أخرى ، كعدم الإنجاب ، ومرض
الزوجة المزمن .. ومهما كان الباعث مقبولاً ، فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة .
والشريعة أباحت للمرأة أن تشترط على زوجها حين العقد ، بأن لا يتزوَّج عليها ،
فحينئذ لا يسوغ له الزواج بغيرها .

ثالثاً : والطلاق - مع أنه في الغرب أكثر منه في الشرق بكثير - هو إراحة كلٍّ من
الزوجين حيث يتعذَّر اتِّفاقهما ، إنّه مباح عند الضرورة ، وذلك أنّ الخصام واللجاج من
طبائع المخلوقات ، لا يمكن محوها من النفوس ، والمشارب تختلف باختلاف العقول .

فمن الحكمة إن لم يمكن اتِّفاق الزوجين وإزالة ما بينهما من الكره والنُّفور أن
ينفصلا ، وبذلك يهنأ بألهما ، وتطيب قلوبهما .

وللمرأة حقُّ التَّخَلُّص من زوجها أيضاً ، متى أثبتت للقاضي أذاها منه ، وإضراره
بها .

وقبل الإجابة عن الإسقاط في موضوع (المرأة) ، نذكر أمرين اثنين :

- حقوق المرأة في المِلْكِيَّة في جميع أشكالها : (بيع ، شراء ، تأجير ، استئجار ،
دَّيْن ، هبات ..) ليس منحة من مجلس نيابي ، بل هو تشريع إلهي غير قابل للحوار .

- إذا حال الزوج بين زوجته وبين طلب العِلْم ، فإنها لا تطيعه ، بل تخرج لطلبه
ودراسته ، وتحصيل ما يلزمها من العلوم التي تجعلها سعيدة في الحياتين ، وهذا
ما ذكرته كتب الفقه .

الإسقاط في موضوع المرأة :

أولاً : جاء في العهد القديم : « درتُ أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة
وعقلاً ، ولأعرف الشرَّ أنَّه جهالةٌ والحماقة أنَّها جنونٌ ، فوجدتُ أمرَّ من الموت المرأة التي
هي شباكٌ وقلبها أشراكٌ ويدها قيودٌ ، الصَّالح قُدَّامَ اللَّهِ ينجو منها ... » [الجامعة :
٢٥/٧ و ٢٦ و ٢٧] .

وكَبِلَتِ النَّصْرَانِيَّةُ المرأةَ في أغلال الرِّقِّ ، وقالت عنها :

أما تعلمن أنَّ كلَّ واحدةٍ منكنَّ حواء ؟ أنتنَّ باب الشَّيْطان ، أنتنَّ الآكلات من
الشَّجرة !

إنَّ المرأةَ هي مطيَّة الشَّيْطان ، والعقرب الذي لا يتردَّد قط عن لدغ أيِّ إنسان ،
وهي الأفعى التي تنفث السَّمَّ الزُّعاف ، وهي اللَّعاب الذي يسيل من فم الأفعوان ..

يقول خواجه كال الدين معلماً^(١) : هذه بعض البركات التي فاضت على المرأة من رجال لهم شأن كبير في الكنيسة ، كالقديس برنار ، والقديس أنتوني ، والقديس جيروم ، والقديس سريان ، والقديس بولص الذي يعد في نظري أبا عذر هذا القول ، ولعل السبب في حقه على المرأة أنه خطب فتاة يهودية ، فأبت أن تتزوجه ، وكانت هذه الفتاة بنت الكاهن الأكبر .

قال القديس (جون كريسوستم) في كتابه عن القديس بولص : « ماذا تقولين أيتها المرأة ؟ إنك قد أصبحت لا تملكين لذاتك بدنأ ، فهل يبقى لك مالٌ تملكينه ؟ »^(٢) .

ثانياً : المسيحية لا تحظر التزوج بأكثر من واحدة ، وليس في الإنجيل ما يمنع ذلك ، بل في العهد القديم ما يسمح به ، ووجوب الاقتصار على زوجة واحدة في المسيحية ، حدث بعد مضي زمن من نشأتها على يد رؤساء الدين ، ولو شاؤوا لكان تعدد الزوجات جائزاً عندهم ، أسوة بأنبياء بني إسرائيل وشيوخهم ، الذين كان بوسع أحدهم أن يؤوي خمسمئة زوجة تحت سقف واحد . ولكن رؤساء الكنيسة القدماء ، وجدوا الاكتفاء بزوجة واحدة ، فلم يعجزهم تأويل ما ورد في الكتاب المقدس ، حتى صار التزوج بزوجة ثانية حراماً كما هو مشهور .

جاء في كتاب (أكاذيب مدنيتنا) لماكس نوردو^(٣) : « أن الإنسان ليعيش في بلادنا المتدينة في حالة منكرة من تعدد الزوجات على الرغم من التوحيد الذي يقضي به القانون ، فإنك لا تكاد تجد واحداً من مئة ألف شخص يستطيع وهو على فراش الموت أن يُقسّم لك على أنه لم يختلف في حياته إلا إلى امرأة واحدة » .

(١) المثل الأعلى في الأنبياء ، ص : ١٦٢ و ١٦٣ .

(٢) الهلال والصليب ، ص : ٩٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص : ١١٨ .

وما يسمّى في الغرب (الخدينة : Mistress) ، إسقاط لكرامة فتاتين ، إحداهما امرأته الشرعية ، والأخرى تلك التي اتّخذها صاحبة ، « فأما الأولى فهو بجعله واجباته الأدبية حيالها ، واتّخاذ صاحبة دونها إنّما يهينها في كرامتها ، وأمّا الثانية فهو يهتك عرضها بين من يعرفون أمرها ، ثمّ إنّها إذا بلغت من العمر سن الكبر ، أصبحت حالتها شراً كبيراً ، وإذا قضى لها سوء حظّها أن تلد منه أولاداً فإنّها تصبح فريسة الأكدار والأحزان وقتئذ ، وموضوع احتقار العالمين لها » ^(١) .

ثالثاً : تقدّم المرأة الغريبة في المجال العلمي لا ينسب إلى دينها ، بل إلى رجال الإصلاح الذين نبذوا تعاليم المسيحية ظهرياً ، أما دينها فيكره تعليمها ، قال بولص مخاطباً تيموثاوس : « لست أذن للمرأة أن تُعلّم ولا تتسلّط على الرّجل بل تكون في سكوت ، لأنّ آدم جيلَ أولاً ثمّ حواء ، وآدم لم يُغَوّل لكن المرأة أُغويت فحصلت في التّعدي .. » [رسالة بولص الرسول إلى ايموثاوس : ١٣/٢ و ١٤] ، لذلك .. عُقِد في فرنسا اجتماع سنة ١٥٨٦ م بحث شأن المرأة ، وما إذا كانت تعدّ إنساناً أو لا تعدّ إنساناً ، وبعد النقاش ، قرّر المجتمعون أن المرأة إنسانٌ ولكنها مخلوقة لخدمة الرّجل ^(٢) .

وفي إنكلترة بقيت النّساء حتى السنة ١٨٥٠ م غير معدودات من المواطنين ، وظلّت المرأة حتى سنة ١٨٨٢ م وليس لها حقوق شخصيّة ، فلا حقّ لها بالتّمكك ، وإنّما كانت

(١) يقول (جيبون) في الجزء الثّاني من كتابه (سقوط الدّولة الرّومانيّة) :

« كان بين المسيحيّين في العصور الأولى عديد من الرّجال والنّساء جعلوا حياتهم وقفاً على العفاف !! وكان من أمر طهارتهم جميعاً أن العذارى كنّ يسمحن للقسوس بمضاجعتهنّ في الفراش ، وكنّ يزهين بصونهنّ بين استعار العفاف ، واشتعال الطّهارة » .

ثمّ قال بعد ذلك : « كان رأي أولئك المسيحيين الأقدمين أن أول زواج يلازم دواعي الطّبيعة والمجتمع ؛ ولكنهم كانوا يسمون ثاني زواج زنا شرعيّاً » ، (الهلال والصليب ، ص : ١١٤) .

(٢) مقارنة الأديان : ١٨٨/٣ .

المرأة ذائبة في أيها وزوجها ، ولم تُسَوَّ جامعة أكسفورد بين الطالبات والطلاب في الحقوق (في الأندية واتحاد الطلبة) إلا بقرار صدر في ٢٦ تموز ١٩٦٤ م ^(١) .

وهكذا .. عدو المرأة هو النظام ، أو المجتمع ، أو المنهج .. الذي لم يعترف للمرأة بإنسانيتها ، ولا بكيانها شخصية مستقلة ، ولا بكرامتها ، ذلك المجتمع الذي تدارس رجاله في يوم من الأيام : هل المرأة إنسان ؟ المجتمع الذي نظر إلى المرأة سلعة تباع للرجل لتكون متعة لشهواته وغرائزه ، المجتمع الذي أنزلها لتعلم في كل مجال ، دون مراعاة لطبيعتها وأنوثتها ، المجتمع الذي ألحق المرأة بالرجل عند زواجها منه ، فيلحق اسمها به وبأسرته ، دون أن تحتفظ بما يدل على أسرتها وكنيتها ^(٢) .

المرأة في الإسلام .. مودةٌ ، ورحمةٌ ، وسكنٌ ، ولباس الطمأنينة والهناء ، وحصن الفضيلة ، ومنار العفاف .. وليست مصدراً للشر أو الآثام مطلقاً .

(١) صحيفة الأهرام : ١٩٦٤/٧/٢٧ م .

(٢) والطلاق اليوم في الغرب من أهون الأمور ، شائع وعادي ، وعندما يتمّ تقدّم بطاقات التهنئة للطرفين ، ومعدل الطلاق في أمريكا ٣٣٪ خلال الأعوام العشرة الماضية ، (الأسبوع العربي ، العدد : ٦٨١ ، ص : ٦٥) .

وجاء في صحيفة (تشرين) العربية السورية [الخميس ٣ المحرم ١٤١٦ هـ ١٩٩٥/٦/١٧ م العدد : ٦٢٤٣ ، ص ١٢] : « نيويورك : ذكرت دراسة أمريكية أن خلية الأسرة التقليدية شهدت تبديلاً في العمق سواء في الدول الغنية أو الفقيرة لعدة أسباب أبرزها الدور الاقتصادي المتزايد للمرأة وارتفاع نسب الطلاق والأسر القائمة على أحد الأبوين فقط .

وقال التقرير الذي نشره معهد الدراسات السكانية أن عدد حالات الطلاق في الولايات المتحدة حوالي ٦٠ من كل مئة زواج في ١٩٨٥ م ، أما في الدنمارك فبلغت نسبة الطلاق في التسعينات ٤٥ من كل مئة زواج ، وفي فرنسا ٣٠٪ .

وخلال العقدین الأخيرین ارتفعت حالات الطلاق في الدول النامية حيث أن ربع النساء في الأربعين من العمر مطلقات ، وفي كل القارات ارتفع عدد الولادات خارج إطار الزواج ، وبلغت نسبة هذه الولادات ٣٠٪ في الولايات المتحدة ، وشكلت ثلث الولادات في شمال أوربة .

أمّا النساء فيعملن مئة أطول خارج المنزل من الرجال في عدد كبير من دول العالم ، ففي الدول النامية يعملن مئة أطول ٣٠٪ من مدة عمل الرجل ، وفي الدول الصناعية ٣٠٪ .

وهي في المسيحية .. باب الشيطان ، والأفعى ، والعقرب ، واللّعب الذي يسيل
من فم الأفعوان .. ومصدر الشرور والآثام .

فَمَنْ ظَلَمَهَا !!؟ وَمَنْ عَدَّوَهَا !!؟

إنَّه الإسقاط بكلِّ معانيه النفسيّة والواقعيّة .

يقول عزّ وجلّ في محكم التنزيل : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ ☆ أَدْخُلُوا
أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ^(١) ☆ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ
الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ [الزخرف : ٦١-٦٩/٤٣] .



(١) تحبرون : تسرون سروراً عظيماً ظاهر الأثر ، وفي اللسان (حبر) : يُحْبَرُونَ : ينعمون ويكرمون ،
والْحَبْرَةُ في اللغة : كلُّ نعمةٍ حسنةٍ عسنة ، النعمة التامة .

الإسلام

دين للعرب فقط

يدّعي (مور Muir) : « أن فكرة عموم الرّسالة جاءت فيما بعد ، وأنّ هذه الفكرة على الرّغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيّدّها ، لم يفكر فيها محمد نفسه ، وعلى فرض أنّه فكر فيها ، فقد كان تفكيره تفكيراً غامضاً ، فإنّ عالمه الذي كان يفكر فيه إنّما كان بلاد العرب ، كما أنّ هذا الدّين الجديد لم يهَيَّأ إلّا لها ، وأنّ محمداً لم يوجّه دعوته منذ بُعثَ إلى أن مات إلّا للعرب دون غيرهم ، وهكذا نرى أن نواة عالميّة الإسلام قد عُرِست ، ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك ، فإنّنا يرجع هذا إلى الظّروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج ^(١) » .

وأوضح (جاك س . ريسلر) في كتابه : (الحضارة العربيّة) ^(٢) أنّ الإسلام للعرب فقط .

ويقول (غيتاني Caetani) : « لم يتخطّ محمد بفكره حدود الجزيرة العربيّة ليدعو أمم العالم في ذلك الوقت إلى هذا الدّين » ^(٣) .

(١) Muir. The Caliphate, P. 34-44.

(٢) ترجمة غنيم عبدون ، نشر الدّار المصريّة ، ص : ٢٧ . والمستشرق الهولندي (فنسك) يعتقد هذا الرّأي أيضاً ، انظر (الدّعوة الإسلاميّة دعوة عالميّة) ، لمحمد الرّاوي ، طبع : الدّار العربيّة .

(٣) Caetani: Annali del Islam vol. V.P323.

« وليس من الميسور أن تقرّر ، على وجه الدقّة ، ما إذا كان النّبي نفسه قد استشعر أنّه مدعو لمثل هذه الرّسالة العالميّة » ^(١) .

فالإسلام في رأيهم « دين للعرب فقط » ، وليس لغيرهم ، وفكرة عالميّة الإسلام فكرة لاحقة ، وبهذا الرّأي وقعوا عن قصد وعلم بالإسقاط . وهذا بيان ذلك ..

آيات القرآن الكريم ، وسيرة النّبي ﷺ وأحاديثه الشّريفة ، هي التي تحدّد عموميّة الدّعوة الإسلاميّة أو خصوصيّتها .

وآيات القرآن الكريم - مصدر الإسلام الأوّل - كلّها تتّجه ، وبوضوح تام ، نحو عموميّة الدّعوة :

﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ☆ وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : ٨٨/٨٧ و ٨٨] .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١/٢٥] .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨/٧] .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٢٣/١] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨/٣٤] .

هذه الآيات الدّالّة على عالميّة الإسلام ، يقابلها أدلّة على أنّ ألفاظ القرآن الكريم واضحة محدّدة ، فعندما ذكر الأنبياء والمرسلين حدّد أنّهم لأقوامهم فقط ، مثل :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ .. ﴾ [الأعراف : ٥٧/٧] .

(١) تاريخ الشعوب الإسلاميّة ، ص : ٧٠ و ٧١ .

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. ﴾ [الأعراف : ٨٥/٧] .

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ [الأعراف : ٧٣/٧] .

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [هود : ٥٠/١١] .

هذه الآيات واضحة ، إنَّ نوحاً ، وشعيباً ، وصالحاً ، وهوداً ، أرسل كلُّ منهم إلى (قومه) ، أمّا محمد ﷺ ، فبوضوح إنَّه (للعالمين) ، فكيف فهم النَّصارى من فقه اللُّغة العربيَّة أنَّ كلمة (عالمين) تعني العرب فقط !!؟

أمّا سيرة النَّبي ﷺ وأحاديثه ، فقد ورد :

تنبأ ﷺ عند هجرته إلى المدينة ، وهو في أشدَّ ساعات الحرج والخطر ، بأنَّ سُرّاقة بن مالك سيلبس سِواريَّ كسرى ونطاقه ، عندما قال له : كيف بك يا سُرّاقة إذا سوَّرت بسواريَّ كسرى ؟ قال سُرّاقة : كسرى بن هرمز ؟ قال ﷺ : نعم ^(١) .

وتنبأ ﷺ لأم حرام الرُّميصاء بنت ملحان ، زوجة عبادة بن الصَّامت ، أنَّها ستركب البحر عندما نام في بيتها ، ثمَّ استيقظ يضحك ، فقالت : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : « ناسٌ من أمَّتِي غَرَضُوا عَلَيَّ يركبون ثبج هذا البحر ، مثل الملوك على الأُسرة » ، قالت : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، قال ﷺ : « أنت معهم » .

ثمَّ نام فاستيقظ وهو يضحك ، فقال مثل ذلك ، فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال ﷺ : « أنت من الأوَّلِينَ » . فكانت أمُّ حرام في فتح قبرص ، وماتت بها ، وكانت الثَّانية عبارة عن غزو القسطنطينيَّة ^(٢) .

(١) الكامل في التَّاريخ : ٧٤/٢ ، البداية والنَّهاية : ١٨٥/٣ ، عيون الأثر : ١٨٢/١ ، السِّيرة النَّبويَّة : ٣٧٢/١ .

(٢) البداية والنَّهاية : ١٥٣/٧ .

وصية النبي ﷺ لصحابته بأن يستوصوا بأهل مصر خيراً عندما قال : « إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإنَّ لهم فيكم صهراً وذمة » ^(١) .

ومن أحاديثه ﷺ : « إنني بعثت رحمة وكافّة ، فأدّوا عني يرحمكم الله » ^(٢) .

وقال لرسوليّ باذان عامل الين من قبل كسرى : « إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى » ^(٣) .

فهل يطلبون تصريحاً أبلغ من هذا !؟

ورسائل النبي ﷺ - بعد صلح الحديبية - إلى من كان حول جزيرة العرب من الحكّام والملوك ، مثل نجاشي الحبشة ، وقيصر الرّوم ، وكسرى الفرس ، والمقوقس حاكم مصر .. أليست أكبر شاهد على عموم الدّعوة الإسلاميّة ؟

أمّا المسيحيّة :

فقد أرسل يسوع إلى بني إسرائيل فقط ، جاء في إنجيل متى على لسان يسوع :
« لم أرسل إلّا إلى خراف بيت إسرائيل الضّالة » [متى : ٢٤/١٥] .

« هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً : إلى طريق أمر لا تمضوا ، وإلى مدينة للسّامريّين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحريّ إلى خراف بيت إسرائيل الضّالة »
[متى : ١٠/٦٥] .

جاء في (يناييع المسيحيّة) : لم يكن الدّين غير القومي معروفاً لدى عيسى ، وكان كل عمله خاصّاً ببني إسرائيل ، وظلّ عمله بينهم كل زمن حياته ، إلّا أنّنا قرأنا ما يناقض ذلك في إنجيل مرّقس ، حيث روي أنّه قد قال لتلاميذه الأحد عشر ، عندما

(١) الطّبري : ٢٢٨/٤ .

(٢) الطّبري : ٦٤٥/٢ .

(٣) الكامل في التّاريخ : ١٤٦/٢ .

جلسوا إلى اللحم : « اذهبوا إلى العالم أجمع وأكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها » [مرقس : ١٥/١٦] ، وأنبئنا أن ذلك حصل بعد قيامه من الموت ، لأنه قبل وفاته لم يفكر إلا في عشيرته فقط ، وقد منحهم أيضاً القدرة على إتيان المعجزات : « يخرجون الشياطين باسمي ، ويتكلمون باللسنة جديدة ، يحملون حياتٍ وإن شربوا شيئاً مميئاً لا يضرهم ، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرؤون » [مرقس = ١٨/١٦] .

ترى إرساليات التبشير المسيحية ، أن الآيات الإنجيلية الماضية تخوّلهم حقاً يبرر استمرارهم في تبشيرهم في سائر الجهات ، إلا أنه يظهر أن هؤلاء المرسلين الحديثين لا يستطيعون إحداث المعجزات التي يجب أن يحدثها من يرسل لنشر الدين المسيحي ، ولعلّ السبب في عدم قدرتهم على إحداث هذه المعجزات راجع إلى قول عيسى في الإنجيل : « وهذه الآيات تتبع المؤمنين » ، فمن المؤكد أن مركزهم والحالة هذه ليست ما يشتهى أو يرغب فيه ، إذ كيف يمكن لقوم أن ينشروا الإيمان وهم ليسوا بمؤمنين^(١) ؟

إن الإحدى عشرة آية الختامية لإنجيل مرقس التي أخبرت عن قيام المسيح بعد الموت ، والمرسلين ومعجزاتهم ، والحكم المتوقع على غير المسيحيين ، ذلك الحكم غير اللائق وغير الخلق بنفس وديعة ، كنفس عيسى ، قد برهن على أنها حشو وإضافة مزيفة ، وليس لها وجود في الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس ، ولا في الأصول اليونانية القديمة .

إن ناقلي الكتاب المقدس إلى اللغة الإنكليزية الأول في عهد جيمس الأول^(٢) ، وجدوه كذلك ، وأشاروا إلى ذلك في الهامش بملاحظة عن تلك الإحدى عشرة آية التي لم تكن موجودة في الأصل اللاتيني ، وتعلم ذلك جمعية الكتاب المقدس البريطانية علم

(١) ينابيع المسيحية ، ص : ١٦٦ .

(٢) جيمس James ملك اسكتلندا .

اليقين ، ومع ذلك فهم لا يهتمون بحذفها من كتابهم المقدس ، ولا يجدون هناك حاجة لأن يضعوا ملاحظة على الهامش كما فعل المترجمون الإنكليز الأول ، إن تركهم للناس يتخبطون في الظلام من هذه الوجهة ، موضوع يجب عليهم أن يعتبروه وينحوه عنايتهم ، ولو لخدمة الحقيقة وأداء الأمانة فقط^(١) .

والجزء اللغزي في هذا الإسقاط : ما أضيف إلى تعاليم يسوع فيما بعد ، وما (حشيت) الأنجيل به على مرّ العصور ، فما جاء في إنجيل مرقس [١٥/١٦] : « اذهبوا إلى العالم أجمع وأكرزوا بالإنجيل للخليفة كلّها » ، ليس له وجود في الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس ، ولا في الأصول اليونانية القديمة ، والأصل في المسيحية : أرسل يسوع إلى خراف بيت إسرائيل الضالة فقط ، ومن هنا جاء الإسقاط ، فاتهم الإسلام أنه للعرب فقط .

قال تعالى في محكم التنزيل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٢/٤٩] ، فالناس - جميعاً - في نظر الإسلام سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربي على أعجمي ، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى ، وهذه العمومية والمساواة بين الناس جميعاً ، كانتا من أهمّ عوامل انتشار الإسلام بين شعوب الأرض .

☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

(١) ينابيع المسيحية ، ص : ١٦٧ و ١٦٨ .

انتشر الإسلام بالسيف قهراً للشعوب

(إسقاط) يردّده المبشّرون والمستشرقون المتعصبون كثيراً ، ويردّده كلّ مسيحي عندما يحاور مسلماً ، إنهم يقولون : انتشر الإسلام بالسيف ، وانتشرت المسيحية بكسب القلوب ، بالحبّة ..

قال المنسيور كولي : « لقدوضع محمد السيف في أيدي الذين اتّبعوه ، وتساهل في أقدم قوانين الأخلاق ، ثمّ سمح لأتباعه بالفجور والسلب ، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع باللذات ، وبعد قليل أصبحت آسية الصغرى وإفريقية فريسة له »^(١).

« يتحتّم على المسلم أن يعلن العداوة على غير المسلمين حيث وجدهم ، لأنّ محاربة غير المسلمين واجب ديني »^(٢).

« من الثّابت أنّ الإسلام لم يكن يصادف نجاحاً إلّا عندما كان يهدف إلى الغزو »^(٣).

(١) البحث عن الدّين الحقيقي ، للمنسيور كولي ، الصّادر عن اتّحاد مؤسسات التّعليم المسيحي (باريز ١٩٢٨) .

(٢) تاريخ الشّعوب الإسلاميّة ، كارل بروكلمان ، ص : ٧٨ .

(٣) فردريك دينسون موريس ، في : (The Religions of the World, P.28 (Cambridge 1852

ويُرجع كلٌّ من مور Muir ، وغيتاني Caetani : « ازدياد عدد المسلمين إلى الانتصارات العسكرية ، وإكراه الناس على الدَّعوة الموجودة في تعاليم الإسلام »^(١) .

« وأخضع سيفُ الإسلام شعوبَ إفريقية وآسية شعباً بعد شعب »^(٢) .

« إنَّ تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدِّماء والحروب والمذابح »^(٣) .

« في القرن السَّابع للميلاد برز في الشَّرق عدو جديد ، ذلك هو الإسلام الذي أسَّس على القوَّة ، وقام على أشدِّ أنواع التعصُّب .. »^(٤) .

« وقد أمر محمَّد أتباعه أن يحملوا العالم كلَّه على الإسلام بالسَّيف إذا اقتضت الضَّرورة »^(٥) .

« إنَّ هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوَّة ، وقالوا للنَّاس : أسلموا أو موتوا ، بينما أتباع المسيح رجحوا النُّفوس ببرِّهم وإحسانهم »^(٦) .

« إنَّ سيف محمد والقرآن هما أكثر أعداء الحضارة والحريَّة »^(٧) .

« لم تدر الحروب الصَّليبيَّة حول إنقاذ كنيسة القيامة فحسب ، بل دارت حول معرفة من الذي سينتصر على هذه الأرض ، مذهب تعبدي هو عدو الحضارة ، محبَّذ

(١) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ٤٦٩ ، عن : The Religion of the World P.82

(٢) التبشير والاستعمار ، ص : ٤١ ، عن : Islam and Mission, 43

(٣) لطفلي ليفونيان : 9 , Levonian

(٤) البحث عن الدِّين الحقيقي ، المنسيور كولي ، ط : ١٩٢٨ ، ص : ٢٢٠ .

(٥) تاريخ محاضرات ج . إيزاك للشَّرق الأدنى ، ص : ٣٢ ، والكتاب يدرِّسه التبشير لطلاب الصَّف الخامس في المدارس الفرنسيَّة في بيروت .

(٦) تاريخ فرنسة ، هـ. غيومان ، وف. لوستير ، ص : ٨٠-٨٢ ، وكان يُدرِّس في لبنان .

(٧) أرنست رينان ، انظر : الاستشراق ، إدوارد سعيد ، ص : ١٦٨ .

باطرّاد للجهل - وذلك هو الإسلام طبعاً - وللطُغيان وللعبوديّة ، أو مذهب تعبدي أدّى إلى أن يوقظ في البشر المعاصرين عبقرية الزمن ، وألغى العبوديّة الدنيّة «^(١) .

من أكبر التّهم - والإسقاطات - البعيدة عن الحقيقة التي حاول الجهلة والمتعصبون الحاقدون إلصاقها بالإسلام ، هي أنّه انتشر بالسيف ، أي بقهر النّاس واضطهادهم ، لكن هذه التّهمة الباطلة سرعان ماتدوب أمام شمس الحقيقة ، ونور العقل ، ومنهج العلم ، بتحصيلها ودراستها على ضوء أمرين اثنين ، هما :

١ - شرعة الإسلام وموقفها من غير المسلمين .

٢ - موقف المسلمين العملي وسلوكهم مع غير المسلمين .

أما بالنسبة للشريعة الإسلامية مع غير المسلمين ، فموقفها صريح وواضح جداً ، ففي القرآن الكريم : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦/٢] ، ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩/١٨] ، ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُمِينُ ﴾ [النحل : ٧٢/١٦] ، فأية حرّية للعقيدة بعد هذا الدّستور الخالد ، فالعالم كلّهُ حتّى اليوم لم يستطع مع كلّ نظريّاته التّقدميّة أن يصل إلى حرّية الفكر التي نصّ عليها القرآن الكريم ، فاضطهاد المعارضين لفكر الدّولة يجري في دول عديدة ، وبأشكال مختلفة ، وبمبررات متعدّدة ، تحت ستار العلمانيّة يحارّب الإسلام ، ويترك غيره من يهوديّة ومسيحيّة .

أما بالنسبة لموقف المسلمين العملي وسلوكهم خلال فتوحاتهم ، فإنّ تاريخهم بريء من أيّة حادثة فيها ضغط - أو اضطهاد - على إنسان لإجباره على اعتناق الإسلام ، وما كانت الفتوح واستخدام السيف إلّا لإزالة أنظمة من الحكم من أكاسرة وقياصرة وملوك وقفوا في وجه الدّعوة للإسلام ، فاستخدم المسلمون القوّة لإزالة هذه العقبات

(١) الاستشراق ، إدوارد سعيد ، ص : ١٨٦-١٨٧ ، عن : (شاتو بريان ، المؤلّفات : ١٠١١/٢-١٠٥٢) ، وشاتوبريان (١٧٦٨ - ١٨٤٨ م) وزير خارجية فرنسا قبيل فرض الحصار البحري على الجزائر سنة ١٨٢٧ م .

لتأمين حُرِّيَّة نشر الإسلام ، وليس لإجبار الناس على اعتناقه ، بل لإيصاله إليهم وتركهم بعد معرفتهم بالإسلام أحراراً في أن يعتنقوه أو يبقوا على ديانتهم ، وأكبر شاهد على صحَّة ما نقول ، وجود مئات الألوف من اليهود والنصارى في بلاد المسلمين ، مع حُرِّيَّتهم في إقامة عباداتهم ومعابدهم وصلبانهم وأعيادهم منذ أربعة عشر قرناً وحتى اليوم ، وأعظم وثيقة تاريخيَّة تثبت ذلك العهد الذي أعطاه عمر بن الخطَّاب لأهل القدس (العهدة العمرية) ، والتي جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء^(١) من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيهم وبريئهم وسائر ملَّتْها ، أنَّه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدَم ، ولا ينتقص منها ولا من حيَّزها ، ولا من صليبيهم ، ولا من شيءٍ من أموالهم ، ولا يُكرَّهون على دينهم ، ولا يضارَّ أحد منهم ..

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمَّة رسوله ، وذمَّة الخلفاء ، وذمَّة المؤمنين .

شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وكتب وحضر سنة خمس عشرة «^(٢) .

وعلى مضمون (العهدة العمرية) وقَّع أبو عبيدة بن الجراح معاهدة مع أهل دمشق ، ووقَّع عمرو بن العاص معاهدة مع أهل مصر ..

هذا .. وها هو الإسلام نرى ملايين أفرادهِ اليوم في بلاد مثل أندونيسية ، والفلبين ، وماليزيا ، وجنوبي خط الاستواء في القارة الإفريقيَّة ، لم يصل إليهم سيف ، أو جيش فاتح ! .

(١) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس ، ومعناه : بيت الله ، (معجم البلدان : ٢٩٣/١) .

(٢) الطَّبْرِي : ٦٠٩/٣ ، واليعقوبي : ١٦٧/٢ .

أما إذا أردنا أن نسمع عن عقيدة حاول أصحابها أن يجبروا الناس على اعتناقها بالسيف وبالحرق وبالتعذيب ، وتقطيع الأوصال ، وبألوان لم يعرف تاريخ البشرية مثيلاً لها بالاضطهاد ، وباستخدام أدوات ووسائل لم تخطر على بال أعتى المجرمين في العالم ، فلنعد إلى ماسجله التاريخ عن أعمال محاكم التفتيش ، وبخاصة في إسبانية ، وعن أعمال رجالها ببقايا المسلمين الذين نشروا في ربوع الأندلس التسامح والحضارة والرقي والعلوم .. نشروا رسالة الإخاء الإنساني حين كان الحكم بأيديهم ، ثم حين تحول الحكم إلى يد الإسبان ، ومن ورائهم الكنيسة والبابوية ، نالهم من الاضطهاد ما تقشعر لهولهُ الأبدان ، ويخجل منه اليوم أحفاد أولئك الطغاة المتعصبون ، فضلاً عن اضطهادات أخرى بين الكاثوليك والبروتستانت ، وبين النصارى واليهود ، والأمثلة التاريخية على كل ذلك تملأ الصفحات ، ولكن فقدت الصليبية الحياء - من يومها - فعمدت إلى اتّهام الإسلام والمسلمين بما كان فيها .

أنسيّت الصليبية أن مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ، أمر بتحريق الكتب التي تخالف رأيه ، وتتبعها في كل مكان ، وحثّ الناس على تحريم قراءتها ، فهو بهذا منع أن يصل الناس إلى علم بأيّ أمر من الأمور التي تخالف رأيه ؟ فأين حرّية المعتقد ؟!

والأب توماس دوطور كادا Tomas de Torquemada الرّاهب الدومينيكاني ، الذي عُيّن رئيساً لمحكمة التفتيش في إسبانية عام ١٤٨٢ م ، وكان أعطى أشدّ الأوامر وأقساها وأصرمها لمحاكم التفتيش في طول البلاد الإسبانية وعرضها ، بإحراق عشرات الألوف من الأبرياء الذين لم يكن لهم ذنب من الذنوب سوى أنّهم أبوا ورفضوا أن يصبؤوا عن معتقدهم الإسلامي ، وينصاعوا إلى المسيحيين .

والأب بليدا Bleda أكثر تصوّراً وتخيلاً ، إذ إنّه كان يعتقد استحالة التفريق بين الذين اعتنقوا النصرانية عن عقيدة ورغبة وحبّ بدين المسيح ، وبين الذين اعتنقوا النصرانية عن خيفة ورهبة ، وإنّه من الأنسب والأصلح قطع دابرهم ، واستئصال شأفتهم عن بكرة أبيهم ، وأن لا يستثنى منهم أحد ، ويدبحوا كالأنعام ، وبذلك يكون

يوم القيامة أسهل على الله تفريق وتمييز من تنصّر عن قلب سليم فيدخله الجنة ودار النعيم ، ومن كان تنصّره خوفاً ورهبةً ، فيلقيه في نار الجحيم مخلداً أبداً الأبدية .

ومع أنّ هذا القرار قد صدّق من رجال الدّين الإسبان جميعاً ، إلّا أنّ الحكومة لم تر من الحكمة أن تضعه موضع التنفيذ على هذه الطّريقة ، وبهذه الصّرامة والشّدّة ، ولكنها أمرت المسلمين بمغادرة إسبانية إلى المغرب ، وأوعزت إلى سكّان البلدان والقرى التي كان على المسلمين أن يميّروا عليها أن يقضوا عليهم بجميع الوسائل والذرائع لكي لا يبقى منهم باقية ، وهكذا لم يصل إلى السّاحل من هؤلاء الملايين الثلاثة الذين رفضوا التّنصّر بمحاكم التّفتيش ، إلّا حوالي مئة الألف فقط .

الإسلام انتشر بالسّيف ، عبارة يهدف الغريؤون من ورائها إلى وصم الإسلام بالبعد عن حرّيّة الفكر ، وعن الرّحمة والإنسانيّة .

التّوراة نصّت على حمل السّيف ، بهدف القتل للقتل ، والقتل للفساد ، والقتل للعلو في الأرض بغير الحق ، جاء - على سبيل المثال - في سفر التثنية : [١٦-١٠/٢٠] : « حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصّلح ، فإن أجابتك إلى الصّلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتّسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرّب إهلك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السّيف ، وأمّا النّساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيّتها فتغنّنها لنفسك وتأكل غنيّة أعدائك التي أعطاك الرّب إهلك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدّاً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأمّا مدن هؤلاء الشّعوب التي يعطيك الرّب إهلك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما .. » .

والإنجيل نصّ على حمل السّيف :

« لا تظنّوا أنّي جئت لألقي سلاماً على الأرض ، ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً » [متى : ٢٤/١٠] .

« ومن ليس له سيف فليبع ثوبه ويشتري سيفاً » [لوقا : ٣٧/٢٢] .

والإسلام حمل السيف ، فليس الخلاف بين الشرائع في حمل السيف ، وإنما الخلاف في الهدف من حمله ، والأسباب التي حُمِلَ بسببها ، والأسلوب الذي حُمِلَ به ، والهدف المرجو من حمله : ﴿ ..فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٩٠/٤] .

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ☆ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المتحنة : ٩٠/٦٠] .

لقد عرف العالم في الفتوحات الإسلامية الإنسانية - الحضارية ، وجه الصواب في استعمال السيف ، وكيفيه أنه لم يكره شعباً ، ولا فرداً ، على اعتناقه ، وجعل من المعاهدات التي وقّعها مع الشعوب وثائق مقدّسة ، لاقصاصات ورق .

ولا يحقُّ للنصارى ، ولا لغيرهم ، أن يتّهموا الإسلام بأنه دين العنف والقتل وسفك الدماء ، وفي كتابهم (المقدّس) من النصوص ما يفهمهم ويدينهم .

أمّا أعمالهم وتاريخهم ، ففاحم أسود ، ونتين آسن ، فالسيف هو الرفيق الأوحَد للصليب أينما سار وحلّ ومشى وارتحل ، وهذه نماذج منها :

شجّع ثيودوسيوس الأوّل تحطيم المعابد الوثنيّة ، وحرّم إقامة الشعائر القديمة ، وقام المسيحيّون بقيادة الرهبان بعملية تحطيم المعابد وتخريبها ، وفي سنة ٣٩١ م صدر مرسوم إمبراطوري لقاضي القضاة ، بالعمل على تنفيذ أمر تحريم زيارة الأماكن الوثنيّة المقدّسة ، وبعد ذلك بقليل صدرت الأوامر المشابهة لحكّام مصر ، فبدأ أسقف الإسكندريّة اضطهاداً واسعاً تؤيّدُه القوّة العسكريّة الرومانيّة .

إنَّ انتشار المسيحيَّة ابتداءً من أواخر القرن الرَّابِع الميلادي ، إنَّما أخذ صورة أخرى غير الصُّورة القديمة ، إذ بدأت الكنيسة التي تعضدها سلطة الدَّولة المادِّيَّة حينئذٍ ، تفرض الدِّين بالقوَّة ، وبمختلف الوسائل كما تشير جميع دلائل التَّاريخ وأحداثه^(١) .

شارلمان ، حارب السَّكسونيَّين ثلاثاً وثلاثين سنة ، بغاية العنف ، وذروة الوحشيَّة ، حتَّى أخضعهم وحولهم قسراً - بالسَّيف - إلى الدِّيانة المسيحيَّة^(٢) ، على يد القدِّيس ليودجر Liudger ، وويليهاد Willehad .

وأكرهت مصر على انتحال النَّصرانيَّة^(٣) .

ونشر الملك كنوت Cnut المسيحيَّة في الدانمارك بالقوَّة والإرهاب^(٤) .

وفُرضت المسيحيَّة في روسية على يد جماعة اسمها :

« إخوان السَّيف »^(٥) : Brethers of The Sword .

وعلى يد فلاديمير دوق كييف (٩٨٥ - ١٠١٥ م) الذي يضرب به المثل في الوحشيَّة والعنف والشَّهوانيَّة .. وبلغ من حمقه وطيشه أن أمر بتعميد أهل دوقية روسية كلَّهم مرَّة واحدة في مياه نهر الدنيبر^(٦) .

وفي التَّروج ، أمر الملك أولاف ترايغيفيسون بذبح الذين أبوا الدُّخول في المسيحيَّة ، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم ، أو بنفيهم وتشريدهم .

(١) حضارة الإسلام ، جلال مظهر ، ص : ١٥٨ .

(٢) تاريخ أوربة في العصور الوسطى ، فيشر : ٦١/١ .

(٣) حضارة العرب ، ص : ٣٣٦ .

(٤) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ٣٠ .

(٥) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ٣٠ .

(٦) تاريخ أوربة في العصور الوسطى ، ص : ٤٠٧ .

أما في أمريكا ، فقد حلت حرب الإبادة ضدّ الهنود الحمر ، وقُضيّ فعلاً على حضارة الأتيتل ، والمايا ، والآزتيك ، والأنكا .

نشرت مجلّة : Cuba International ، عدد تموز ١٩٧٢ ، تحت عنوان : La Historiy ، الصّفحة : ٦ ، صورة لمبشّر بيده صليب ، وزعيم هندي أحمر مقيد إلى سارية ، وقد غُطيّ حتّى منتصفه بحزم الحطب والقش لحرقه ، أما المبشّر فرافع الصليب في وجهه يدعو إلى المسيحية قبل إحراقه !!
وماذا تقول عن الكشوف الجغرافية الأوربيّة ؟

لقد ظهرت قسوة الأوربيين ووحشيتهم وتعصّبهم منذ أوّل يوم نزلوا فيه أراضي إفريقية وآسية .

إنّها كشوف جغرافيّة أوربيّة ، وما هي في حقيقتها إلّا امتداد لوحشية الحروب الصليبيّة ، وفي جوهرها حركة تبشيريّة ، واستمرار لحاكم التفتيش ، ودليل ذلك : بقي البرتغاليّون - مثلاً - نحو مئتي سنة في إفريقية الشّماليّة ، لم يتركوا بعدها أثراً من آثار الحضارة النّافعة ، ولم يعقبوا بعدهم غير ذكرى الخراب الذي حلّ على أيديهم بالمعاهد والمعابد الإسلاميّة ، ولم يزالوا حيثما نزلوا يخرّبون وينهبون ، وما حدث من الدمار لم يكن في إفريقية فحسب ، بل حلّ في كل بقعة وصلها المبشّرون الصليبيّون المستعمرون^(١) .

وعلى الرّغم من هذا كلّّه ، يقول (خليل خالد أفندي)^(٢) في كتابه (الهلال والصليب) :

-
- (١) الإسلام في إفريقية الشّرقية ، ليندن هاديس .
(٢) خليل خالد أفندي ، كاتب عثماني ، أستاذ اللّغة التركيّة في جامعة كبردج ، وصاحب التّأليف المشهورة في الدّفاع عن الشّرق والإسلام ، ولد خليل خالد أفندي في أقرّة سنة ١٢٨٧ هـ ، (انظر مقدّمة الشّيخ عبد العزيز جاويز لكتاب (الهلال والصليب) طبعة الهداية - القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م) .

« يقولون إنَّ الإسلام ما قام إلَّا بقاء السَّيف ، ولا امتدَّ رواقه إلَّا فوق الدِّماء التي أسالها ، ولا اعتنقته القلوب حتَّى خشيته الرِّقاب ، ذلك رأي كبارهم ، وما الجمهور فيه بمرتاب ، بل هو يأخذه أخذاً دون بحث ، ويقول به وهو غير كظيم .

كثُر ذكر السَّيف في صحفهم وخطاباتهم ، وقالوا : إنَّ الإسلام ما انتشر إلَّا به .. وكأنِّي بقسِّيس منهم يقول لصاحبه وهو ينصح له : قل لقد كان المسلمون يدخلون المسيحيين في دينهم بالسَّيف ، فاذا ذكر السَّيف كلما خطبت ، واذا ذكر السَّيف أينما احتفلت ، ولكي تؤيِّد قولك وتعزز حجَّتكَ ، اقتضب من آيات القرآن بعضها ، وترجمها للسَّامعين لترتهم كيف يأمر الإسلام باضطهاد من ليسوا على مذهبه ، فلقد رأيتُ كثيراً من أعضاء البرلمان وغيرهم من رجال الكنيسة يتوخَّون ذلك المنهج في كلِّ حادثة من حوادث الشَّرق ، ونحن جديرون أن نقلِّدهم ونتبَّع سنَّتهم ، والغاية تبرَّر الوسائل ، فإذا تصدَّى لك من المسلمين نفرٌ لتكذيبك واتِّهامك بأنَّك متعمَّد تشويه الحقائق الإسلاميَّة مخطئٌ في نقل الآيات القرآنيَّة ، مفترٍ على محمد ودينه ، فلا تأبه به ، ولا تعر مطاعنه لفته منك ، وكيف تهتم بقول شرقي مسلم عريق في الهمجيَّة ، أو تأبه بما يعارضك به ذلك الأخرق المستطار ، وأنت في جمهور المسيحيين الذين يؤمنون بقولك ، ويؤمنون عليه ببساطة ، ويبجلونك من أجل طعنك في دين محمد ، ذلك الذين القدر الممقوت ؟ .. استع لقولي واعمل بوصيَّتي ، فإنك بالغ قصدك على كل حال »^(١) .

هذا نزر يسير من دجلهم وافتراءاتهم وأسلوبهم وإسقاطهم ، فصلبيَّتُهم الحاكمة أوصلتهم إلى ما هو أبعد من هذا ، يقول (أرنست رينان) : « إنَّ الشَّروط الجوهري

(١) الهلال والصليب ، خليل خالد أفندي ، ص : ٦٤ وما بعدها ، طبع في مطبعة الهداية في القاهرة ، سنة : ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م ، نظرفيه وأجازه وقدم له : الشَّيخ عبد العزيز جاويز ، عرَّبه عن الإنكليزيَّة : إبراهيم رمزي أفندي .

لنشر الحضارة الأوربيّة ، هو زوال الإسلام ، وستظلُّ الحرب قائمة في هذا المضمار ، ولن تنتهي إلا عندما يموت آخر ولد في ذرّيّة إسماعيل بؤساً ، أو عندما يدحره الإرهاب ، فيتقهقر حتى قلب الصّحراء » .

وستبقى الحقيقة ثابتة تصرخ في وجه المفترين ، بتسامح الإسلام وتعصّب المسيحيّة ، « وبأن تاريخ الأمم النّصرانيّة ، وأكثر من هذا ، تاريخ الكنيسة بالذات ، مضرّج بالدماء وملطّخ ، ولربما أكثر تضرّجاً ووحشيّة من أي شعب وثني آخر من العالم القديم » ^(١) .

« ليت شعري ، هل أوجدت الكنيسة وأحدثت في إسبانية حضارة ذات بال تستحق الذكر ؟ !

إنّهم المسلمون العرب ، هم الذين غيّروا وبدّلوا وقلبوا وحولوا هذه البلاد إلى حدائق ورياض وبساتين وجنان ، وهم في الوقت نفسه مشغولون بجميع أنواع العلوم ، وشتّى الفنون ، مكوّنين وموجدين تمدُّناً وعمراناً وحضارة حقيقيّة .

إن أمماً ذوات حضارات زاهية باهرة قد أزيلت وأبديت ومُحيّت ببساطة وسهولة من عالم الوجود ، وكلُّ ذلك باسم الدّين النّصراني ! » ^(٢) .

في جزيرة هيسبانيولا Hispaniola (هاييتي والدومينيكان) قائد الحملة الإسبانيّة (هرناندو كورتيس) ومعاونه (ديفغو فلاسكيز) أبديا من ضروب الوحشيّة ما يندى له جبين الإنسانيّة على مدى تاريخ البشريّة تفنُّنها في تعذيب سكّان المناطق التي كانوا يميّرون بها ، من قطع رؤوس الهنود الحمر ، وفقء عيونهم ، وصبّ الزيت المغلي ، والرّصاص المذاب في جراحهم ، أو إحراقهم أحياء على مرأى من الآخرين من السكّان

(١) تبند أوهام قسّيس ، ص : ٤٠٢ .

(٢) تبند أوهام قسّيس ، ص : ٣٩٢ .

الأصليين ، يهدف إجبارهم على الاعتراف بالأماكن التي يوجد بها الذهب أو إكراههم على اتباع الدين المسيحي^(١) .

فهبط عدد السُّكَّان الهنود في المكسيك من ٢٥ مليون نسمة في عام ١٥١٩ م ، إلى ٦,٣ مليون نسمة في عام ١٥٤٨ م ، وإلى مليون وسبعين ألف نسمة فقط بحلول عام ١٦٠٥ م .

بينما انخفض العدد في بيرو من سبعة ملايين نسمة إلى ١,٨ مليون نسمة في عام ١٥٨٠ م .

مع مصادرة الأراضي لمنفعة الإسبان خاصّة ، باستثناء الأراضي الموقوفة للكنيسة . وفي الفيليبين : رفض المسلمون عام ١٥٧١ م التّصير على يد المستعمرين الإسبان ، فسَمّى الحاكم الإسباني (ليكاسي) المسلمين (الموروس) أو (الموركسيون) ، أي المسلمون الذين رفضوا التّصير في إسبانية بعد سقوط غرناطة ١٤٩٢ م ، فأقام محاكم التّفّيش ، وتتبّع المسلمين لتّصيرهم .

وفي عام ١٥٩٥ م استرقّ المسلمون لأنّهم مسلمون ، وهُدِمَت المساجد .

وفي عام ١٩٠٠ م اشترت أمريكا الفيليبين من الإسبان بمئتي مليون دولار ، ورافق ذلك تنصير وإكراه ، فدام القتال بين المسلمين والمستعمر الجديد ٣٨ عاماً ، استخدمت أمريكا في حربها ضدّ المسلمين الجرائم ، فمات مئات الألوف .

والجدير بالذّكر أنّ الإسبان فرضوا على البلدان المستعمَرة في الأمريكتين تكاليف الاستعمار ، شأنهم في ذلك شأن البرتغاليّين في الهند ، وغيرهم من الأوروبيّين الآخرين في استعمار إفريقيا .

(١) ما الذي تغيّر في الحضارة الغربيّة الاستراتيجية أم التكتيك ؟ موسى الزعبي ، ص : ٦٤ ، دار الشاوي ، دمشق .

وقبل أن نورد شهادات منصفة ، من قلم علماء كبار ، رفضوا البهتان والكذب ، نذكر أن يوحنا ملك إنكلترا عرض على محمد الناصر^(١) أن يحميه ضد البابا ، مقابل جزية سنوية ، واعتناق الإسلام هو وشعبه ، ولكن محمد الناصر رفض هذا العرض ، لأن أريحيته أبت عليه استغلال الضائقة السياسية الإنكليزية لحملهم على اعتناق الإسلام^(٢) .
ومن الشهادات المنصفة :

يقول (فانسان مونتيه)^(٣) : « من أسباب إسلامي ، تسامح الإسلام تجاه أبناء الأديان الأخرى ، وعلى العكس كما يقول سوليناك Soliynac : داء الجهاد العصبي المسيحي » .

وروبرتسون يقول : « إن أتباع محمد [ﷺ] هم الأمة الوحيدة التي جمعت بين التحمس في الدين والتسامح فيه ، أي إنها مع تمسكها بدينها لم تعرف إكراه غيرها على قبوله »^(٤) .

أما غوستاف لوبون فيقول : « إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن ، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام ، واتخذوا العربية لغة لهم ، فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين ، مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل .

ولم ينتشر الإسلام بالسيف ، بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقت الإسلام الشعوب^(٥) .

(١) محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحد ، الناصر لدين الله (ت ١٢١٣ م) ، من سلاطين دولة الموحدين ، كان له المغرب الأقصى وتونس والأندلس ، (الأعلام : ١٤٥/٧) .

(٢) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، يوسف أشباخ : ١٥٢/٢ .

(٣) أستاذ اللغة العربية والتاريخ الإسلامي بجامعة باريس ، ثم أصبح رئيس مؤسسة الدراسات الإسلامية في مدينة (داکار) ، وهو مؤلف كتاب : الإرهاب الصهيوني ، وكتاب الإسلام في إفريقيا السوداء ، وكتاب : مفاتيح الفكر العربي .

(٤) حاضر العالم الإسلامي : ١٠٤/١ .

(٥) حضارة العرب ، ص : ١٦٢ .

والكونت (هنري دي كاستري) في كتابه : الإسلام خواطر وسوانح ، بعد وصفه الفتوحات الإسلامية ، وانتشار الإسلام بين الشعوب ، وصف المسلمين بقوله : « فلم يقتلوا أمة أبَت الإسلام »^(١) .

أما المستشرقة الإيطالية (لورا فيشيا فاغليري) فتقول عن شعوب البلدان التي فتحها المسلمون : « مُنَحَت تلك الشعوب حرّية الاحتفاظ بأديانها القديمة .. فليس من الغلو أن نصرَّ على أنَّ الإسلام لم يكتفِ بالدَّعوة إلى التسامح الدِّيني ، بل تجاوز ذلك ليجعل التسامح جزءاً من شريعته الدِّينية »^(٢) .

لما سبق ، يقول (فردريك نيتشه)^(٣) : « حارب الصّليبيّون شيئاً كان الأجدر بهم أن ينبطحوا بذلّ أمامه ، حضارة يمكن لقرننا التاسع عشر أن يعتقد أنّه فقير جداً ، ومتأخّر جداً ، بالمقارنة معها »^(٤) .

« إنَّ تاريخ الكنيسة يحمل صفحات حمراء دامية في أمريكا وإفريقية وآسية وأوربة »^(٥) .

ويقول (نيتشه) عن المبشرين ورجال الكهنوت المسيحيّين : « لا يخطئون فقط في كلّ جملة يقولونها ، بل يكذبون ، أي إنهم لم يعودوا أحراراً في أن يكذبوا ببراءة وبسبب الجهل »^(٦) .

تسامح الإسلام معروف قديماً وحديثاً :

-
- (١) ص : ٣٥ ، ترجمة أحمد فتحي زغلول .
 - (٢) دفاع عن الإسلام ، ص : ٣٤ و ٣٥ .
 - (٣) فردريك نيتشه Nietzsche : (١٨٤٤ - ١٩٠٠) فيلسوف ألماني ، قال : إنَّ الإنسان الأعلى هدف يجب الوصول إليه .
 - (٤) عدو المسيح ، لنيتشه ، الفقرة : ٦٠ .
 - (٥) المرجع السابق ، الفقرة : ٣٦ .
 - (٦) المرجع السابق ، الفقرة : ٢٨ .

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦/٢] .

﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾
[النحل : ١٢٥/١٦] .

﴿ أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩/١٠] .

وتعصّب المسيحية معروف قديماً منذ أيام قسطنطين ، وحديثاً في تبشيرهم الذي رافق الكشف الجغرافية ، والاستعمار الأوربي ، مروراً بالحروب الصليبية ، ومحام التفتيش ، وحتى يومنا الحاضر ^(١) .

ولكنه الإسقاط - رمتي بدائها وانسلت - مكرأ وخداعاً ، كذباً وتشويهاً .

ونذكر بأن سلطة الإسلام السياسية تلاشت ، وعلى الرغم من كل الجهود والأموال التي تقدّمها الكنيسة لتنصير المسلمين ، فالإسلام هو الدين الأول انتشاراً في العالم اليوم ، وإننا نقول : لانظن أن المؤثرات التي تحرّكها القاتيكان قادرة على صد الإسلام عن الانتشار في أوربة ذاتها ، فضلاً عن بقاع العالم الأخرى .

وبعد .. إنّ الدماء التي سفكت في أوربة لنشر المسيحية أيام شارلمان ، مع التي سفكت في إفريقية ، وآسية ، وأمريكة شامها وجنوبها ، أغزر بكثير ، وبما لا يقارن مع الدماء التي سفكت في الفتح الإسلامي ^(٢) .

والدّماء التي سفكت من قبل الأوربيين ، سفكت لفرض عقيدة قهراً ، والدّماء التي سفكت في الفتح الإسلامي ، سفكت لتحقيق ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ .

وشتان بين الموقفين .

(١) نكتفي بهذا القدر الموجز ، لأن كتابنا (تحرير لاستعمار) أعطى الموضوع جُلَّ حقه .

(٢) باعتراف المستشرق الألماني (روديفر براون) ، انظر كتاب : الحوار داء الحوار مع مستشرق ، طبع دار الفكر ١٩٩٤ .

نشر الإسلام الرقيق وشجع عليه

قال كارل بروكلمان : « ولم يتعرّض محمد لنظام الرقيق بأكثر مما تعرّضت الكنيسة المسيحية الأولى لهذا الأساس الذي قامت عليه الحياة الاقتصادية عند القدماء » ^(١) .
ويعيب وليم مور على الإسلام أنّه لم يبلغ الرّق ، فالرّق « معضلة إسلامية » ^(٢) .

قال أعداء الإسلام - عن تعصّب أو جهل ، أو كليهما معاً - إنّ الإسلام نشر الرقيق وشجع عليه ، وعكس ذلك تماماً هو الصحيح ، إنهم مهرة في قلب الأمور رأساً على عقب ، وخذق في تصوير الباطل حقاً ، والجريمة إحساناً ، إنّهُ (الإسقاط) ، والدليل على ذلك التالي :

كان الرقيق معترفاً به قبل الإسلام عند العرب وغيرهم ، وكان من الأمور الطبيعية والعادية ، وكان الرقيق يشكّل جزءاً من ثروات عدد كبير من الأغنياء ، ومصادره متعدّدة ، أهمها من أسرى الحروب ، ومن أسواق النخاسة ، أي بالشراء ، وجاء الإسلام فلم يشرّع تحريم الرّق مباشرة لعدّة أمور ، أهمها : أنّ إعتاق الآلاف من الرقيق الفقراء مباشرة ، يهدّد حياتهم بالخطر والموت ، كما يهدد المجتمع بهزّة اقتصادية واجتماعية خطيرة ، لذلك .. رسم الإسلام الطريق السليم لتحرير الأرقاء تدريجياً ، واعتبر الرّق أمراً

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص : ٨١ .

(٢) انظر (حقوق الإنسان) للشيخ محمد الغزالي ، ص : ١٢٤ .

عارضاً ، فشجّع بمختلف وسائل التشجيع على تحرير رقاب الرقيق ، حيث جعل تحريرهم من أكبر وأعظم ما يتقرّب به الإنسان إلى ربّه ، وفتح أبواب الإعناق ، ووضع الخطة التي تؤوّل إلى تحرير جميع الأرقاء ، وأمر خلال هذه المرحلة أن يعامل الرقيق أحسن معاملة ، أي كأفراد الأسرة لباساً وطعاماً ومعاملة .

هذا .. وليس في القرآن الكريم آية واحدة تحتّ على الرّق أو تخصّ عليه ، وكذلك الحديث النبوي الشريف .

لقد حرّم الإسلام الرّقّ جميعاً ، ولم يبيح منه إلا ما هو مباح إلى يومنا هذا^(١) ، وفحوى ذلك أنّه قد صنع خيراً ما يطلب منه أن يصنع ، وأنّ الأمم الإنسانية لم تأتِ بجديد في هذه المسألة بعد الذي تقدّم به الإسلام قبل ألف وثيّف وأربعمئة عام^(٢) .

وضع الإسلام مبدأين مهمّين لإلغاء الرّقّ هما : تضييق المدخل ، وتوسيع المخرج ، أو ضيّق موارده ، وأفسح مصارفه ، أو يمكن القول : إنّهُ سدّ منابع الرّقّ ، ووسّع مصارف العتق .

جاء الإسلام وللرّق وسائل أو مداخل كثيرة ، كالبيع ، والمقامرة ، والنهب ، والسطو ، ووفاء الدّين ، والحروب ، والقرصنة .. فألغى جميع هذه المداخل ، ولم يُبق منها إلا مدخلاً واحداً ، وقد ضيّقه حتّى لم يعد ينفذ منه إلى الرّق إلا القليل النادر أشدّ الندرة ، وذلك المدخل هو الجهاد في سبيل الله لردّ اعتداء يقوم به غير المسلمين .. فلا استرقاق إلا في حرب شرعيّة ، مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم ، « فالَّذي أباحه الإسلام من الرّقّ ، مباح في أُمم الحضارة التي تعاهدت على منع الرّقّ من القرن الثامن عشر إلى الآن .. لأنّ هذه الأمم التي اتّفقت على معاهدات الرّقّ ، تبيح الأسر واستبقاء الأسرى ، أو التعويض عنهم بالفداء والغرامة .. » .

(١) من الحرب فقط ، وذلك (معاملة بالمثل) ، لقد كان غير المسلمين يستحلّون استرقاق المسلمين ، فكان لا بد أن يعاملهم المسلمون بالمثل .

(٢) حقائق الإسلام ، ص : ٢١٨ و ٢١٩ .

« وهذا هو كلُّ ما أباحه الإسلام من الرِّقِّ أو من الأسر على التعبير الصَّحيح » ^(١) ،
ناهيك عن توسيع المخرج ، أو توسيع المصارف . عندما فتح الأبواب ليعيد الحرِّيَّة إلى
الرَّقِيق ، بالعتق (تحرير الرِّقاب) ، وبالمُكَاتَبَةِ ^(٢) ، الَّتِي يلتزم السَّيِّدُ فيها بالقبول ،
وبمساعدة العبد على الوفاء بما التزم .

يقول المرحوم العقَّاد : « إِنَّ مسألة الرِّقِّ تصلح للدَّعاية الواسعة بين النّاشئة
الإسلاميَّة والأُمم الإفريقيَّة التي تتحرَّر من قيودها ، وتتألَّس سبيلها إلى عقيدة مُثلى ،
وحضارة تصلح لها ، وتخطبها بما يقنعها ، ولكنَّها دعاية للإسلام وليست بالدَّعاية التي
يحارب بها الإسلام .. فإذا انعكست الآيَة ، وذهب بها سماسة الماديَّة والتَّبشير مذهب
الحملة الشَّعواء على الإسلام ، بسمع المسلمين ومشهدهم ، فن ذا يلام على ذلك غير أولئك
المسلمين » ^(٣) .

« لقد ظلَّ صوت الإسلام يزجر حتَّى استجاب له العالم بعد عدَّة قرون من
تشريعه الحكيم ، وإنَّ زوال الرِّقِّ هو إحدى الهدايا التي قدَّمها الإسلام للإنسانيَّة » ^(٤) .

وإذا أردنا أن نعرف الحقيقة ، ونعلم مَنْ نشر الرَّقِيق وشجَّع عليه ، فلنعد إلى
تاريخ أوربة في مختلف عصورها ، حتَّى في عصر ماتسميه النّهضة ، حين حدثت
الكشوف الجغرافيَّة ، والمراسيم البابويَّة الصادرة بشأن الاسترقاق ، إنَّها أوسمة من الخزي
والعار على جبين الأوربيِّين ، من برتغاليِّين وإسبان وإنكليز وفرنسيِّين وهولنديِّين ..
وما فعله هؤلاء - بتشجيع ملوكهم ، ومباركة كنيستهم ورجالها - مع شعوب إفريقية

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، ص : ٢١٩ .

(٢) المكاتبَة : عقد بين السَّيِّد والعبد لإعادة الحرِّيَّة نظير دفعه مالاً لسَيِّده ، ويرى بعض الفقهاء أنَّ المكاتبَة
واجبة ، وبعدها يُعطى العبد حقَّ التَّجارة والعمل ، وحقَّ التَّملُّك ، وحقَّ العمل لنفسه ، بل يتحرَّر
لكسب سداد الأقساط الَّتِي تسمَّى (نجومًا) .

(٣) ما يُقال عن الإسلام ، ص : ١٩٤ .

(٤) مقارنة الأديان : ٢٢٢/٣ .

يندى له الجبين خجلاً وحياءً ، ولا يتصوّر إنسان ما فعله أولئك لاسترقاق أبناء القارّة الإفريقيّة ، وكتاب الجذور (The Roots) ، الذي وضعه الكاتب الزنجي (إليكس هيلي Alex Haley) صورة صادقة وأمينّة لما فعله نخاسو أوربة في تلك الحقبة من التاريخ ، وليت أحفاد أولئك خجلوا ممّا فعل أجدادهم ، لكنّهم تعلّموا فنوناً جديدة في استرقاق الشعوب ، فبعد أن كان الرّق عند أجدادهم بشكل فردي ، ويشمل جماعات محدودة ، جعله أحفادهم على نطاق واسع ، فاسترقّوا الشعوب الضّعيفة ، وفعلوا بأبنائها الأفاعيل ، فما فعلته فرنسة في الجزائر ، وبريطانية في الهند ، وإيطالية في ليبيا ، وهولندة في أندونيسية .. وما تمارسه أمريكة اليوم بعصا غطرسها وهينتها وقوّتها في العالم ، صفحات من التاريخ الأسود غير المشرف .

لقد رأت المسيحيّة منذ سنيها الأولى أنّ الأرواح المؤمنة بيسوع تتساوى في مملكته السماويّة ، أمّا الجسد فقد خلّق لهذه الدّنيا ، وعليه أن يخضع لكلّ ذي سلطان عليه ، وأن يتحمّل ما يلقي من ألم وعذاب كما تحمّل جسد المسيح ، « وبهذا التّفريق استطاعت المسيحيّة أن تجمع بين النّقيضين ، فخصّت المساواة بالروح ورفعتها عن مستوى الأرض ، وجعلت النّاس متساوين أمام الله ، وخصّت الخضوع بالجسد ، ودعت إلى الصّبر والتّسامح ليهون الخضوع على المؤمنين ، ومن أجل أن توفّق بين النّقيضين ، وتبرّر سلطة الحاكم على المحكومين ، اعتبرت السّلطة ترتيباً من الله ، يجب الخضوع لها خضوعاً مطلقاً ، فمن يقاومها يدينه الله لأنّها من أمره ، وهذا ما أعلنه القديس بولس في رسالته لأهل رومة : « لتخضع كلّ نفسٍ للسلّاطين الفائقة ، لأنّه ليس سلطان إلاّ من الله ، والسلّاطين الكائنة هي مرتبة من الله ، حتّى إنّ من يقاوم السلّطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيّدانون » ^(١) .

(١) رسالة بولس إلى أهل رومية : ١/١٣ و ٢ .

وعلى أساس هذا المبدأ القائم على الخضوع ، دعا هذا القديس العبيد إلى طاعة ساداتهم ، وحضهم على تسخير أجسادهم لخدمتهم والإخلاص لهم ، لا بالمظهر الذي يرضي الناس ، بل بالقلب الذي يرضي الله ، ونراه يخاطبهم بقوله : « أيها العبيد ، أطيعوا سادتكم حسب الجسد ، بخوف ورعدة ، في بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخدمة العين كمن يرضي الناس ، بل كعبيد للمسيح ، عاملين بمشيئة الله من القلب ، خادمين بنيّة صالحة كما للرّب ، ليس للنّاس »^(١) ، ويوصي القديس بطرس^(٢) العبيد ألاّ يقصّروا في إخلاصهم على الصّالحين الرّحماء من ساداتهم ، بل عليهم أن يخلصوا في خدمة القساة منهم ، وفي ذلك يقول : « كونوا خاضعين ، بكلّ هيبة ، ليس للصّالحين ، بل للعنفاء أيضاً »^(٣) .

وعلى مبدأ الخضوع المبني على ترتيب هو من أمر الله ، أقامت الكنيسة شرعيّة الرّق ، وتابّع آباء الكنيسة ، من بعد ، هذا المبدأ ، وساروا على نهجه ، فأباحوا الاسترقاق ، واستند القديس (سيريانوس)^(٤) ، والبابا (جريجوار الأكبر)^(٥) على أقوال القديسين بولس وبطرس ، وصرّحاً بضرورة الإبقاء على الرّق ، ونصح القديس (إيزيدوروس)^(٦) العبيد بأن لا يطمعوا في التّحرّر من الرّق ، ولو أرادوا سيادهم ، بل لا يسوغ للعبد أن يتشوّق إلى الحرّيّة ، فإنّه ببقائه على الرّق يحاسب يوم القيامة حساباً يسيراً ، لأنّه يكون قد خدم مولاه الذي في السّماء ، ومولاه الذي في الأرض ، ويمثّل ذلك نادى (بوسويه)^(٧) في مواعظه .

(١) رسالة بطرس إلى أهل أفسس : ٥/٦ - ٧ .

(٢) أحد حواربي المسيح وللقدم فيهم ، كان اسمه (سيمون) فسّمّه للمسيح (بطرساً) Pierre أي الحجر . قتله نيرون سنة ٦٤ م ، ودفنت رفاته في القاتيكان بروما .

(٣) رسالة بطرس الأولى : ١٨/٢ .

(٤) Cyprianus ولد في أوائل القرن الثالث للميلاد في مدينة قرطاجة ، من أكابر آباء الكنيسة .

(٥) Grégoire Le Grand (٤٥٠ - ٦٠٤ م) من أشهر باباوات رومة .

(٦) القديس Isédor : (٣٧٠ - ٤٥٠ م) اشتهر بسعة علمه ، ودوّن آراءه في ألفي رسالة .

(٧) Bossuet (١٦٢٧ - ١٧٠٤ م) من رجال الدّين والأدب في فرنسا ، اشتهر بمواعظه وخطبه .

وقد حاول القديس أوغسطين^(١) ، ومن بعده القديس توما الإكويني^(٢) التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية ، فذهبا إلى أن الله خصَّ بعض الناس بالرقِّ ليكونوا محكومين ، وخصَّ آخرين بالحرية ليكونوا حاكمين ، فالإنسانية جسم كبير ، وكلُّ فرد هو عضو منه ، له عمله ووظيفته ، وعليه أن يقوم بعمله ، ويؤدي وظيفته بأمانة وإخلاص ... »^(٣) .

وفي ١٤٥٥ م صدر مرسوم بابوي يقرّر سيادة النصارى على الكفار ، وأقرَّ هذا المرسوم استرقاق الزنوج والهنود الحمر ، وصاحبه لعدة قرون دعاية واسعة أشرفت عليها الكنيسة والأوساط المسيحية ، مفادها أن الاسترقاق هو سبيل خلاص الرقيق الذين غضب الله عليهم ، فالرقِّ في التَّصوُّر المسيحي لعنة من الله ، وبدخولهم في الرقِّ يدخلون مملكة الله ، وأفهمت أوربة النصرانية الرقيق أن الرقَّ خلاص لأرواحهم فقط ، أمَّا أجسادهم فتبقى في الرقِّ ، وهذه الدَّعاية الواسعة التي أشرفت عليها الكنيسة ، استندت إلى أقوال الباباوات والقديسين ، وإلى إنجيل متى : ٢٩/٢٥ : « لأنَّ كلَّ من له يُعطى فيزداد ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه ، والعبد البطال اطرحوه إلى الظلمة الخارجية ، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان » .

فالمرسوم البابوي الصَّادر سنة ١٤٥٥ م ، اعتبر غير النصارى كفَّاراً ينبغي إزلالهم واسترقاقهم ، وبهذه الرُّوح عامل الأوربيون الأفارقة والهنود الحمر ، وبهذه النظرة ، نظرة السيّد للعبد ، جرى قنص الأفارقة باسم المسيح ، وتمَّ نقلهم وبيعهم في أوربة

(١) Augustin : (٣٥٤ - ٤٣٠ م) أسقف إفريقية ، تبع هواه في شبابه واعتنق مذهب ماني ، ثمَّ ارتدَّ بفضل أمّه مونيكا والقديس امبروسوس ، أشهر آباء الكنيسة الغربية ، خطيب ولاهوتي وفيلسوف وكاتب .

(٢) St. Thomas d Aquin : (١٢٢٥ - ١٢٧٤ م) حجّة الكنيسة في اللاهوت والفلسفة المدرسيّة .

(٣) انظر (الرقُّ ماضيه وحاضره) د . عبد السلام الترماني ، ص : ٣٠ - ٣٢ .

وأمریکة ، وعلى الرّغم من تعميدهم وإدخالهم في المسيحيّة غضباً وإكراهاً ، فإنّ عبوديّتهم ظلّت قائمة^(١) .

مهّد البرتغاليّون منذ أوائل القرن السّادس عشر الطّريق لنقل ألوف من بني البشر المسترقّين من إفريقية إلى أمريكا .

اقتناص العبيد والاتّجار بهم :

وصلت طلائع هذه التّجارة من العبيد الأفارقة إلى جزر الهند الغربيّة سنة ١٥٠١ م ، أي بعد تسع سنوات فقط ، على أوّل رحلة قام بها كولومبس . ونتيجة ارتفاع الطّلب عليهم من قبل المستعمرين الإسبان والبرتغاليّين للعمل في مزارع السّكر ، بدأ العرش الإسباني يبيع الإجازات (Asientos) للحصول على العبيد من إفريقية ، ويبيعهم في أمريكا ، وفي عام ١٥٩٢ م دفع شخص يدعى (غومز رينال) قرابة مليون دوقّة ، مقابل منحه إجازة تسمح له شحن ٤٥٠٠ من العبيد كل عام ، ولمدّة تسع سنوات ، أي مقابل عدد إجمالي يصل إلى ٢٨٢٥٠ من العبيد .

أما العدد الذي استقرّ به المقام في الأمريكتين فما زال موضع جدل بين المؤرّخين وآخر الدّراسات تقول : إنّ العدد الإجمالي يصل إلى ١٢ مليون من العبيد ، ولما كانت أهوال الرّحلة وخسائرها تساوي تقريباً أربعة أضعاف العدد الذي تمّ أسره بالأصل في قلب إفريقية ، أو أربعة أضعاف العدد الذي وصل إلى الأمريكتين ، فإنّ العدد الإجمالي يقفز إلى ٤٨ مليون نسمة ، اقتتلعوا جميعاً من إفريقية كالطّرائد الوحشيّة ، وكلهم تقريباً في ريعان طاقاتهم الإنتاجيّة .

وارتفعت الخسائر والوفيات في صفوف العبيد إلى ٣٦ مليون إصابة عند القنص

(١) الاستعمار والتّصير في إفريقية السّوداء ، عبد العزيز الكحلوت ، ص : ٤٩ وما بعدها .

والمسير إلى الساحل مع الانتظار الطويل في المحطات وبالحدس التوحشي والحرارة الحارقة والغذاء الرديء خلال عبورهم المحيط إلى أمريكا .

أما وجبة الغذاء (المثالية) الوحيدة في كل أربع وعشرين ساعة ، فقد تألفت من الذرة والماء ، وكان هؤلاء الزوج يتعرضون للجلد والكي بقضبان الحديد الملتهبة إذا رفضوا تناول الطعام لإجبارهم على الأكل أيضاً ، وتفشت الأوبئة في ظل تلك الظروف الوحشية الصعبة ، وكان يلقى بالمرضى منهم في مياه البحر ، وهم أحياء خوفاً من انتقال العدوى ، وفي بعض الأحيان ، كان هؤلاء الزوج يعمدون إلى الانتحار الجماعي يالقاء أنفسهم من السفينة للخلاص من تعرضهم لهذه التعاسات والآلام التي كانوا يقاسونها ، ثم أصبح ذلك الإجراء في غاية الشيوع ، مما استدعى تثبيت الشباك حول جسم السفينة الخشبي منعاً للإقدام على الانتحار^(١) .

لقد استمر الاتجار بالإنسان والعبودية القذرة أربعة قرون^(٢) .

وأول حملة إنكليزية نقلت الألوف من الرقيق من (غينية) إلى المستعمرات الإسبانية كانت في سنة ١٥٦٢ م برئاسة النحاس الشهير (جون هوكنز) ، وذلك أيام الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنكلترا ، وحامية حمى المسيحيين ، ومن السفن التي استعملها هذا النحاس لنقل الرقيق ثلاث ، اسم إحداها (سليمان) ، والثانية (يسوع) ، والثالثة (يوحنا المعمدان) ، وفي تلك إشارة إلى أن عملهم إذ ذاك عمل مبرور^(٣) .

(١) ما ألذي تغير في الحضارة الغربية .. ص : ٨٢ .

(٢) كان أهم المراكز لتجميع الرقيق جزيرة (جوريه) الواقعة على مرمى البصر من (داكار) عاصمة السنغال وما زالت قائمة فيها تلك الدور التي كان يجمع فيها العبيد وهم مقيّدون في سلاسل مثبتة في جدران الغرف التي كان يكدس فيها العبيد وقد رُصّ بعضهم إلى بعض .

(٣) الهلال والصليب ، ص : ١٣٨ .

وفي عام ١٧٠١ م أُجبرت فرنسا إسبانية على التنازل لها عن حق نقل الرقيق ، وبذلك أسست فرنسا الشركة المعروفة بالجمعية الفرنسية الغينية .

وفي عام ١٧١٣ م انتقل مركز التجارة العظيمة - تجارة الرقيق - من قطر مسيحي إلى آخر ، فقد اغتصبت إنكلترة من فرنسا حق احتكار نقل الرقيق إلى أمريكا ، واستطاعت إنكلترة بمضي الزمن أن تحفظ لرعاياها حق إمداد الناس بما يريدون من الرقيق ، وافتخرت جلالة الملكة (حنا) في خطاب ألقته على البرلمان الإنكليزي بأنها نجحت في الحصول على سوق عظيمة لتجارة الرقيق ، ينتفع بها رعاياهم وحدهم ^(١) .

كل ذلك وتبكيك الضمير مفقود ، وسببه : « أنه لا يحسن بنا أن ننسى أن أولئك العبيد قد أدخلوا إلى ديننا المعزي » ^(٢) ، لقد منوا على العبيد باعتراف المسيحية ، وهذا يكفي ، فهي دين العزاء والسّلوى .!

« فلله در المسيحية وما أنبغت ، إنه من السهل على أهلها أن يلتسوا الحجة إذا أعوزتهم الضرورة إليها ، ولو كان العذر في ذاته أقبح من الذنب » ^(٣) ، ولذلك قيل : « اتجه المستعمرون إلى استعباد جسد الإفريقي ، أما المنصرون فقد استهدفوا روحه » ^(٤) .

وحين حطّ المستعمرون في إفريقية بادروا ببناء الكنائس الجميلة ، وصوّر المسيح زنجياً ، والعذراء زنجية ، بلامح إفريقية محلية ، ونحت تماثيل للعذراء أو المسيح باللون الأسود ، وبالملامح الزنجية ، وكان المنصرون يمثلون طلائع الاستعمار وعيونه وقواه الخفية والمرئية .. فحين يقيم المنصرون الكنائس الجميلة وسط الحدائق الخضراء المحاطة

(١) الهلال والصليب ، ص : ١٣٩ .

(٢) القول للمسيو (والون) في كتابه (الرق عند الأقدمين) ، انظر : الهلال والصليب ، ص : ١٤٥ .

(٣) الهلال والصليب ، ص : ١٤٥ .

(٤) الاستعمار والتّصير .. عن : Cristianity in Africa Missionaries and Change Published

بالأشجار الباسقة ، فإنهم لا يقصدون بذلك خدمة الرب ، وإنما خدمة القوى الاستعمارية .

يقول توماس هودجكين Thomas Hodgkin : لوأنّ مواطناً من تمبوكتو زار أوكسفورد في القرن الرابع عشر ، لشعر وكأنّه في بلده على الرّغم من الاختلاف في المناخين الفكريين الإسلامي والمسيحي ، ولو زارها في القرن السادس عشر لوجد عدّة تقاطع مشتركة بين جامعتي المدينتين ، وبحلول القرن التاسع عشر تتّسع الهوة وتزداد عمقاً بينهما .

لقد اتّهم الأوربيّون إفريقية بالتّوحش وسفك الدّماء والتّخلف ، في العصور الحديثة ، ولم يكن هذا الاتّهام إلّا محاولة أوربيّة لتوفير الأساس المنطقي ، شعورياً أو لا شعورياً ، لتبرير الاسترقاق للملايين الإفريقيّين ، وتنفيذ المشروع التبشيري ، لتنصير (البرابرة الملحدين وتمدينهم) وتقسيم إفريقية إلى عشرات المستعمرات ، واستغلال الطّاقات البشريّة والموارد الطّبيعيّة فيها لكن العبارة التي كتبها مؤرّخ بريطاني معاصر ، المبيّنة أعلاه تفضح زيف هذه المدرسة الفكريّة ، مدرسة (أنهار الدّماء وجبال الجماجم)^(١) .

والحديث عن الاسترقاق باسم المسيح يطول ، وعن القنص الآدمي باسم بولس بطرس يطول ، وما خلا التّاريخ من أوربيّ منصف متحرّر جريء ، ليصف معاملة الإسلام للرّقيق ، قال (فان دنبرغ) : « لقد وُضعت للرّقيق في الإسلام قواعد كثيرة تدلّ على ما كان ينطوي عليه محمد [ﷺ] وأتباعه من الشّعور الإنسانيّ النبيل ، ففيها

(١) ماألذي تعيّر في الحضارة الغربيّة .. ص : ٧٥ .

نجد من محامد الإسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التي كانت تتخذها إلى عهد قريب^(١) شعوب تدّعي أنها تسير في طليعة الحضارة^(٢) .

الإسلام دين العتق لا الرّق .

والمسيحية دين : « أيّها العبيد ، أطيعوا سادتكم حسب الجسد ، بخوف ورعدة .. » وفيها كما جاء في إنجيل لوقا : ٤٧/١٢ : « أمّا ذلك العبد الذي^(٣) يعلم إرادة سيّده ولا يستعد ولا يفعل بحسب إرادته فيضرب كثيراً » ، وفي الإسلام : من يضرب عبده أو يلطمه فلا تكفير لذنبه حتّى تُحرّر رقبته ، مع وصيّة سابقة على لسان رسول الله ﷺ : « أطعموا الرقيق ممّا تطعمون ، وألبسوه ممّا تلبسون ، ولا تكلفوه ما لا يطيق » .

وفي الإسلام : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ .. ﴾ [التوبة : ٦٠/٩] أي في تحرير رقاب الأرقاء ، وذلك بشرائهم وعتقهم : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ [النور : ٣٣/٢٤] ، أي الذين يطلبون المكاتبَة لتحرير أنفسهم من الرّقّ بدفع مبلغ من المال : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ ﴾ وأعينوهم على حرّيتهم ﴿ وَآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ .

بينما المتصفحّ للأناجيل - والتّوراة أيضاً - لن يجد فيها آية أو عبارة واحدة يكون المراد منها استنكار الرّقّ ، يقول باتريس لاروك في كتابه عن (الرّق في النّصرانيّة) في

(١) منعت الدانمارك تجارة الرقيق سنة ١٧٩٢ م ، وألغت هولندة والسويد تجارة الرقيق سنة ١٨١٤ م ، ثمّ تبعتها بقيّة الدّول .

(٢) تاريخ الإسلام : ١٩١/١ .

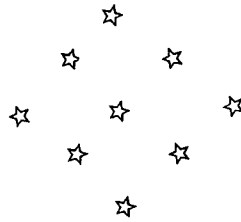
(٣) (الذي) اسم الموصول المستعمل للعبد هنا ، فهو الذي تقوله الإنكليز للحيوان أو الجماد ، لغير العاقل !!!

الصَّفحة السَّادسة : « إنَّكَ لا تجد في الإنجيل إشارة من بولص أو بطرس ، وهما عمدة
المفسِّرين للإنجيل ، يَحْتِثَان فيها السَّادة على تحرير الأرقَّاء » .

وبضدِّها تتميَّز الأشياء ؟!! .

إنَّ ما جاء في الأنجيل ، وما وعاه التَّاريخ من أخبار الكنيسة وقدَّسيها ، لم
يزدنا إلا اعتقاداً بأنَّها لم تعمل عملاً في سبيل تحرير الرِّقاب ، لذلك لم نعجب من
أولئك المسيحيِّين الذين ألفوا تجارة الرِّقيق الرَّابحة ، فلما وجدوا أنَّها كسدت في أوربة
نزلوا على إفريقية ، فباعوا في أهلها واشتروا أحقاباً طويلة .

إنَّه (الإسقاط) ، رمتني بدائها وانسلَّت .





نظام الطبقات في الإسلام

أخذ المبشرون آيتين من القرآن الكريم ، وزعموا أنَّ الإسلام يعترف بنظام الطبقات :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ .. ﴾ [النحل : ٧١/١٦] .

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف : ٣٢/٤٣] .

وقبل أن نوضح المعنى المراد من هاتين الآيتين الكريميتين ، نقول : عرفت أوربة العصور الوسطى نظام الطبقات في مجتمعا ، لقد انقسم المجتمع الأوربي إلى الطبقات التالية^(١) :

أ - طبقة النبلاء : أطلق السادة الإقطاعيون الإقليميون الذين استمدوا ألقابهم من الأرض التي امتلكوها ، على أنفسهم اسم (نبلاء السيِّف) ، وضمت هذه الطبقة شرائح متحاسدة ، أعلاها شريحة ذرية الملك الذي يترع على سدة الحكم وأولاد إخوته وأخواته ، ويولي هؤلاء في المنزلة ، شريحة تضم الأمراء من أبناء الملوك السابقين ، ثم يأتي بعد ذلك (الأدواق)^(٢) ، ثم الحاصلون على لقب (مركيز) ، ثم لقب (كونت) ، ثم

(١) قصة الحضارة : ٦/٣٦ .

(٢) مفردها (دوق) .

لقب (فيكونت) ، ولقب (بارون) ، و (شيفالييه) ، أي : نبيل من الدرجة الدنيا ، وكانت ثمة امتيازات رسمية تميّز هذه السلسلة من المراتب بعضها عن بعض ..

٢- رجال الدين : كانت طبقة رجال الدين (الإكليروس) الأعلى مرتبة ، ويشكّل أفرادها من الوجهة العملية فرعاً من النبلاء ، وكانت لهم (العشر) ، أي عشر إنتاج كلّ مالك أرض وماشية ، بالإضافة إلى الهبات والوصايا ، ودخل العقارات الثّابتة .

لقد كانت الكنيسة في المقام التّالي بعد الملك وحاشيته مباشرة ، وكانت الأقوى والأغنى ، وعلى الرّغم من ذلك لا تدفع أي ضريبة عن شيء من ممتلكاتها أو دخلها .

٣- العامّة (سواد الشعب) : وتضمّ هذه الطبقة الشرائح التّالية :

الفلاحون : الذين خضعوا للرّسوم الإقطاعيّة ، والعشور الكنسيّة ، وهم (أقنان الأرض) ، لم يكونوا يستطيعون أن يهجروا أرضهم ، أو يبيعوها ، أو ينقلوها أو يغيّروا محالّ إقامتهم دون موافقة سيّدهم .

« وكان على الفلاح بعد دفع الرّسوم الإقطاعيّة وعشور الكنيسة ، أن يجد مالاً ، أو يبيع شيئاً من نتاجه ، أو ممتلكاته ، ليواجه الضّرائب التي تفرضها عليه الدّولة ، ودفع الفلاح وحده ضريبة الأراضي ، وبالإضافة إلى ذلك دفع ضريبة الملح ، و٥% من الدّخل ضريبة الرّأس عن كلّ فرد في البيت ، وبهذا كان يدفع في الجملة ثلث دخله للمالك والكنيسة والدّولة ، وكان من سلطة جباة الضّرائب أن يدخلوا أو يقتحموا كوخه ليفتّشوا عن المدّخرات المخبّأة ، ويستولوا على الأثاث ، تسديداً لمبلغ الضّريبة المفروضة على الأسرة ، وكما كان الفلاح ملزماً بالعمل ودفع الرّسوم لسيّده ، كان ملزماً بأن يعمل للدّولة دون أجر من ١٢ إلى ١٥ يوماً في السّنة في إقامة الجسور ، وبناء الطّرق أو إصلاحها (أعمال السّخرة) ، وكان يُعاقب بالسّجن إذا قاوم أو تواني »^(١) .

(١) قصّة الحضارة : ٢٠/٣٦ .

وكان (خدم المنازل) أدنى مكانة من الفلاحين في السُّلَم الاجتماعي ، وكانوا فقراء إلى حدٍّ لم يهَيِّئ إلاَّ القليل منهم أن يتزوَّجوا .

وكانت (الطبقة العماليَّة) في المدن أعلى قليلاً من شريحة الفلاحين ، وكانت تشكِّل الحرفيَّين في الحوانيت والمصانع وحَمَّالي البضائع ومتعهدي الخدمات وعمَّال البناء أو التَّرميم ، وكان معظم الصَّناعة لا يزال منزلياً أو محلياً ، يقوم في أكواخ ريفيَّة ، أو في الدُّور في المدن الصَّغيرة ، وكان التُّجَّار يقدِّمون الموادَّ الخام ، ويحملون الإنتاج ، ويستولون على كلِّ الرِّبح تقريباً .

وكان عامل المياومة يبدأ عمله في الرَّابعة صباحاً ، وينتهي منه في الثَّامنة مساءً .

وفيما بين الشَّريحتين (الفلاحون الدُّنيا ، والعمَّال العليا ، في هذه الطبقة) ، قامت الشَّريحة الوسطى . تضرَّع لها أولاًها البغض والكراهية ، وتزدرئها الثَّانية ، وكانت تضمُّ الأطبَّاء ، والأساتذة ، ورجال الإدارة ، وأصحاب المصانع والتُّجَّار ، ورجال المال ، وهذه الشَّريحة الوسطى شقَّت طريقها إلى الثَّروة والنُّفوذ والسُّلطة في حذق ومهارة وصبر وجلد ..

واغتاز التُّجَّار الذين يوزَّعون المنتجات من فرض المكوس والرُّسوم بين المقاطعات ، والتي تعوق حركة البضائع ، ذلك أنَّه عند كلِّ نهر أو قناة أو مفترق طرق ، كان هناك وكيل عن النَّبيل ، أو رجل الكنيسة مالك الأرض ، ليتقاضى رسماً على التَّرخيص بمرور البضائع .

طبقات متمايزة^(١) ، محدَّدة المعالم ، يختلف بعضها عن بعض ، بحيث لا يخطئ الإنسان معرفتها بمجرد النَّظر ، فرجال الدِّين (الإكليروس) لهم ثيابهم الخاصَّة التي تميِّزهم عن الطبقات الأخرى .

(١) كانت سبباً في قيام الثَّورة الفرنسيَّة في ١٤ تموز ١٧٨٩ م .

وكانت الطبقة العليا التي تملك المال ، تملك السلطان ، وبالتالي تملك وسائل التشريع ، فتأتي تشريعاتها لحماية نفسها ، ولإبقاء (العامة) خاضعة لسلطانها ، محرومة من كثير من الحقوق ، مرهقة بالضرائب ..

هذا واقع أوربة في القرون الوسطى تحت كنف الكنيسة ، أمّا الإسلام :

فالشرف لا يورث ، والثروة تتوزع بالوراثة بين جميع الأبناء ، على رأس كل جيل ، والتشريع - في الإسلام - ليس ملكاً لطبقة معينة ، لأن الشريعة سماوية ، منزلة لسعادة الجميع ، ولا محاباة فيها لأحد ، ولا ظلم لأحد ، وليس في وسع أحد أن يصنع لنفسه قانوناً يحمي به مصالحه على حساب شخص آخر .

ومعنى الآية المذكورة [النحل : ٧١/١٦] يثبت الأمر الواقع في أنحاء كرتنا الأرضية ، وهو أن الناس متفاوتون في المراتب والأرزاق ، والتفضيل بالرزق يسبقه السعي والكد منذ الطفولة ، فرفعة الدرجات ليست حظاً أو مصادفة ، كما توضّح ذلك الآيات التالية :

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١/٥٨] .

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٢/٦] .

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴾

[الأحقاف : ١٩/٤٦] .

أمّا كلمة (سخرية) في الآية ٣٢ من [الزخرف] ، فليس معناها الاستهزاء والدونية والاحتقار ، وليس المقصود بالتسخير استعلاء طبقة على طبقة ، أو استعلاء فرد على فرد ، بل إنَّ البشر مسخَّر بعضهم لبعض ، ودولاب الحياة يدور بالجميع ، ويسخَّر بعضهم لبعض في كلِّ وضع ، وفي كلِّ ظرف ..

فالعامل مسخَّر للمهندس ، ومسخَّر لصاحب العمل .

والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل .
وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على السواء .

جاء في (صفوة التفسير : ١٥٦/٣) : ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا ﴾ أي ليكون كلٌّ منهم مسخرًا للآخر ، ويخدم بعضهم بعضاً ، لينتظم أمر الحياة ، قال الصّاوي ^(١) : إنّ القصد من جعل الناس متفاوتين في الرّزق ، لينتفع بعضهم ببعض ، ولو كانوا سواء في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحداً ، فيفضي إلى خراب العالم وفساد نظامه .

وقال أبو حيّان : وقوله تعالى ﴿ سَخِرِيًّا ﴾ بضمّ السين من التّسخير بمعنى الاستخدام ، لا من السّخرية بمعنى الهزاء ، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعض ، ويصلوا إلى منافعتهم ، ولو تولّى كل واحد جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك ^(٢) .

وكلُّ الخلق مسخّرون للخلافة في الأرض بهذا التفاوت في المواهب والاستعدادات ، والتّفاوت في الأعمال والأرزاق ^(٣) .

هذا ناموس الحياة ، سنّة ثابتة من سنن الحياة أن يكون الجميع مسخّرين لبعض دون استعلاء واحتقار ، وهذا ماعناه الإسلام في ﴿ سَخِرِيًّا ﴾ لا أكثر ولا أقل ، لقد آخى الإسلام بين حمزة سيد قريش وشريفها ، مع زيد المولى بعد الهجرة ، فأين الطبقات ؟

يقول عزّ وجلّ في محكم التّزيل :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠/١٧] ، فالتّكريم لكلّ إنسان لأنّه إنسان ، ثمّ

(١) حاشية الصّاوي : ٤٨/٤ .

(٢) تفسير البحر المحيط : ١٣/٨ .

(٣) تفسير الظّلال : ٣٣٠/٧ .

كان مقياس التفاضل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣/٤٩] .

ويقول ﷺ - كما روى مسلم في صحيحه - : « أَلْخَلَقَ كُلُّهُمْ عِيَالِ اللَّهِ ، وَأَحْبَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ » .

فالمجتمع هو وحدة متأسكة ، لا طبقات متمايزة فيه ، يمثلهم في تساويهم الاجتماعي والإنساني صفوفهم في الصلاة ، التي يقفون فيها دون أي تمييز أو تفاضل ، ويمثلهم تساويهم في الحج حتى في اللباس ، حيث لا يعرف الأمير من الأجير ، أو الرئيس من المرؤوس ، أو الغني من الفقير ، أو الضابط من الجندي العادي .

ويكفي أن نذكر هنا من أحداث التاريخ ، حادثة ابن عمرو بن العاص ، والقبطي ، قال أنس^(١) : كنّا عند عمر بن الخطاب إذ جاء رجل من أهل مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا مقام العائذ بك !

قال عمر : ومالك ؟

قال : أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل ، فأقبلت فرسي ، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو فقال : فرسي ورب الكعبة .

فلما دنا مني عرفته ، فقلت : فرسي ورب الكعبة .

فقام إليّ يضربني بالسوط ، ويقول : خذها وأنا ابن الأكرمين ، وبلغ ذلك عمرًا فخشي أن أتيك^(٢) ، فحبسني في السجن ، فانقلت منه ، وهذا حين أتيتك .

فوالله ما زاد عمر على أن قال له : اجلس ، ثم كتب إلى عمرو : إذا جاءك كتابي هذا فأقبل ، وأقبل معك بابنك محمد ، وقال للمصري : أقم حتى يأتيك .

(١) ابن الجوزي : ٨٦ ، مع زيادات من العقد الفريد لابن طلحة : ٥٩ .

(٢) ليقينه أن عدل الإسلام سوى بينهما ، وعمر سيعاقب ابن عمرو على فعلته وعلى قوله .

فدعا عمرو ابنه ، فقال : أأحدث حدثاً ؟ أجنيت جناية ؟

قال : لا ، قال عمرو : فما بال عمر يكتب فيك ؟

فقدم على عمر ، قال أنس : فوالله إنا عند عمر ، حتّى إذا نحن بعمرو وقد أقبل في إزار ورداء ، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه ، فإذا هو خلف أبيه ، فقال : أين المصري ؟

قال : ها أنا ذا .

قال : دونك الدرة ، فاضرب بها ابن الأكرمين ، فضربه حتّى أثخنه ، ونحن نشتهي أن يضربه ، فلم ينزع حتّى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ، ثم قال : أجلبها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك إلاّ بفضل سلطانه .

قال : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت ، يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربني .

قال عمر : أما والله لو ضربته ما خلنا بينك وبينه حتّى تكون أنت الذي تدعه ، أيا عمرو ! متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ فجعل يعتذر ويقول : إنني لم أشعر بهذا .

ثم التفت عمر إلى المصري فقال : انصرف راشداً ، فإن رابك ريب فاكتب إليّ .

وهكذا .. رفض الإسلام متمثلاً بعمر بن الخطّاب رضي الله عنه فكرة ابن الأكرمين ، وسوى بين ابن فاتح مصر ، وأحد عامّة الناس ، فأين الطبقات ؟ إنّه (الإسقاط) أولاً وأخيراً !.





في فتوح الإسلام الغنية هي الهدف !

تدّعي معظم كتابات المستشرقين ، أنّ الحالة الاقتصادية المتردّية للعرب ، وحبهم للغنائم ، كانت الدافع الرئيس لفتوحاتهم .

يقول يوليوس فلهاوزن^(١) : « ولم تكن الحكومة الإسلامية يهّمها سوى حمل الخراج إلى بيت المال على المقدار المفروض له ، الذمّيون بقرة ، الوالي يسكها من قرونها حتّى تسكن ، وعامل الخراج يجلبها »^(٢) .

« إنّ العرب شعب نشيط فعّال ، دفعته يد الجوع والحاجة إلى ترك صحاريه القاحلة ، واجتياح الأراضي الغنيّة المترفة »^(٣) .

« إنّنا لانستطيع أن ننكر أن ثروة الأكاسرة والقيصرة ، والأراضي الخصبة ، والمدن العامرة ، في الممالك المجاورة كانت عاملاً كبيراً في تحمّس المسلمين لنشر الإسلام »^(٤) .

(١) يوليوس فلهاوزن : عالم ألماني (١٨٤٤ - ١٩١٨) ، أستاذ اللاهوت في جامعة (جريفسفالد) .

(٢) تاريخ الدولة العربيّة ، ص : ٢٧ .

(٣) توماس أرنولد ، في كتابه : Preaching of Islam P.40

(٤) ستانلي لان بول في كتابه : Arabs in Spain P.43

« إِنَّ الحاجة الماديَّة هي التي دفعت معاشر البدو - وأكثر جيوش المسلمين منهم - إلى ما وراء تخوم البادية القفراء ، إلى مواطن الخصب في بلدان الشَّمال ، ولئن كانت الآخرة ، أو شوق البعض إلى بلوغ جنَّة النِّعم قد حَبَّب إليهم الوغى ، إِنَّ ابتغاء الكثيرين حياة الهناء والبذخ في أحضان المدنيَّة التي ازدهر بها الهلال الخصيب ، كان الدافع الذي حَبَّب لهم القتال »^(١) .

إنَّه (إسقاط) ينطبق على المسيحيَّة ، ولا يعرفه الإسلام .

لقد عاش العرب في باديتهم المقفرة مئات السَّنين ، وهم يعرفون الخيرات في الشَّمال ، فلماذا لم ينطلق أهل الحجاز إلى هذه المواقع الحصبة قبلاً ؟ وإذا قيل إنَّهم كانوا يخشون الفُرسَ والرُّومَ ، ثمَّ ضعف هؤلاء فخرجوا ، فإنَّ هذا مردود ، فقد بقي العرب يتهيَّبون الأكاسرة والقيصرة حتَّى كتب الله لهم النصر بالقادسيَّة واليرموك .

وقالت رسل المقوقس إليه عندما عادوا من عند عمرو بن العاص وجيشه ، أثناء حصار حصن بابلين^(٢) : رأينا قوماً الموت أحبَّ إليهم من الحياة ، والتَّواضع أحبَّ إليهم من الرِّفعة ، ليس لأحدٍ منهم في الدُّنيا رغبة ولا نَهمة ، جلوسهم على التُّراب ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعرَف كبيرهم من صغيرهم ، ولا السيِّد فيهم من العبد ..

وفي اليرموك^(٣) ، كم من منادٍ صاح قائلاً : من يبايع على الموت ، لا على الغنيمة ؟!

وفي معركة نهاوند^(٤) ، قال قائدها (النُّعمان بن مُقرِّن المزني) قبل بدئها :

(١) فيليب حتّي في كتابه : History of the Arabs, vol. I. P. 195

(٢) بابلين : منف أو منفيس ، حصن قديم في مصر على شواطئ النِّيل ، بالقرب من موقع القاهرة ، كان مرَّات عديدة عاصمة الفراعنة .

(٣) معركة اليرموك ١٢ هـ ، جنوبي حوران ، على نهر اليرموك .

(٤) نهاوند : مدينة في فارس ، جنوبي همدان ، انتصر فيها جيش المسلمين على جيش الفرس سنة ٦٤٢ م ، واستشهد فيها قائدها (النُّعمان بن مقرِّن المزني) .

« اللَّهُمَّ اعزِزْ دِينَكَ ، وانصر عبادك ، واجعل النُّعْمَانِ أَوَّلَ شهيد اليوم .. اللَّهُمَّ إِنِّي
أَسْأَلُكَ أَنْ تَقَرَّرَ عَيْنِي اليوم بفتح يكون فيه عزُّ الإسلام ، أَمُنُوا يرحمك الله » ، هذه
البطولة ، هل يسجلها قوم يبتغون مالاً وغنية ، أم تراهم كانوا يبتغون نشر عقيدة
وثوباً وشهادة ؟

وأرسل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء رسائل يدعوهم فيها إلى الإسلام ، على
أن تبقى لهم ممالكهم وما بين أيديهم ، فأين المطمع المالي هنا ؟

وكان المسلمون يُخَيَّرُونَ الشعوب بين ثلاث : الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب ،
فمن أسلم فليس للفتاحين عليه من سبيل « لهم مالنا ، وعليهم ما علينا » ، أو الجزية ،
وهي مبلغ بسيط ، لا يقارن بما أخذه البيزنطيون من شعوبهم ، مقابل الحماية ،
واستعماهم للمرافق العامة في الدولة ، ويدفع المسلمون أضعافها في الزكاة ، وأخيراً الحرب
لإزاحة العوائق التي تعيق إيصال العقيدة للشعوب .

ومات أعظم قائد في تاريخ الإسلام ، خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وهو لا يملك
من حطام الدنيا غير قَرَسِه وغلّامه وحسامه فقط ، فأين الغنائم ؟

ولم يكن المسلمون الذين خرجوا للفتوحات أكثر من مئة ألف ، لوضاعفنا العدد ،
فكان يكفيهم سواد العراق وحده ، أو فلسطين وحدها ، أو الشام وحدها ، أو دلتا
مصر وحدها .. ويصبحون أهل رغد وثروة ، ويكثون لينعموا بما فتحوا ، لكنهم
انطلقوا إلى الصّين ، وإلى إسبانية وفرنسة .. فأين الطَّمع بالدُّنيا ؟

أمّا أوربة النصرانيّة ، التي عانت في أواخر القرن الخامس عشر من أزمة اقتصادية
خائقة ، راحت تفتش عن طريق يوصلها ببلاد جنوب شرقي آسيا ، حيث التّوابل
والخيرات ، دون عبور البحر المتوسط والوطن العربي ، وتفاقت الأزمنة أكثر بسبب

نقص الذهب ، لأنّ موارد المناجم في أوربة ، لم تعد تفي بالحاجة منه ، ولذلك قيل :
« عطش أوربة إلى الذهب ، أكثر من جوعها إلى التوابل »^(١) .

وشاع في أوربة أنّ الهند وجنوب شرقي آسيا ، بلدان غنيّة ، موفورة الغنى ، وأنّ الوصول إليها مباشرة يؤدّي إلى الحصول على الذهب والتوابل معاً .

لقد كان البحث عن (أسواق لتصريف المنتجات الأوربيّة المصنّعة) ، مع كسب مناجم المواد الأوربيّة الرخيصة وامتلاكها لتشغيل المصانع الأوربيّة ، وإعادة الجزء الأكبر من إنتاج هذه المصانع إلى هذه الأسواق وبيعها بأسعار مرتفعة بغية تحقيق الربح المادي (الفاحش والسريع) ، سبباً للكشوف الجغرافيّة الأوربيّة والحركة الصليبيّة الجديدة (الاستعمار) .

وهكذا أبحرت السفن الأوربيّة - البرتغاليّة أولاً - ناشرة أشرعتها ، تحمل إلى الشعوب الإفريقيّة والآسيويّة والأمريكيّة جماعة من الرهبان يبشرون بالعهد الجديد ، ويعودون منها بكنوزها من الذهب والعاج والتوابل ، وأمعن البابا (مارتن الخامس)^(٢) في الكرم والسّخاء ، فأحلّ من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في تلك المغامرات^(٣) ، معطياً الاستعمار طابع الحروب الصليبيّة الصّريح .

وعندما قرّر عمانويل الأوّل ، ملك البرتغال : (١٤٩٥ - ١٥٢١ م) تسيير فاسكودوغاما^(٤) سنة ١٤٩٧ م لاحتلال عدن ومضيق هرمز ، قال في حفل وداعه :

(١) تاريخ العصور الحديثة .

(٢) البابا مارتن الخامس (مرتينس) : (١٤١٧ - ١٤٣١ م) ، وهو البابا الخامس بعد اليّتين .

(٣) في طلب التوابل ، ص : ١٠٦ .

(٤) فاسكودوغاما Vasco de Gama : (١٣٦٩ - ١٥٢٤ م) ، بحار برتغالي ، اكتشف طريق الهند عن رأس الرّجاء الصّالح سنة ١٤٩٨ م .

« هذه المغامرة النبيلة ، والمنافع التي تُرجى من ورائها مرضاة الله ، فما هي إلا أن تفتح الهند ، حتّى تبُلِّغ رسالة سيّدنا وإلهنا يسوع إلى أولئك الذين لا يعلمون عنه شيئاً » ، على أن تبليغ الرسالة المسيحيّة - وإن كان الهدف الأول للملك عمانوئيل - إلا أن ذلك لم يمنعه من توصية قوّاده بضرورة البحث في الوقت نفسه عن أحسن الوسائل وأصلحها للحصول على ثروة الشرق .

وما أن فرغ الملك من خطابه حتّى تقدّم أحد كبار رجال الحاشية ، وهو يحمل لواء جماعة المسيح ، فسلمه إلى فاسكودوغاما ، الذي تناوله ولفّه حول ذراعه ، ثمّ نطق بهذا القسم : « أنا فاسكودوغاما المكلف من مليكي باكتشاف بحار الشرق ، وبلاد الهند الشرقيّة ، أقسم برمز هذا الصليب الذي أضع يدي عليه ، بأن أرفعه عالياً مطويّاً أو منشوراً في سبيل خدمة الله وخدمتكم أينما حللت ، سواء في بلاد المغرب ، أو في بلاد الشعوب الأخرى من أيّ جنس ولون ، وأقسم أنّي سأدافع عنه حتّى الموت ، لا تمنعني عن ذلك الأخطار ، مهما يكن مبلغها ، وأينما كانت في البحر أو البر ، ومهما أصلى بنار الحروب ، وإنّني سأصدع بجميع الأوامر الصادرة إليّ ، وأطيع التّعليمات في جميع الظروف » ^(١) .

وتسلّم دوغاما من مليكه رسالة موجّهة إلى (القسّ يوحنا) ملك الحبشة ، وقضى وبجّارته طوال الليل يصلّون لله ، ويضرعون إليه في كنيسة بُنيت للبحّارة خاصّة ، ورتّل رئيس القسّس (قدّاس الاعتراف العام) ، ثمّ نطق بالمغفرة وفقاً للعهد الذي قطعه البابا على نفسه ، بأن يمنحها كل أولئك الذين هلكوا أو قُتلوا في (الفتوح) ، أو في الكشف عن البلاد النائيّة السحيقة ، وأن يُعدّوا من الوجهة الرّوحيّة كما لو كانوا من بين رجال الحروب الصليبيّة ، وأن يُمنَحوا مثل ما مُنِحوا من الغفران ^(٢) .

(١) في طلب التّوابل ، ص : ١٨٠ .

(٢) تسامح الإسلام وتعصّب خصومه ، ص : ١٧٠ .

ومَّا قاله عمانوئيل الأوَّل حرفيًّا : « إنَّ الغرض من اكتشاف الطُّريق البحري إلى الهند هو نشر المسيحيَّة ، والحصول على ثروات الشَّرق » ^(١) .

وبعد عودة دوغاما بستَّة أشهر ، من رحلته الَّتِي وصل بها إلى الهند ، والَّتِي اتَّسمت بالقسوة والوحشيَّة والتَّعصُّب ، أرسل الملك عمانوئيل أسطولاً مكوَّناً من ثلاث عشرة قطعة إلى الهند بقيادة بدرو ألفارز كابرال Perdro Alvers Cabral ، عليها ألف وخمسمئة جندي ، عدا البحَّارة ، ومهرة العمَّال ، وسبعة عشر قسِّيَّساً ، وكان على كابرال أن يبدأ بالدَّعوة إلى المسيحيَّة ، فإن لم تأتِ الدَّعوة بالنتيجة المنشودة ، « فليحتكم إلى السَّيف » ^(٢) .

وفي سنة ١٥٠٦ م أرسل الملك عمانوئيل (ألفونسو ألبوكيرك Albuquerque) إلى الشَّرق ، ولمَّا استولى على ملقَّا في جنوب شرقي آسية (لنهب خيراتها) ، علم الملك عمانوئيل نبأ هذا الاستيلاء ، فأرسل من فوره رسولاً إلى البابا ، ليفضي إليه بالنِّبأ السَّعيد ، بأنَّ ملقَّا أصبحت ملكاً للبرتغال ، وأقام البابا ليو العاشر ^(٣) بمناسبة « هذا الانتصار العظيم » ، انتصار ملك مسيحي على (الكفَّار) والوثنيَّين قُدَّاساً خاصّاً للشُّكر ، وأمر بتسيير موكب رسمي اشترك فيه بنفسه ^(٤) .

هذا ما فعلته البرتغال - إحدى الدُّول الأوربيَّة المسيحيَّة - تحت كنف البابا ورعايته . وهو يماثل ما فعلته إسبانية وهولندة وفرنسة وإنكلترة وإيطالية وألمانية .. في مستعمراتها .

(١) في طلب التَّوَّابِل ، ص : ٢٤٦ .

(٢) في طلب التَّوَّابِل ، ص : ٢٠٨ .

(٣) البابا (ليو) العاشر ، البابا السَّادس عشر بعد المئتين : (١٥١٢ - ١٥٢١ م) .

(٤) في طلب التَّوَّابِل ، ص : ٢٢٢ .

فإسبانية فرضت نظام الحصر المطلق في التجارة مع مستعمراتها ، خصوصاً عندما بدأ استغلال مناجم الذهب في جزر الأنتيل والمكسيك ، ومناجم (بوتوزي) في (بيرو)^(١) ، وهي أشبه ما تكون بجبل من الفضة ، ومن هنا تدفقت الثروة على إسبانية ، التي امتصت خيرات المستعمرات بشكل جنوني ووحشي عنيف ، أدّى إلى إبادة كاملة لحضارات سامقة مثل : الأنكا ، والمايا ، والأزتيك ، ورافق ذلك كله ، تبشير بالمسيحية ، فما حدث من سلب لخيرات الشعوب ، وإبادة للسكان ، تحت رعاية الكنيسة وأمام ناظرها .

لقد كان الاستعمار البرتغالي والإسباني مصحوباً بالإرهاق والشدة والقسوة الوحشية ، لأنّ المستعمرين كانوا يطلبون ممّن بقي حياً من السكان المستعمرين فوق طاقتهم الجسدية والمادية ، حتّى أضناهم العمل ، وقتكت بهم الأمراض والأوبئة .

وهولندة تدفقت عليها الثروات ، وجنت الأرباح الطائلة من مستعمراتها .

وهذا ما فعلته فرنسا وإنكلترة وإيطالية وألمانية .. في مستعمراتها :

- ابتزاز لخيرات الشعوب ، وخصوصاً المواد الأولية ، مع إقامة صرح الصناعة في أوربة وأمريكة بفضل خيرات المستعمرات ومنتجاتها .

ومثال أخير (للغنمية هي الهدف) عند المستعمرين الصليبيين :

بدأ الاحتلال الإنكليزي للهند سنة ١٨٠٥ م ، بأعمال شركة الهند الشرقية البريطانية ، التي كان هدفها جني الأرباح ، واكتساب الأموال ، مع التبشير بالمسيحية ، وفي سنة ١٨٥٨ م أخذت بريطانية ثورة ، وألغت شركة الهند الشرقية ، وجعلت الهند تابعة مباشرة للتاج البريطاني ، ونودي بعد ذلك بالملكة فكتوريا إمبراطورة الهند .

(١) في أمريكة الجنوبية .

قال غاندي : « اعلّموا أنّ الإنكليز يبتغون نيل القناطير المقنطرة من مال بلادنا ، والتلذُّذ بثمراتنا ، والانتفاع بقوة رجالنا وأولادنا ، كل ذلك في سبيل جشعهم الإمبراطوري ، ونهمتهم الاستعماريّة » ^(١) .

وقال الكاتب الهندي (براماثانات بوز) : « إنّ الاستنزاف يسوق الهند إلى درك الخراب سَوْقاً » ^(٢) .

ونتيجة لهذه السّياسة البريطانيّة الاستعماريّة ، اجتاحت المجاعات المتعدّدة الهند ، وهي فوق كلّ تصوّر بشري من حيث الخسائر ، لقد استأثر المستعمرون بالأرباح والمكاسب ، واستنزاف منابع الثروة الوطنيّة ببضاعاتهم وأدواتهم ، وتركهم السّواد الأعظم من الهنود عالية عليهم ، بحيث إذا احتبس المطر قليلاً ، أو هبت على الزُّروع لافحة سموم ، فقلّ المحصول ، وارتفعت أسعار الغذاء ، لم يبقَ أمام هؤلاء الأهالي سوى الموت جوعاً ، أو بالأمراض التي سبّبها سوء الغذاء ، لأنّ الذي يأخذونه بدل عملهم ، لا يعود كافياً لشراء قوتهم الصّوري ، ولا نجد إنكليزيّاً واحداً مسّه الجوع ، أو مات سغباً ^(٣) .

وفي الهند - مثل كلّ البقاع التي استعمرت في هذا العالم - رافق التّبشير الاستعمار منذ ساعاته الأولى .

لقد ألّف المبشّرون الرّسائل والكتب في الهجوم على الإسلام ونيّه وأهله ، ووزعت في الأمصار بين العوام ، وشرعوا في الوعظ في الأسواق ، ومجامع النّاس .. عندها توجه بعض المسلمين إلى الشّيخ (رحمة الله خليل الرّحمن الهندي) ^(٤) ، الذي اطّلع على

(١) حاضر العالم الإسلامي : ٢٠١/٤ .

(٢) حاضر العالم الإسلامي : ٢٢٤/٤ .

(٣) تحرير لاستعمار ، ص : ٨٥ .

(٤) رحمة الله بن خليل الرّحمن الهندي (ت ١٣٠٨ هـ / ١٨٩١ م) ، باحث ، عالم بالدين والمناظرة ، جاور =

تقريراتهم وتحريراتهم ، ووصلته رسائلهم ، يطلبون منه التصدي للمبشرين وافترائهم ، فاستدعى الشيخ رحمة الله القسيس (قاندر) ، مؤلف كتاب : (ميزان الحق) ، الذي هاجم فيه الإسلام وأهله ، لمناظرة في مجلس عام ، وفعلاً جرت المناظرة في رجب ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٤ م ، فظهرت الغلبة - بفضل الله - للشيخ رحمة الله ، فأمرت الكنيسة التبشيرية بإنهاء المناظرة ، وترك الموضوعات المقررة المتبقية ، ونقلت (قاندر) إلى الأستانة فوراً ، وفي الأستانة راح (قاندر) يحدث الناس عن انتصاراته في الهند ، في مناظراته مع الشيخ رحمة الله ، وكيف فاز عليه وأفحمه ، فاستدعى السلطان العثماني الشيخ رحمة الله - وقد كان بمكة في ضيافة الشيخ أحمد زيني دحلان - وعندما علم (قاندر) بوصول الشيخ رحمة الله إلى الأستانة ، غادرها لساعته .

وكتب الشيخ رحمة الله كتابه القيم والرائع : (إظهار الحق)^(١) ، والذي هو نصٌ مناظرته مع قسُس التبشير في الهند ، وخصوصاً القس (قاندر) .

وبعد ...

الاستعمار الأوربي ابتزاز لخيرات الشعوب ، وخصوصاً المواد الأولية ، ونهب لثرواتها ، واستغلال جشع بشع لطاقتها ، مع نشر الجهل والفقر والمرض مع تبشير سمج كاذب مدعٍ ..

والفتح الإسلامي خلّص الشعوب من الضرائب الباهظة ، حتّى قال (دريبر) :

= بمكة وتوفي بها ، له كتب منها : (التنبهات ، في إثبات الاحتجاج إلى البعثة والحشر والميقات) ، و (إظهار الحق) جزآن ، هو من أفضل الكتب في موضوعه ، (الأعلام : ١٨٣) .

(١) مطبوع في الدوحة - قطر : إدارة إحياء التراث الإسلامي ، وفي القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية بميدان العتبة ، وفي لبنان (للطبعة العصرية ، صيدا) . وهذا الكتاب كان نقطة تحوّل في حياة الداعية المسلم حسين ديدات ، يعتده في مناظراته .

« إنَّ المسلمين ما كانوا يتقاضون من مقهورهم إلا شيئاً ضئيلاً من المال ، لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنية » ^(١) .

وقالت (لورايشيا فاغليري) : « ادفعوا جزية يسيرة تُسبِّغ عليكم حماية كاملة » ^(٢) .

وقال (غوستاف لوبون) : « جزية زهيدة تَقِلُّ عَمَّا كانت تدفعه إلى ساداتها السابقين من ضرائب » ^(٣) .

لقد عمَّ الرَّفاه البلاد التي حرَّرها المسلمون ، مع نهضة علمية في كلِّ مجال ، حتَّى قال المؤرِّخ الإسباني (سانسيث أولبورنوت) : « إنَّ الفتح العربي الإسلامي لإسبانية جلب إليها كلَّ الخير » ، فهل جلب الاستعمار الأوربي الخير للبلاد التي فُتِحَتْ ؟!!
إنَّه الإسقاط !!؟



(١) روح الدِّين الإسلامي ، ص : ٣٩٢ .

(٢) دفاع عن الإسلام ، ص : ٥٢ .

(٣) حضارة العرب ، ص : ١٣٤ .

مقارنة

الإسلام :	الاستعمار
سماحة : جود وعطاء وكرم وسخاء مع الصَّفْح والعفو والإحسان يقابله : التَّعْنُت والتَّعَصُّب والتَّطَرُّف والغُلُو	سماجة = قبح . السَّماجة : القُبْحُ ، يقال : ما أَسْمَجَ فِعْله ، أي : ما أَقْبَحَه .
أُخُوَّة إنسانية : فمن خصائص حضارتنا الإسلامية ، أنَّها لا تحمُّ بالإعدام على التَّقافات الأخرى ، والحوار هو البديل ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ، [النحل : ١٢٥/١٦] .	إبادة شعوب : - ماذا لحق بإفريقية على يد البرتغاليين ؟ - وماذا فعل رعاة البقر بشعب أمريكا الأصلي (الهنود الحمر ؟) . - وماذا فعلت فرنسة في الجزائر ؟ - وماذا فعلت بريطانيا في أستراليا ؟
نظرة إنسانية لا يملكها إلا الإسلام . فبينما يقبل المسلمون بينهم وجود أديان مغايرة لدينهم ، ويرفضون إكراه أحدٍ على ترك ملته ، نرى الآخرين	- ماذا عملت إسبانية والبرتغال في سكَّان أمريكا الوسطى والجنوبية ؟ الجواب وبكلِّ بساطة (إبادة) وانتهاء حضارة الإنكا والمايا والأزتيك ،

وإبادة كاملة ٣٠ مليون إنسان أبادتهم
البندقية الأوربية والمدفع ، الطفل
الرضيع يرضخ رأسه ، أو يؤخذ للكلاب
الجائعة من يد أمه ، وتراه يؤكل أمام
ناظرها !

لذلك قامت عام ١٩٩٢ بمناسبة
مرور ٥٠٠ عام على اكتشاف أمريكا
مظاهرات ضد البابا وتحطيم أصنام
كولومبس في أمريكا الجنوبية .
وكذلك في أستراليا بمناسبة مرور
٢٠٠ عام على اكتشافها .

وفي الجمهوريات الإسلامية في
الاتحاد السوفيتي المتفكك ، أييد
(عشرون) مليون مسلم ، وستالين
وحده أباد أحد عشر مليون مسلم بإشراف
اليهودي (ميخائيل سوسلوف) الذي
أصبح المنظر العقائدي للاتحاد
السوفيتي .

فداغستان مثلاً : في عام ١٩١٧ م
كان عدد سكانها ٨ ملايين نسمة ، وفي
عام ١٩٧٧ م أصبح عدد سكانها
١,٦٢٧,٠٠٠ نسمة فقط ، بسبب الإبادة
والتجهير .

يتبرّمون من الديانات الأخرى ،
ويرسمون سياستهم الظاهرة والباطنة
لإبادة الآخرين .

- الناس سواسية في الإسلام .

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ تكرّرت ١٤٠
مرة في القرآن الكريم ، واستعملت كلمة
(الناس) في القرآن الكريم بمعنى الجنس
البشري عموماً : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ
عَلَى النَّاسِ ﴾ ، ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ
نُذَوُلْهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ، ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ
الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ ، كلمة
الناس ترسخ معنى الإنسانية ، ووحدة
الجنس البشري : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ .

وعالمية الإسلام ، وإنسانيته يشبتان
من القرآن والسنة والأدلة الواقعية .

العنصرية :

الثمرة الثانية من ثمرات الاستعمار ،
ومن يقول انتهت العنصرية نقول له ،
العنصرية أنواع ، التمييز العنصري بين
الأبيض والأسود في أمريكا وأوروبا
وجنوبي إفريقيا ، تحاول القوانين اليوم
الحد منه .

كنائس للبيض وأخرى للسود .
وسائل نقل للبيض ووسائل نقل
أخرى للسود .
مدارس للبيض ومدارس غيرها
للسود .
أماكن سياحة للبيض وأماكن
سياحة للسود .

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر
من العنصرية اليوم موضوع حقوق
الإنسان ، إنها للأيض ، للأوروبي
والأمريكي إن مات واحد منهم ياللمصيبة
ولو كان المعتدي وتموت شعوب مسلمة
ومجلس الأمن ينظر (أصم أبكم) إلى
ما يجري في البوسنة والهرسك :

الإسلام :

لا فضل لعربي على أعجمي
ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ،
التقوى ، التعامل ، الخير للناس ، معيار
التفاضل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ
ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ
اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ، [الحجرات : ١٣/٤٩] .

والخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى
الله أنفعهم لعياله .

لقد رفع الإسلام بلالاً الحبشي فوق
الكعبة ليعلم الله أكبر .

وجعل سلمان من آل البيت .

وأعلن عمر رضي الله عنه حقوق
الإنسان عملياً عندما نفّذ على أرض
الواقع : (متى استعبدتم الناس وقد
ولدتهم أمهاتهم أحراراً) .

وفي الحجّ الأبيض والأسود ،
والأصفر والأحمر ، على اختلاف ألوانهم
قمة التساوي .

ومفسّر القانون وفق مزاجه
يَرْنُو أَصَمَّ إِلَى الْجَرَائِمِ أَبْكَما
ويمارسُ التَّسْوِيفَ خُطَّةَ بَارِعٍ
حَتَّى يَرِاقَ دَمَ الْبَرِيِّ وَيُعَدِّما
ما كان أَسْرَعَهُ لِيَرُوعَ ظالماً
لَوْ لَمْ يَكُ الْمَظْلُومُ شَعْباً مُسْلِماً
يَهْتُمُونَ بِحَقُوقِ الْإِنْسَانِ فِي جَنُوبِي
السُّودَانِ (كَرْنِغ) وَلَا حَقُوقَ لِلدِّفَاعِ
عَنِ النَّفْسِ فِي الْبُوسَنَةِ .

الفقر في البلاد التي استُعْمِرَت :

الهند ، مصر ، إفريقية ، جنوب
شرقي آسيا ، مع انتشار المجاعات .

أثناء الاستعمار البريطاني لمصر
١٥-١٢ ساعة عمل للعامل والأجر ١٠
بنسات للبالغ ، و ٦ بنسات للحدث .

وقال المؤرِّخون : « إِنَّ الاستنزاف
يسوق الهند إلى درك الخراب سَوْقاً » .

المجاعات تعدَّدت وَحَتَّى الْيَوْمَ يَلِدُ
الفرد ويعيش ويموت على رصيف
ضيق .

ووقف النَّبِيُّ ﷺ لْجَنَازَةِ غَيْرِ مُسْلِمٍ
فَقِيلَ : إِنَّهُ غَيْرُ مُسْلِمٍ ، فَقَالَ : أَوَّلَيْسَ
إِنْسَاناً ؟

في الإسلام الرِّفاه للجميع

نهضة زراعيّة ، اقتصاديّة في كلِّ
البلاد الَّتِي فُتِحَتْ .

كتب عمر بن عبد العزيز إلى كلِّ
واحد من ولاته : انظر إلى مَنْ قَبْلَكَ
من الأرض فأعطوها بالمزراعة على
النَّصْفِ ، وإلَّا فعلى الثُّلُثِ ، حَتَّى تَبْلُغَ
العُشْرَ ، فَإِنْ لَمْ يَزِرْعَهَا أَحَدٌ فامْنَحْهَا ،
وإلَّا فَأَنْفِقْ عَلَيْهَا مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ،
وَلَا تُبَيِّنَنَّ قَبْلَكَ أَرْضاً .

الموت جوعاً في البلاد المستعمرة أمر طبيعي ، ولا نجد أوريباً واحداً مسّه الجوع .

واليوم ، اليوم ثورة المكسيك هي ثورة بقايا السُكّان الأصليين .

إفريقية : مثالنا فيها الجزائر ، كانت تصدّر القمح لأوربة ، وفرنسة خصوصاً قبل ١٨٣٠ م ، وبعد الاستعمار مجاعات ، وكم من الجزائريين مات جوعاً وأكداس المؤن في الكنائس لم تقدم لواحد ، لأنّهم أبوا التنصير .

وصار المثل الشعبي المتبع في إندونيسية يقول : « تنصّر من أجل حفنة أرز » ، أي لاقناعة وعقلاً وفهماً ودراسة ..

الجهل :

إغلاق المدارس ، مع سياسة محكمة لتجهيل الناس ، ومحاربة أي معين علمي تركت بريطانيا مصر ونسبة الأميّة فيها ٩٨ ٪ ، وكذلك في الهند .

إغلاق الجامعات في حوض النيجر وأهما (تونبكت) وفي وثيقة الاستقلال

أيّام العباسيين : ديوان خاص للقنوات وأعمال الرّي والزراعة ، عُرف بديوان الماء ، بلغ عدد المشتغلين فيه عدّة آلاف .

وخفّض الخراج على الفلاحين بين آونة وأخرى تشجيعاً لهم ، وزيادة في دخلهم ورفاهيّتهم .

الأندلس : جنة الدنيا ، وجوهرة العالم

تجفيف المستنقعات في أرض السّواد بدأه الحجاج .

عشرات الجامعات ، ومئات المدارس لنشر العلم في كلّ أرجاء العالم الإسلامي ، لأنّه :

« ليس منّي إلّا عالم أو متعلّم »

الأندلس تخرّج من جامعاتها البابا سلفستر الثاني .

مع فرنسة اشترطت عدم إعادة فتح
جامعة (تونبكت) ، وعدم التدريس
بالعربية .

أيضا وصل الاستعمار ، حلّ معه
التجهيل المقصود للبلاد كلّها .

نهضة علميّة ، حتّى إنّ أشهر العلماء
في كلّ الميادين كانوا من سكّان البلاد
المفتوحة :

ابن سينا / الرّازي / البخاري /
البيروني / الخوارزمي / الطّبري ...

الإسلام علم ، فهل من بقعة وصلها
الإسلام ولم ينتشر فيها التّعليم ، مع نهضة
في كلّ مجالات العلوم .

يكفيّنا أنّ شوارع كاملة اسمها
(شارع المدارس) إنّها تخصّصيّة
فالحي كلّهُ تكفيه مدرسة واحدة
(عامّة) لأبنائه .

المستشفيات (البيمارستانات)

في كلّ أرجاء البلاد التي فتحت ،
وبعضها تخصّصي ، للمجذومين
لا يختلطون بغيرهم (حجر صحيّ)
وللأمراض العصبية .

بيارستان النّووي بدمشق ، يذكر
ابن شاهين حادثة طريفة لمبارض أراد
تناول الطّعام من البيارستان ،
فاستضيف ثلاثة أيّام ، ثمّ قيل له :

المرض :

أمراض كثيرة استوطنت البلاد
المستعمرة ، البلهارسيا في مصر ، لعدم
توافر مشاريع الشّرب .

ريف البلاد المستعمرة لا خدمات
طبيّة نسبة وفيات الأطفال المرتفعة شيء
معروف جدّا .

موجات الطّاعون حصدت مئات
الألوف .

والمستوصفات ، والخدمات الطبيّة
فيها ، إن وجدت هذه المستوصفات لها
أغراض تبشيريّة ، أبسطها إعطاء
المريض أقراصاً من (النّشاء)
لامرّكبات طبيّة فيها ، حتّى يقال له
اطلب من يسوع المخلّص الشّفاء ،
فيعطى الدّواء المناسب .

« الضّيف ثلاثة أيّام » ، اخرج نعرفك
أنّك متمارض معافى .

وعرف المسلمون المستشفيات
المتنقّلة ،

مع محطّات الإسعاف قرب
المساجد .

زيغريد هونكه : وتقيم المشافي
الإسلاميّة

مع كلّ مشفى مكتبة ، مدرسة
عالية للطّب ، الأدوية ، الصّيدليّات ،
فن اختراع المسلمين : التّقطير ،
التّرشّيح ، التّبّلور ، تغليف الحبوب بما
لا يؤذي الذّوق واللّسان ، وعرفوا المرقّد
للتّخدير في العمليّات .

وما زالت كلمات كثيرة في مجال
الطّب عربيّة في أوربة .

شرع الإسلام العتق
ولم يشرّع الرّق

ألغاه بخطى ثابتة مدروسة ، ولم
يبق منه إلّا أسير الحرب كعامله بالمثل .
ضيق موارده ومدخله ، وأفسح

الرّقيق :

٢٠ مليون زنجي إفريقي في
أمريكة لقد روج الغرب لتجارة الرّقيق
خطفاً وقنصاً بأعداد كبيرة جدّاً ،
وتاريخ النّخاسة الأوربي مُشين جدّاً ،

في دائرة المعارف البريطانية ٨٨٩/٢ :
وصف للقنص البشري حيث يقتل ثمانية
كي يلقى القبض على واحد .

وما يشحن ١٢٪ يموت لاختلاف
البيئة والمناخ .

ويموت قسم آخر في العمل في
المستعمرات :

(جامايكا) البريطانية دخلها
١٨٢٠ م ٨٠٠,٠٠٠ رقيق ، بقي منهم في
تلك السنة ٣٤٠,٠٠٠ .

اليزابيث الأولى (١٥٥٨-١٦٠٣ م)
شريكة (جون هوكنز) أكبر نخّاس في
التّاريخ ، ورفعته إلى مرتبة النبلاء
إعجاباً ببطولته .

محام التفتيش :

شكّلت بمرسوم بابوي في تشرين ٢
عام ١٤٧٨ م لتنصير المسلمين بأشدّ وسائل
العنف الأسياخ الحمّاة ، سحق العظام ،
رفع المرأة من ثدييها حتّى الموت ، ترك
المرأة غريانة على قبر تربط إليه
بلا طعام حتّى الموت ..

مصارفه ومخرجه ، ويمكن القول إنّ سدّ
منايع الرّق ، ووسّع مصارف العتق
لقد عدّ الإسلام الرّقّ عارضاً ،
وجده مشروعاً فشرّع العتق .

الإمام أحمد : المكاتب واجبة متى
دعا العبد سيّده إليها

والحنفيّة : تجبر المكاتب على الأداء
حرصاً على تحريره ، وإذا لم يكن معه
مال وهو قادر على الكسب ، فالمالكيّة
تجبره على الكسب .

ومعاملة الرّقيق في الإسلام لا تتّصل
بالعقل والفكر ، يعتنق الدّين الذي
يرضيه .

﴿ لا إكراه في الدين ﴾

[البقرة : ٢٥٦/٢]

التّسامح سمة الإسلام الخالدة ، فهو
لا يحكم بالإعدام على الشّرائع الأخرى ،
والحوار هو البديل ، وإقرار الإسلام
بتعدّد العقائد في مجتمع المسلمين إقرار
بمشيئة الله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ

وصمة عار في جبين أوربة على مرّ
التاريخ .

مع إحراق من رفض التنصير في
أمريكا عند الكشف .

وأقام الحاكم الإسباني (ليكاسي)
محاكم التفتيش في الفيليبين ، وتتبع
المسلمين لتنصيرهم ، وفي عام ١٥٩٥ م
استرق المسلمون لأنهم مسلمون وهُدمت
المساجد .

ابتزاز المواد الأولية :

نهب خيرات الشعوب المستعمرة

والتركيز والتأكيد على بقائها
زراعية مستهلكة للمنتجات المصنعة في
أوربة .

والضرائب الباهظة حدث ولا حرج

الناس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ
مُخْتَلِفِينَ ﴿ [هود : ١١٨/١١] .

﴿ لا إكراه في الدين ﴾ حجة على
كل متعصب متزمت ، لا يؤمن بحريّة
اختيار العقيدة .

تسامح ، إخاء ، أخوة

وحساب الخلق على الله

لوبون : « فالحق أن الأمم لم تعرف
فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ،
ولا ديناً سحاً مثل دينهم » ، (حضارة
العرب ، ص : ٧٢٠ ، ط ٣ ، ١٩٧٩ دار
إحياء التراث العربي - بيروت ، ترجمة
عادل زعيتر) .

تصرف الضرائب على الناس حيث
جبيت ، وتعود عليهم مشاريع
وخيرات ، فلا ابتزاز ولا نهب .

وكلمة عمر رضي الله عنه ستبقى
خالدة :

« هذا من فقراء أهل الكتاب » ،
ومنح الفقير غير المسلم من بيت مال
المسلمين .

أَيُّ وَسَامٍ تَضَعُهُ

سَمَاحَةُ الْإِسْلَامِ



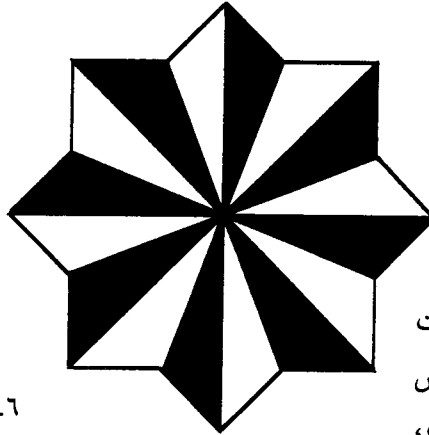
☆ الحضارة: الرِّفَاءُ والعلم
والصُّحَّةُ للجميع، ثمرة
من ثمرات الإسلام،
ومهديّته الكبرى إلى
الإنسانية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي
الدِّينِ﴾.



١- أخوة إنسانية «أوليك
بنفسي».

٢- ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ
أَتَقَامَ﴾ «وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالٌ
لِلَّهِ...».

٣- الرِّفَاءُ للجميع نهضة
زراعية وصناعية في كلِّ
البلاد الَّتِي فُتِحَتْ.



٤- عشرات الجامعات، ومئات
المدارس لنشر العلم، «ليس
مَنْبًى إِلَّا عَالَمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ»،
الأندلس، المغرب، ماوراء
النَّهْرِ.. خير مثال حضاري
عالمي.

٥- محاربة الأمراض بتجفيف
المستنقعات، وفتح المشافي
(البيمارستانات) في كلِّ أرجاء
البلاد الَّتِي فُتِحَتْ، وبعضها
تخصّصي.

٦- شرع الإسلام العتق ولم
يشرع الرِّقَّ، وضيَّقَ مدخله،
ووسَّعَ مخرجه.

٧- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ تسامح
وإنسانية وحساب الخلق على الله.

٨- تصرف الضَّرَائِبُ على النَّاسِ حَيْثُ
جَبَّيْتُ، وتعود عليهم مشاريع وخيرات
فلا ابتزاز ولا نهب.

بشرية على صدرها ؟
أم سَاجَّة الاستعمار ؟



التخلف: الفقر والجهل
والمرض، هدية الاستعمار
للعالم، وهنا مرتعته
الحضيب منذ ساعاته
الأولى.

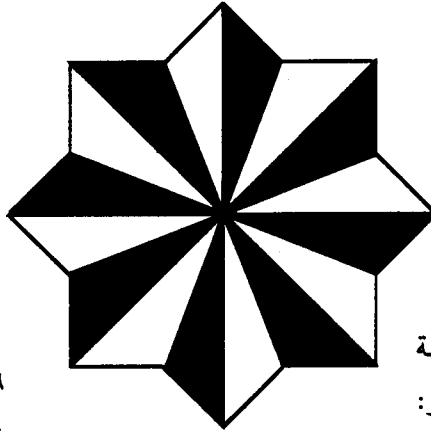
صور
الاستعمار
وأثاره

١- إبادة شعوب: ٣٠ مليون قتيل في كشف
أمريكة وإبادة حضارات: الإنكا والمايا
والآزتيك.

٨- ابتزاز المواد الأولية، نهب
خيرات الشعوب المستعمرة
وابقاؤها زراعية مستهلكة
للمنتجات الأوروبية.

٧- محاكم التفتيش وصمة
عار في جبين أوربة على
مر التاريخ.

٦- الرقيق: ٢٠ مليون
زنحي إفريقي في أمريكا
وحدها، (صيدوا) من
شواطئ القارة الإفريقية.



٥- المرض: قضت موجات
الطاعون على الملايين في
المستعمرات، ولعدم توافر
مشاريع الشرب عشرات
الأمراض التي استوطنت
المستعمرات.

٢- العنصرية: في أمريكا وأوربة
وجنوبي إفريقية وحقوق الإنسان
للرجل الأبيض.

الفقر: في كل البلاد التي فتحت:
ند، مصر، إفريقية، جنوب شرق
ية.. مع انتشار المجاعات.

١- الجهل: إغلاق المدارس، مع سياسة
لتجهيل ومحاربة التقدم العلمي، مصر:
٩٧٪ أميون، وكذلك في الهند مخلفات
لاستعمار البريطاني، وكذلك في إفريقية
جنوب شرقي آسية.

الجزائر المصدرة للخيرات قبل
١٨٣٠ م ديونها ٢٦ مليون دولار .

دخلها القومي ١٣ مليار دولار
سنوياً

تسدّد فوائد وعمولات ٩ مليارات
كل سنة والرّقم الأوّل (٢٦) ثابت .

يقول (فأنسان مونتيه) أستاذ
اللغة العربيّة والتّاريخ الإسلامي بجامعة
باريس :

« اخترتُ الإسلامَ لأنّه دينُ
الْفِطْرَةِ ، اخترته ديناً ألقى به وجه
ربّي .. ومن أسباب إسلامي تسامح
الإسلام تجاة أبناء الأديان الأخرى » .

والمستشرق الألماني أولرش
هيرمان :

« الَّذي لفت نظري أثناء دراستي
لهذه الفترة - فترة الفتوح الإسلاميّة في
العصور الوسطى - هو درجة التّسامح
التي تتمتع بها المسلمون .

فأي وسام تضعه البشرية على صدرها :

سماحة الإسلام ، أم سماجة الاستعمار ؟!

صورتان متلازمتان في تاريخ البشريّة ، ما أبشع الأولى وأسوأها ، وما أروع
الثانية وأجملها : الأولى : صورة بيت المقدس يوم الجمعة ١٥ تموز ١٠٩٩ حيث وحشيّة
الصّليبيّين والدّماء سواقي ، والثانية : يوم الجمعة ١٢ ت ١ ، ١١٨٧ ، حيث استعادة
القدس على يد صلاح الدّين حيث أبت أخلاقه الإسلاميّة الرّد بالمثل ملقناً الغرب درساً
في تسامح الإسلام ، وروحه الإنسانيّة .



تعصُّب المسلمين

ومَّا أسقطه الغربيُّون - برعاية الكنيسة - علينا ، قولهم :

« يتحقَّق على المسلم أن يعلن العداوة على غير المسلمين حيث وجدهم ، لأنَّ محاربة غير المسلم واجب ديني » ^(١) .

« في القرن السَّابع للميلاد برز في الشَّرق عدوٌّ جديد ، ذلك هو الإسلام الَّذي أُسِّس على القوَّة ، وقام على أشدِّ أنواع التَّعصُّب ، لقد وضع محمد السَّيْف في أيدي الَّذين اتَّبَعوه ، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ، ثمَّ سمح لأتباعه بالفجور والسَّلب ، ووعد الَّذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدَّائم بالملذَّات » ^(٢) .

« إنَّ هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوَّة ، وقالوا للنَّاس : (أسلموا أو موتوا) ، بينا أتباع المسيح ربحوا النُّفوس ببرِّهم وإحسانهم » ^(٣) .

« إنَّ الإسلام يبيِّث في المسلمين روح البغض للأغيار والشُّقاق وحبَّ الانتقام .. » ^(٤) .

كيف يصل التَّعصُّب بأصحابه إلى قلب المفاهيم وعكس الحقائق ؟

- (١) تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ، كارل بروكلمان ، ص : ٧٨ .
- (٢) البحث عن الدِّين الحقيقي ، المنسيور كولي ، ص : ٢٢٠ .
- (٣) تاريخ فرنسا ، هـ . غيومان ، فلستير ، ص : ٨٠-٨٢ .
- (٤) مصر الحديثة ، كرومر ، انظر : الإسلام روح المدنيَّة ، ص : ١٣ .

ونركّز على كلمة (تعصّب) بكلّ ما تحمل من معانٍ ، لأنّه يستحيل أن يكون من نعيمهم من المستشرقين والمبشّرين يجهلون أبسط الحقائق والمعارف عن الإسلام ، وهؤلاء قبل غيرهم يعرفون ويعلمون علم اليقين أنّ كتاب المسلمين (القرآن الكريم) مصدر شريعتهم الأوّل ، فرضَ بآياتٍ صريحة يفهمها أبسط الناس ، بما لا يقبل أي التباس على المسلمين أن يحسنوا معاملة غير المسلمين أحسن معاملة ، وخصوصاً منهم (المسيحيّين) ، حيث ورد بحقّهم :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٧/٢] .

﴿ ... وَقُولُوا لِلنَّاسِ ^(١) حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة : ٨٣/٢] .

﴿ .. وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥/٢] .

﴿ أَذْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٦/٢٣] .

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٦/٢٩] .

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَذْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٣٤/٤١] .

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ☆ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ

(١) لكلّ النَّاسِ ، مسلمهم وغير مسلمهم .

فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ [المتحنة : ١٥/٦٠] .

إنَّ روح الصَّلَيبِيَّة المقيَّنة العمياء لا تزال تسيطر على عقول معظم المستشرقين ،
وجُلَّ المبشرين وتطمس قلوبهم ، فينفثون سموم أحقادهم تهجئات واتهامات
وإسقاطات .

يقول المبشِّر (رايد) حرفياً : « إنَّني أحاول أن أقبل المسلم من محمد إلى المسيح ،
ومع ذلك يظنُّ المسلم أنَّ لي في ذلك غاية خاصَّة ، أنا لأحبُّ المسلم لذاته ، ولا لأنَّه أخُ
لي في الإنسانيَّة ، ولولا أنَّي أريدُ ربحه إلى صفوف النَّصارى لما كنت تعرَّضت له
لأساعده » ^(١) .

فبينما يقبل المسلمون بينهم وجود أديان مغايرة لدينهم ، ويرفضون إكراه أحد
على ترك ملته : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦/٢] ، ويرضون أن يتألَّف المجتمع
من المسلمين وغير المسلمين ، ويشرِّعون نظماً عادلة لتطبَّق عليهم وعلى من في ذمتهم من
المسيحيين أو اليهود ، بينما نفعل ذلك ، نرى المسيحيَّة تتبرَّم من الديانات الأخرى ،
وترسم سياستها الظَّاهرة والباطنة لإبادة خصومها أو تحقيرهم وحرمانهم ، حتَّى ترغهم
على ترك دينهم ، وتجبرهم على النَّصرانيَّة جبراً ^(٢) .

الإسلام مدِّ يده لمصافحة أتباع الأديان الأخرى لتحقيق التَّعاون على إقامة
العدل ، ونشر الأمن ، وصيانة الدِّماء أن تُسْفَكَ ، وحماية الحرمات أن تنتهك .

(١) التَّشْهير والاستعمار ، ص : ١٩٢ .

(٢) التَّعَصُّب والتَّسامح ، ص : ٥٦ ، وفي التَّوراة : « ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب
حرثائكم وكرواميك ، أمَّا أنتم فندعون كهنة الرَّبِّ تسعون خدَّام إلَهِنا ، تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدِّهم
تتأمَّرون » [إشعياء : ٦١/٥ و٦] .

والإسلام لم يَقم على اضطهاد مخالفيه ، أو مصادرة حقوقهم ، أو تحويلهم بالإكراه عن عقائدهم ، أو المساس الجائر لأموالهم وأعراضهم ودمائهم .

ولن ينسى التاريخ أنَّ الإسلام ربط ضمير المؤمن بمثل أعلى ، فالعدل قوام التعامل مع كلِّ النَّاس ، فلا تفاوت بسبب قرابة ، أو مودة أو عدا .. ولا اعتداء على الأنفس أو الأموال أو الأعراض ، لذلك : تحوّل البدو المسيحيون ببلاد الشَّام إلى الإسلام بالتَّسامح ، وإنَّ العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التَّسامح ^(١) . وهذا ينطبق على الشَّمال الإفريقي والأندلس وفارس وما وراء النَّهر .

ويعيش في البلاد الإسلاميَّة على مرِّ تاريخها مسيحيون ويهود ، ويعيش مسلمون في بلاد غير إسلاميَّة ، فكيف كانت معاملة هؤلاء ؟ وكيف كانت معاملة أولئك ؟ فإذا طفنا في العالم الإسلامي ، فهل نسمع شكاية مسيحي أو يهودي ضدَّ المسلمين ؟

أمَّا المسلمون الذين يعيشون تحت كنف حكومات غير إسلاميَّة ، فياللهول ، إنَّ ضروب القسوة والوحشيَّة ، التي ارتكبت في فلسطين من قبل الصَّليبيين ، جعلت (غليوم الصُّوري) يقول : لو أراد كاتب أن يصف رذائلهم الوحشيَّة ، لخرج من طور المؤرِّخ ليدخل في طور القادح الهاجي .

ولقد سَفَكَت دماء المسلمين في إسبانية ، عندما أصدر الملك الكاثوليكيَّان (فرديناند وإيزابيلا) أمراً خلاصته : لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة ، فإنَّه يحظر وجود المسلمين فيها ، ويُعاقب المخالفون بالموت ، أو مصادرة الأموال .

وفي الفلبين ، وتايلاند ، وبورما ، والحبشة ، وغينية ، وزنجبار ، وبلغارية ، وفرنسة ، وإنكلترة ، وأمريكة .. ما واقع المسلمين ؟ إنَّ المسلمين يلاقون من المجتمعات

(١) الدُّعوة إلى الإسلام ، ص : ٦٩ و ٧٠ .

غير الإسلامية ألواناً من الاضطهاد ، والمضايقة ، وحماية ورعاية لكل هجمة أو افتراء على دينهم ونبِيِّهم وتاريخهم ..

ولن ينسى التاريخ لمحمد الفاتح^(١) أنه حمى الكنيسة الإغريقية ، وحرّم اضطهاد المسيحيّين تحريماً قاطعاً ، وأعطى للبطريرك والأساقفة من الحصانات ونفوذ الكلمة ما يعدُّ بحق صورة نابضة من صور تسامح الإسلام مع أهل الكتاب ، وكذلك عومل الأساقفة نفس المعاملة الحسنة في كلّ الولايات التي تخضع للدولة العثمانية .

« ومن أولى الخطوات التي اتخذها محمد الثاني (محمد الفاتح) بعد سقوط القسطنطينية ، وإعادة إقرار النظام فيها ، أن يضمن ولاء المسيحيّين ، بأن أعلن نفسه حامي الكنيسة الإغريقية ، فحرّم اضطهاد المسيحيّين تحريماً قاطعاً ، ومنح البطريق الجديد مرسوماً يضمن له ولأتباعه ولرؤوسه من الأساقفة حقّ التمتع بالامتيازات القديمة ، والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق ، وقد تسلّم جنّاد يوس ، أوّل بطريق بعد الفتح العثماني من يد السلطان نفسه عصا الأسقفية التي كانت رمز هذا المنصب ، ومعها كيس يحتوي على ألف دوكة ذهبية »^(٢) .

وليس أدل على تسامح المسلمين مع المسيحيّين من كلمات (ريتشارد ستبر) وهو تاجر إنكليزي كان في آسية الصغرى (تركيا) سنة ١٨٧٥ م ، حيث قارن بين المسلمين الأتراك ، وبين المسيحيّين في معاملة المسيحيّين أنفسهم ، فقال : « وعلى الرّغم من أنّ الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب بسيرهم في أعمال الظّلام .. سمحوا للمسيحيّين جميعاً ، للإغريق مهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على دينهم ، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاؤوا ، بأن منحهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدّسة في القسطنطينية ، وفي أماكن أخرى كثيرة جداً ، على حين أستطيع أن أوّكد بحقّ ، بدليل اثني عشر عاماً

(١) محمد الثاني (الفاتح) العثماني : (١٤٢٩ - ١٤٨١ م) فاتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م .

(٢) الدّعوة إلى الإسلام ، ص : ١٧٠ و ١٧١ .

قضيتها في إسبانية ، أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب ، بل إننا في خطر على حياتنا وسليتنا»^(١) .

هذا .. ولم تعرف المسيحية التسامح حتى بين أتباعها إن اختلف المذهب ، ولن نتحدث مطوّلاً عن الحروب التي نشبت في أوربة إبان الإصلاح الديني ، ونكتفي بمثال واحد فقط :

ملحمة (سان بارتلمي)^(٢) : مذبحه أمر بها سنة ١٥٧٢ م شارل التاسع ، وكاترينا دوميديسيس ، حينما قتلت كاترينا خمسة من زعماء البروتستانت في باريس ، ظنّت أنهم يأترون بها وبالمملك ، ولم يكذب ينتشر الخبر في باريس حتى شاع أنه شرع في قتل الخوارج^(٣) . فانقضّ أشرف الكاثوليك والحرس الملكي والنّبالة والجمهور على البروتستانت ، وقتلوا منهم ألفي نسمة ، وقد قلّد سكّان الولايات الفرنسية بعامل العدوى أهل باريس ، فسفكوا دماء ستّة إلى ثمانية آلاف نسمة .

ولم تنل حادثة السّان بارتلمي أيّام وقوعها شيئاً من الانتقاد في أوربة الكاثوليكية ، وقد أوجبت حماساً يفوق الوصف ، فكاد فيليب الثاني يصبح مجنوناً لشدة فرحه يوم بلغه وقوعها ، وانهاالت التّهاني على ملك فرنسا أكثر من انها لها عليه لونال نصراً عظيماً في ساحة الوغى .

وما بدا السّرور على أحد كما بدا على البابا غريغوار الثالث عشر ، فقد أمر بضرب أوسمة خاصة تخليداً لذكرها ، رُسِمَت على هذه الأوسمة صورة غريغوار الثالث عشر ، وبجانبه ملك يضرب بالسيف أعناق الخوارج ، ثمّ هذه العبارة :

(١) الدّعوة إلى الإسلام ، ص : ١٨٣ .

(٢) تسامح الإسلام وتعصّب خصومه ، ص : ١١٥ ، عن : روح الثّورات ، غوستاف لوبون ، ص : ٤٤ .

(٣) الخوارج هنا يعني البروتستانت الذين خرجوا عن سلطة بابا روما الكاثوليكي .

« قَتَلَ الخوارج » ، كما أمر بإيقاد نيران الفرخ ، وبضرب المدافع ، وبتكليف الرِّسَام فازاري أن يَصوِّر على جدران القاتيكان مناظرها .

ومَّا يؤسف له أنَّ رجال التَّبشير من النَّصارى يتغافلون عن ساحة الإسلام وأهله ، ويكرِّسون مليارات الدُّولارات ، وكل أوقاتهم ، وكل نشاطهم لمحاربة الإسلام وتشويه سمعته ، وسمعة رسوله الكريم ، وهو الذي أمر المسلمين بحسن معاملة كل إنسان ، احتراماً (لِإِنْسَانِيَّتِهِ) ، أمَّا وقف ﷺ - كما أورد البخاري - لجنائز ، احتراماً وتلطُّفاً ، فقليل له : إِنَّهَا جنازة نصراني ، فقال ﷺ مُعلِّماً : « أَوَلَيْسَ إِنْسَاناً ؟ » .

وعلى الرَّغم من ذلك ، يقول المستشرق الفرنسي (كارادي فو Carra de Vaux) : « ظلَّ محمد زمنًا طويلاً معروفاً في الغرب معرفة سيئة ، فلا تكاد توجد خرافة ، ولا فظاظاة إلاَّ نسبوها إليه » ^(١) .

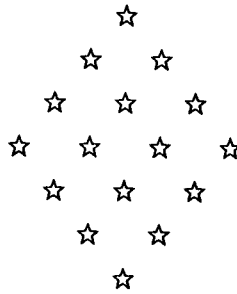
وقال (ليون روش) في كتابه : (ثلاثون عاماً في الإسلام) ^(٢) : « اعتنقتُ دين الإسلام زمنًا طويلاً لأدخل عند الأمير عبد القادر [الجزائري] دسياسة من قبل فرنسا ، وقد نجحت في الحيلة ، فوثق بي الأمير وثوقاً تاماً ، وأتخذني سكرتيراً ، فوجدت هذا الدِّين الَّذِي يُعَيِّبه الكثيرون أفضل دين عرفته ، فهو دين إنساني طبيعي اقتصادي أدبي ، ولم أذكر شيئاً من قوانيننا الوضعية إلاَّ وجدته مشروعاً فيه ، بل إنَّني عدت إلى الشريعة التي يسميها جول سيون الشريعة الطَّبِيعِيَّة فوجدتها كأنَّها أخذت عن الشريعة الإسلاميَّة أخذاً ، ثمَّ بحثت عن تأثير هذا الدِّين في نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالاً وكرماً ، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من نفوس الخير والرَّحمة والمعروف في عالم لا يعرف الشرَّ واللَّغو والكذب ، فالمسلم بسيط لا يظن بأحد سوءاً ، ثمَّ هو لا يستحلُّ محرَّماً في طلب الرِّزْق .. » .

(١) مناهج المستشرقين : ٢٢/١ ، عن كتاب (المحمدية) ، ص : ٢٠ (ط . باريس ١٨٩٧ م) .

(٢) الإسلام روح المدنيَّة ، ص : ٥٣ .

هذه شهادة سياسي فرنسي أقام في بلاد المسلمين ثلاثين سنة ، تعلّم في أثنائها اللّغة العربية وفنونها ، وقرأ العلوم الإسلاميّة ، وعاشر المسلمين في الجزائر وتونس واسطنبول ومصر والحجاز ، ولا شكّ أنّه قد اختبر بهذه المدّة الطويلة أحوال المسلمين من سائر الشرائح ، فهو إذا كتب يكتب عن رؤية وحكمة ومعرفة ، لا كما كتب بروكلمان والمنسيور كولي وكرومر ... من الأوهام والكذب والخلط ، لأنّ روح التعصّب كانت ترفرف فوقهم عندما كتبوا ما كتبوا .

من عرف الحقّ عزّ عليه أن يراه مهزوماً ، فكيف بمن رأى الباطل يسقط افتراءاته على الحقّ ظلاماً وحقدًا وتعصّباً ، والباطل على علم ويقين بأنّه يفتري ويكذب ، ويصمّ الآخرين بما فيه ؟



ظلم الأقليات غير الإسلامية في المجتمع الإسلامي وقهرها

يقول اللورد كرومر في كتابه (مصر الحديثة) : « إنَّ الإسلام يبتُّ روح التَّعصُّب في أهله ، ويجعلهم ينفرون من لا يدين معهم به ، وإنَّ القرآن يغرس في عقول متبَّعيه بُغْضَ الأغيار ، وحبَّ الانتقام »^(١) .

وكَلِّما ذُكِرَ الإسلام (شريعة للمجتمع) ، قيل : وما مصير الأقليات ؟!

لقد عاشت الأقليات الدِّينية والعرقية في المجتمع الإسلامي على امتداد عهوده أفضل بكثير ممَّا عاشت الأقليات في المجتمعات الأخرى ، وليس الأمر بغريب ، لأنَّ الإسلام - عقيدة ومنهجاً - يأمر أتباعه بالتَّسامح ، والصَّفح ، والإحسان :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المتحنة : ٨٧٠] .

وأوصى رسول الله ﷺ بهذه الأقليات الدِّينية - أي بأهل الذِّمة - خيراً ، والباحث في أحوال النَّصارى في العهد الرَّاشدي والأموي والعبَّاسي ، وفي أحوال اليهود في الأندلس ، وفي غيرها من أقاليم العالم الإسلامي ، يجد أنَّ لهم مالنا وعليهم ما علينا ، بدليل ، وصول كثير من أفراد هذه الأقليات إلى مراكز مرموقة في الدَّولة الإسلاميَّة ،

(١) الإسلام روح المدنيَّة ، ص : ٩١ .

وإن وُجِدَ في فترة تاريخية اضطهاد ، فهو اضطهاد ناشئ عن فساد الحكم والحاكم ، وهو اضطهاد عمّ المجتمع مُسْلِمَةً وغير مُسْلِمِهِ .

قال البطريق النسطوري (يشوع باف الثالث) ، في رسالة بعثها إلى المطران سمعان رئيس أساقفة فارس : « إنَّ العرب الذين منحهم الله سلطانَ الدُّنيا ، يشاهدون ما أنتم عليه وهم بينكم كما تعلمون ذلك حقَّ العِلْمِ ، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية ، بل على العكس ، يعطفون على ديننا ، ويكرمون قسنا وقديسي الرَّبِّ ، ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار »^(١) .

لقد كان للأقليات في ظلِّ (الحكم الإسلامي) من الحقوق المدنية ما يكفل لها العيش الكريم ، فمن واجبات الحاكم المسلم والدَّولة المسلمة ، المحافظة على أعراض هذه الأقليات غير المسلمة وأموالها وحرِّياتها الشخصيّة ، وكل ما تقوم به أو عليه الحياة الإنسانيّة الجديرة بالإنسان ، « فالإسلام ينظر إلى غير المسلمين في الدَّولة المسلمة ، على أنَّهم مواطنون لأقليات ، لهم من الحقوق ، وعليهم من الواجبات ما تستوجبه المواطنة في ظلِّ النظام الإسلامي »^(٢) .

وأكثر من ذلك : « لقد وضع الإسلام حدًّا للاضطهاد الديني بين المسيحيين في إسبانية ، فكفل لهم حرِّيّة العقيدة ، فصار المسيحي يفصح عن رأيه في شؤون دينه ، غير ملقٍ بالآ للكنيسة أو لرجال الدِّين الذين لم يستطيعوا في ظلِّ الحكم الإسلامي تطبيق ما كانوا يطبقونه قبل الفتح على مخالفيهم من أذى واضطهاد وسجن وتشريد وعقاب يصل إلى حدِّ القتل ، وكل الذي استطاعوا فعله هو المجادلة والحوار ، وهو موقف الإسلام في المسائل الخلافية حيث لا مكان للانتقام ، ولا سبيل إلى الأذى ، ولكن جدال بالتي هي أحسن في سياق من أدب المحاجّة ، ونطاق من سماحة القول ،

(١) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ١٠٢ .

(٢) الغزو الفكري والتَّيارات المعادية للإسلام ، ص : ٧٧ .

وكانت الدولة الإسلامية الأندلسية حين تحمي حرية الاعتقاد بين أصحاب المذاهب والآراء المسيحية المتخالفة ، لا تنصر فريقاً على فريق ، وإنما تقف من هؤلاء وأولئك موقف الحياد الكامل »^(١) .

« لقد ظلَّ نصارى الأندلس آمنين على شعائرهم وعقائدهم ، طالما كانوا يعيشون في ظلَّ الحكم الإسلامي ، فلما انحسر الحكم الإسلامي عن بعض البلاد ، ووقعوا تحت حكم الملوك النصارى ، عادت إليهم متاعبهم ، ولقوا من الاضطهاد ما لقوا ، ونشب صراع كبير اشترك فيه أنصار الشعائر المستعربية (يعني النصارى الذين عاشوا تحت الحكم الإسلامي) وأنصار الشعائر الرومانية ، وفي ذلك الصراع سالت دماء ، وزهقت أرواح »^(٢) .

أما الحقيقة التي لا يستطيع أحد إنكارها ، فهي ما عانتها - وتعانيه - الأقليات الدينية ، بل والمذهبية ، في معظم أنحاء العالم غير الإسلامي ، وفي دول أوربة بصورة خاصة^(٣) ، ودراسة لأحوال اليهود في معظم الدول الأوروبية ، مع مقارنة سريعة لأحوالهم في المجتمع الإسلامي ، يتبين الفارق ، وتوضح صورة من الذي ييئس بأتباعه روح التعصب ، ويجعلهم ينفرون ممن لا يدين بدينهم ، ومن الذي يغرس في عقول متبعية بغض الأغيار ، وحب الانتقام !!؟

لقد عاملت الدولة الإسلامية الأقليات فيها بروح من التسامح والإنسانية ، أما معاملة الأقليات معاملة التعصب والقمع ، والعنف والوحشية ، فأمر تعرفه دول أوربة حق المعرفة في وقتنا هذا ، وفي غيره من الأوقات ، فالأقليات المسلمة التي أجبرت في كثير من دول آسية وإفريقية على ترك دينها ، أو تضطهد حتى الموت ، نسأل عنها بعثات التبشير النصرانية في الشرق الأقصى ، وفي إفريقية .

(١) مناهج المستشرقين : ٣٠٢/٢ .

(٢) مناهج المستشرقين : ٣٠٢/٢ .

(٣) حتى (اللأسامية) مشكلة غربية صدرت إلينا .

(إسقاط) ، لأن أوربة تعلم علم اليقين ، ما فعلته الكنيسة - والبابا بالذات - من سحق الأقليات ، مع إذاقة كثير من رجال العلم المبرزين من النصارى أنفسهم ، أشد أنواع المظالم والعسف من أيدي إخوانهم في الدين بسبب أن أولئك ينتمون إلى طائفة غير طائفتهم ، ولقد وعى التاريخ أحداث (محاكم التفتيش)^(١) التي شكّلت مرسوم بابوي في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٤٧٨ م ، وما زال التاريخ يئن ألماً ويغضي خجلاً عند ذكر أعمال الكنيسة في أوربة عموماً ، والأندلس خصوصاً .. إنها هجيرة نافست فيها هجيرة القبائل المتوحشة ، وطاولت بها ما يفعله الوثنيون الذين يجعلون من أنفسهم قرباناً لألهتهم .

ويروي (ول ديورانت) صوراً مؤلمة مروّعة لما اقترفته المسيحية في إسبانية على يد رئيس الأساقفة الإسباني (أكرمينيس) ، الذي أقنع إيزابيلا وفرديناند بأن ينقضا عهدهما مع المسلمين باعتبار أنهم كفّرة ، فأصدرا في سنة ١٤٩٩ م مرسوماً يخيّر المسلمين : إمّا أن يدخلوا المسيحية ، أو يغادروا إسبانية ، ولم يكتف (أكرمينيس) بذلك ، بل قاد بنفسه حملة هجيرة لحرق التراث العربي الإسلامي ، فذهب إلى غرناطة وطلبيرة ، وأغلق المساجد ، ونصب المحارق العامة التي التهمت جميع الكتب والمخطوطات العربية تماماً .

وفي ١٨ شباط (فبراير) ١٥٠٢ م صدر مرسوم ملكي يخيّر المسلمين في إسبانية ، بين الدخول في المسيحية ومغادرة البلاد ، فاحتج المسلمون بأن أسلافهم سمحوا بالحرية الدينية لجميع العقائد والطوائف في الأندلس ، ولكن هذا الاحتجاج لم يلق استجابة تذكر ، بل حرّم المملكان (فرديناند وإيزابيلا) على الأطفال الذكور دون الرابعة عشرة ، والإناث دون الثانية عشرة أن يغادروا إسبانية مع آبائهم ، ممّا يعني إرغامهم على دخول المسيحية ، كما سمحاً للأمراء الإقطاعيين أن يسترقوا ما يشاؤون من المسلمين ، وأن يجروهم مكبلين بالأغلال في الشوارع والطرق .

(١) انظر أعمال (محاكم التفتيش) في كتاب : (تسامح الإسلام تعصّب خصومه) ، ص : ٧٩ .

ولقد وصف الكاردينال (ريشيه) مرسوم ١٥٠٢ م الآنف الذكر بأنه : « أكبر حدث همجي في التاريخ »^(١) .

وجرت أعمال التنصير بالفضاعة ذاتها في كل المدن الإسبانية ، دون الالتفات إلى صراخ المسلمين وشكاويهم وثوراتهم ، وعلى الرغم من فظاعة ما حدث ، فإن أعمال محاكم التفتيش تجاوزت كل حد ، وستظل على مدار التاريخ وصمة عار على جبين المسيحية والمسيحيين ، حيث أصدرت أحكاماً بالحرق ضد سبعة مسلم في إشبيلية ، ومئة وثلاثة عشر آخرين في (أبله) ، وفي مدينة طليطلة مثل أمام المحكمة ألف ومئتا شخص ، حكم عليهم بالإعدام في جلسة واحدة ، استغرق انعقادها بضع دقائق ، وكان يُطلب من المسلم إما التحول إلى النصرانية أو الموت حرقاً^(٢) .

ولما قاوم المسلمون التنصير وأبؤوه ، عُذوا ثواراً متصلين بالمغرب والقاهرة والقسطنطينية ، وبدأ القتل فيهم ، فثاروا في غرناطة وريفها (كالبيازين والبشرات) ، فزقوا بلا رافة ، وفي ٢٠ تموز (يوليو) ١٥٠١ م ، أصدر الملك الكاثوليكيان أمراً خلاصته :

« إنه لما كان الله قد اختارها لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة (!) فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، ويُعاقب المخالفون بالموت ، أو مصادرة الأموال » .

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها ، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه ، وأظهر تنصره ، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع ، و (الإعدام حرقاً) هو الحكم الغالب عند القس الذين يشهدون مع الملكين الكاثوليكين حفلات الإحراق^(٣) .

(١) قصة الحضارة : ٩٩/٦ .

(٢) رسالة الجهاد ، العدد ٧٥ ، ص ٥٠ (آذار - مارس ١٩٨٩ م) .

(٣) انظر (محاكم التفتيش) ص : ٩١ وما بعدها .

وفي إفريقيا ، يذكر (كارل بيتر) : إذا استطاع المبشرون تنصير حاكم في مقاطعة أو بلد ما ، أصروا عليه أن ينشر المسيحية في بلاده بالقوة ، وأن يعاقب بالقتل كل من دان بالإسلام ^(١) .

إنها سياسة الكنيسة أينما حلت ، أو وصلت .

قال (موريس) في كتابه (تاريخ الاستعمار : ٢١/١) : إذا أبت الأمة المقهورة أن تنتفع بنظام الأمور الذي تمنحهم إياه حكوماتهم المتدينية ، أصبح واجباً محتّم الأداء على الدول المتمدّنة أن تبسّدهم إبادة ، « إنه يجب أن يباد الأهل ، أو أن ينقص من عددهم حتّى يصبح حكمهم سهلاً ، وفي هذه العملية التي تخالف المدنيّة ، يجب أن تريق أمة الدولة الحاكمة كثيراً من دمائها ، وتنفق من غالي ذخائرها من أجل خاطر المدنيّة » ^(٢) .

وهذا ما فعلته هولندة - مثلاً - في إندونيسية ، لامع الأقليّات المسلمة ، بل مع الأغلبية المسلمة ، من حرق القرى ، وتدمير البلدان ، وقتل المؤمنين من النفوس البريئة في كلّ حادثة ، بعد أن أنزلت السكّان المسلمين منزلة العبوديّة أينما وجدوا ^(٣) .

الأقليّات .. سلعة تكال بمكيالين .

إذا كان المسلمون ٩٠٪ ، والمسيحيّون ١٠٪ - كما في إندونيسية مثلاً - نودي بحماية الأقليّات ورعايتهم ، لينعموا في مجبوحة من الأمن والسّلام والرّفاهية ، وليتمتعوا بفرص الازدهار والتسلّط على الأغلبية المسلمة .

أمّا إذا كان المسيحيّون ٩٠٪ أو ٨٠٪ ، والمسلمون ١٠٪ أو ٢٠٪ فلا حقوق للأقليّات .

(١) الهلال والصليب ، ص : ٧٢ .

(٢) الهلال والصليب ل ص : ١٧٧ .

(٣) الهلال والصليب ، ص : ١٨١ .

المسلمون في إريتريا ٨٠٪ من مجموع السُّكَّان ، وإدارة أرضهم ٩٠٪ من أعضائها نصارى .

وفي الحبشة أكثر من ٥٠٪ من مجموع السُّكَّان مسلمون ، لن نتحدث عن أحوالهم أيام هيلا سيلاسي ، أو أيام هيلا مريام ، فالفقر والبؤس والاستبعاد عن مراكز الحكم معروفة عالمياً .

أمّا في جنوبي الفيليبين فالأقليات المسلمة معرّضة لحرب الإبادة من عصابات (الإيلاجا) - أي الجرذان - التي ترتدي زياً موحداً مرسومًا عليه الصليب .

هذا نزر يسير عن معاملة الأقليات في المجتمعات غير المسلمة ، بينما حفظت مبادئ الإسلام لغير المسلم حقوقه ، وعرفته بواجباته التي لا تختلف كثيراً عن واجبات المسلمين ، وفي كلِّ الظروف عومِلَ غير المسلم (إنساناً) تُحْتَرَمُ إنسانيّته :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣/٤٩] .

و « الخلق كلُّهم عيال الله ، وأحبُّهم إلى الله أنفعُهُم لعياله » .

ومع هذا كلُّه ، يُتَّهم الإسلام بظلم الأقليات ، ويوصفُ المسيحيُّون بالتسامح والمحبة ، فأَيُّ ظلمٍ يصيب الإسلام وأهله حين (يُسَقِط) الغربيُّون الصليبيُّون علينا ما فيهم من أعمال وصفات ؟

الأقليات موجودة في المجتمع الإسلامي منذ أيامه الأولى ، ودليل تسامح الإسلام ، وجودهم في هذا المجتمع مع معابدهم ، أحراراً في عقائدهم وكتبهم ..

ولنسأل التاريخ الأوروبي كيف عومِلَ الكاثوليك في المجتمعات البروتستانتية ؟ وكيف عومِلَ البروتستانت في المجتمعات الكاثوليكية ؟ ويزكّرنا التاريخ مجيئاً : إنّها المذابح المتبادلة بينها ، وبالعجب .. كيف يقبلون الحقائق ، ويلصقون بغيرهم مالمصق بهم .



العصور الإسلامية المشرقة

عصور وسطى مظلمة

يشيع الغرب الاستشراق والتبشير ومن ورائهما الكنيسة ، أن الإسلام من نتاج العصور الوسطى ، والعصور الوسطى أعصر^(١) ظلام لم تأت بخير ، فقد كانت حرباً على العلم والعلماء والمعرفة^(٢) .

إسقاط جديد ، نوضحه بالتالي :

ماذنبننا نحن العرب والمسلمين ، وقد فرضت علينا التقسيمات التي وضعها الأوربيون للعصور التاريخية ، والتي تنسجم وتتفق مع العصور التاريخية التي شهدتها أوربة بالنسبة إلى بداياتها ونهاياتها ، فجعلوها : (قديمة ، ووسطى ، وحديثة ، ومعاصرة) ، وألبسونا هذه العصور كما لو كانت لنا ، فجاءت كتوب فصل لغيرنا ، فهو لا يتفق لا حجماً ، ولا شكلاً ، ولا لوناً ، ولا نوعاً مع ما يناسبنا .

لقد قالوا : تبدأ العصور الوسطى بسقوط رومة على أيدي البرابرة الجرمان سنة ٤٧٦ م ، حين انهارت في أوربة الحضارة اليونانية - الرومانية ، التي كانت تسود في العصور القديمة ، وساد أوربة دمار حضاري ، وانهيار فكري ، وتأخر اقتصادي ،

(١) جمع (العصر) : أغصَرُ وأغصار وعَصُر وعُصُر ، (اللسان : عصر) .

(٢) قلت لقنيس : العقل يقبل التوحيد ، ويرفض التثليث وينكره ، ويقبل الله قيوم السماوات والأرض ، ويرفض الله المصلوب .. فأجابني حرقياً : هذه أفكار دين الأعصر الوسطى المظلمة ؟! .

فعمَّها ظلام الجهل والتَّعصُّب والجمود. والتَّخَلُّف ، واسترَّ ذلك حوالي ألف عام ، واعتبروا سقوط القسطنطينيَّة نهاية لهذه العصور الوسطى المظلمة ، وذلك عام ١٤٥٣ م ، حيث بدأ عصر النَّهضة يشعُّ نوره في أوربة .

في هذه الفترة نفسها من التَّاريخ ، أي خلال ماسمَّته أوربة بالعصور الوسطى المظلمة ، ظهر في بلاد العرب الإسلام ، وبدأت دولته وتَّسعت رقعته وازدهرت حضارته ، فتقدَّمت العلوم ، وكثر العلماء ، وانتشرت في المشرق والمغرب المؤسَّسات العلميَّة من مدارس ومكتبات ، فكانت هذه الأعصر بالنَّسبة للمشرق العربي الإسلامي ومغربه وأندلسه ، أعصر العلم والتَّقدُّم والتَّسامح والرُّقي الحضاري ، فكيف نفرض عليه ثوباً أوربياً ممزقاً قدراً ، ونقول هذه هي العصور الوسطى ؟

إنَّ لكلَّ منطقة في العالم تقسيمات تاريخيَّة تتَّفَق مع أوضاعها ومميزاتها ، فنقول : بالنَّسبة لتاريخ العرب هناك عصور قديمة ، وعصر وسيط مشرق ذهبي ، وعصر حديث ، ولكلٍّ من هذه العصور ما يميِّزه ، ويجعله يختلف اختلافاً كبيراً عما هو عليه في أوربة .

ومن المنطق القول : تنتهي العصور القديمة بظهور الإسلام ، لتبدأ العصور الوسطى بظهوره ، فظهور الإسلام أبرز من سقوط روما في أيدي البرابرة عام ٤٧٦ م ، وأشدَّ تأثيراً في الحضارة الإنسانيَّة ، سقوط روما واقعة محلِّيَّة أو أوربيَّة على الأكثر ، بينما ظهور الإسلام وانتشاره كان ذا نتائج حضاريَّة عامَّة ، بعيدة الأثر في آسية وإفريقية وأوربة معاً .

سقوط روما قضاء على حضارة شائخة كانت في طريق الزَّوال ، ولقد كان بالإمكان أن تسقط بكل حدث آخر ، وسقوط روما كان متوقَّعاً ، لتغوص أوربة في ظلام دامس قروناً ، ثم أخذت تستردُّ أنفاسها بما عرفته من حضارتنا الإسلاميَّة .

أما الإسلام (دين التوحيد) الخالص ، فهو حضارة جديدة عالميّة ، ولم يترك الإسلام آسية الوثنيّة ، وأوربة البيزنطيّة ، وإفريقية السّاذجة على ما كانت عليه ، مثلاً فعل سقوط روما بأوربة ، بل نقل هذه القارّات الثلاث إلى حضارة جديدة فتيّة قويّة في الدّين واللّغة والسياسة والعلوم^(١) ..

ومع ذلك .. صحيح تماماً أنّ العصور الوسطى هي عصور ظلام ، وحرقت للعلماء ، ومحاربة للمعرفة .. هذا حقٌّ لا ريب فيه ، لكنّه لا ينطبق إلّا على أوربة ، إنّه ينطبق هناك ، ولا ينطبق هنا .

ينطبق هناك ..

عندما عاشت أوربة قرونًا طويلة ، من القرن الخامس الميلادي ، وحتى القرن الرابع عشر الميلادي ، تحت رحمة المثلثين القائلين :

« الجهل رأس العبادة » و « القذارة من الإيمان » .

هناك .. عندما رُسِمَت في عصورهم الوسطى خريطةُ الجنّة والنّار ، وعندما استدلّ السّير كونان دويل بتجاربه الشخصيّة على وجود الجنّة والنّار ، حيث قال :
إنّني أعرف أنّه توجد الآن آلاف من الأرواح تحوم حولنا^(٢) .

وفي مجال الطّب ، استمرّت الكنيسة حتّى أواخر القرن التّاسع عشر الميلادي ، تروّج للشّفاء بالمعجزات (التّدخل المعجز في الشّفاء) ، وصرّح القديس (أمبروز) أنّ قواعد الطّب مخالفة للعلم الإلهي وللتّهجد والصّلاة .

ولقد حضر العلامة (أندروديكسون وايت) صاحب كتاب : (تاريخ الصّراع بين اللاّهوت والعلم في المسيحيّة) ، حفلاً أقيم في كاتدرائيّة نابولي سنة ١٨٥٦ م ، حضره

(١) الباحث ، السّنة الثّانية ، العدد الثّاني (١٩٧٩) : د . عمر فروخ : « من أسس تجديد التّاريخ : إعادة النظر في تقسيم الأزمنة التّاريخيّة » .

(٢) المثل الأعلى في الأنبياء ، ص : ١٢٣ .

كبار رجال البلاط ، وكبار الشخصيات ، لتسجيل دم القديس (يانوريوس) حامي المدينة^(١) ، وكانوا يعمدون إلى تسجيل دمه كلما حلّ بالمدينة وباء ، إيماناً منهم بأنه إذا سال أنقذت المدينة ، أمّا هذه الدماء فعبارة عن مادة كيميائية موضوعة في قارورتين محفوظتين بين جدران الكاتدرائية في مكان بارد من شأنه أن يجمدها ، فإذا ماتناولها القسيس ، وأخذ يقلبها بين يديه بعض الوقت ، سالت المادة ، أمر علمي بسيط جداً ، ولكن كان الناس وعليّة القوم في نابولي يعتقدون حتى ذلك الوقت ، أنّ المادة التي تحتوي عليها القارورتان ، هي فعلاً دم القديس (يانوريوس) الذي يسيل ، إذا ما أراد القديس حماية المدينة^(٢) .

والحق أنّ أبسط قواعد الاحتياطات الصحيّة كانت مهملة تماماً في أوربة حتى منتصف القرن التاسع عشر ، ولقد حدث نتيجة لذلك من القرن السابع عشر ثلاثون طاعوناً كبيراً^(٣) .

هذا بعض ما كان هناك في العصور الوسطى ، حيث محاربة العلم ، ومحكمة العلماء ورجال الفكر ، على ما يعده رجال الدّين مخالفاً لآراء الكنيسة ، ولقد هلك بسبب هذه المحاكمات الكثير من العلماء ورجال الفكر .

أمّا هنا في العصور الوسطى .. فلم تشهد بلادنا وحضارتنا صراعاً بين العلم والدّين ، لأنّ الإسلام يحضّ على العلم بشتّى ميادينهِ وفروعه ، ولقد كانت كلٌّ من بغداد وقرطبة حاضرتيّ العالم العلميّتين ، بما فيها من جامعات ومكتبات وعلماء وطلبة علم .

فشتان بين (إسقاطهم) وبين الحقيقة التي تصفعهم ، وما أبعد الفارق بيننا وبينهم ، وها هو العلامة (دريبر) يصفهم بالحقيقة ، عندما قال في كتابه : (المنازعة

(١) هذه الحادثة السّخيفة في القرن التاسع عشر ، فما بالك في القرون الوسطى التي سبقت ؟

(٢) حضارة الإسلام ، جلال مظهر ، ص : ٥٣٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص : ٥٣٩ .

بين العلم والدين) : « إنّ جامعات المسلمين مفتوحة للطلّبة الأوربيّين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم ، وكان ملوك أوربة وأمراؤها يغدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها » .

لقد كانت بلادنا مصدر إشعاع فكري وعلمي حضاري إلى أوربة .

إنّ جربرت الفرنسي درس في مدارس إشبيلية وقرطبة ، وتزوّد بالعلوم العربيّة الإسلاميّة ، ثمّ نُصّب بابا في روما باسم سلفستر الثاني^(١) ، وأدخل معارف عرب الشرق والغرب إلى أوربة^(٢) .

والنصف منهم يعلم : « لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخّرت نهضة أوربة الحديثة عدّة قرون »^(٣) .

إنّ شمس الإسلام سطعت على الغرب في العصور الوسطى ، ولم تبدأ النهضة الأوربيّة الحديثة إلّا بعد اطلاع الأوربيّين على الحضارة الإسلاميّة ، كما أنّ التّرجمات عن العربيّة كانت المصدر الوحيد للتّدرّس في جامعات أوربة نحو ستّة قرون ، ويمكن القول إنّ تأثير المسلمين في بعض العلوم كعلم الطّب مثلاً ، دام إلى زمن متأخّر جداً ، فقد بقيت كتب ابن سينا تدرّس في جامعة مونبلييه إلى أواخر القرن الماضي .

وماذا بعد شهادة (غوستاف لوبون) ، الذي تمنّى لو أنّ العرب استولوا على فرنسا لتغدو باريس مثل قرطبة في إسبانية ، مركزاً للحضارة والعلم ، حيث كان رجل الشارع فيها يكتب ويقرأ ، ويقرض الشّعراً أحياناً ، في الوقت الذي كان فيه ملوك أوربة لا يعرفون كتابة أسمائهم ويبصون بأختامهم .

ويضيف (لوبون) ساخراً منّ يقارن العرب المسلمين في العصور الوسطى

(١) سلفستر الثاني Sylvestre ، بابا روما : (١٠٠٣-٩٩٩ م) ترجم إلى اللاتينيّة كتباً عربيّة كثيرة .

(٢) تاريخ العرب العام ، سيديو ، ص : ٣٧٨ ، ترجمة عادل زعيتر .

(٣) القول للأستاذ (ليبري) ، روح الدّين الإسلامي ، ص : ٢٧٠ .

بالأوربيين في الوقت ذاته : « فقد كان الوضع على عكس الوقت الحاضر تماماً ، العرب هم المتحضرون ، والأوروبيون هم المتأخرون ، ولا أدل على ذلك من أننا نسمي تاريخ أوربة في ذلك الوقت العصور المظلمة » .

قال الإمام محمد عبده في ردّه على هانوتو : إنّ أوّل شرارة ألهبت نفوس الغريبيين فطارت بها إلى المدينة الحاضرة ، كانت من تلك الشّعلة الموقدة ، التي كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدّين المسيحي على إطفائها مدّة قرون ، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، واليوم يرى أوربة مانبت في أرضهم بعدما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبل مطاردة العلم والحريّة وطوال المدينة الحاضرة .

إنّ العهد الذهبي لأمتنا الإسلاميّة ، كان في الأعصر الوسطى ، حيث كان الكتاب يوزن بالذهب ، وحينما ملك أجدادنا ناصية العلم ، ملكوا ناصية العالم ، لذلك قال (هالميارد) في كتابه : (الكيمياء حتّى عصر نيوتن ، ص : ١٠) ، بعد أن عدّد فضل المسلمين في التّطبيقات العلميّة للكيمياء العمليّة : « لكلّ هذه الخيرات التي حقّقها لنا الباحثون المسلمون ، دعنا تقدّم فروض الولاء والتّقدير لأتباع محمّد » .

وشهادة أخرى يقدّمها (نيكلسون) : « وما المكتشفات اليوم لتعدّ شيئاً مذكوراً بالقياس إلى ماندين به للرؤاد المسلمين ، الذين كانوا قبساً مضيئاً لظلام العصور الوسطى في أوربة » .

إنّ عصور أوربة الوسطى ، عصور مظلمة يقيناً ، حيث حاربت الكنيسة العلم ، وأحرقت العلماء ، وجعلت منهجها قروناً :

« الجهل رأس العبادة » .

و « القنطرة من الإيمان » .

ومن هنا جاء (الإسقاط) ، رمتني بدائها وانسلّت .

يَعْبُدُ المسلمون ثالثاً؟!!

كلُّ شيءٍ خطر في البال ، إلاَّ نسبة عبادة (الثالث) إلى الإسلام .
جاء في ملحمة رولان ^(١) ، والتي تمثِّل فرسان شارلمان وهم يحطِّمون أصنام
المسلمين ، أنَّ المسلمين يعبدون ثالثاً مؤلفاً من : ترفاجانت ، ومحمد ، وأبولون ^(٢) .
واستدلَّ بعض القُسس في دلهي - كما يذكر رحمة الله خليل الرَّحمن الهندي ^(٣) - في
إثبات التثليث في الإسلام ، بقوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، فيه ثلاثة
أسماء (الله الرَّحمن الرَّحيم) ، فيدلُّ على التثليث ^(٤) .

وسمع بعض الظُّرفاء في مدينة (دلهي) قول المبشِّر في إثبات التثليث
بقوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم فقال له : إنَّكَ قَصَّرت ، عليك أن تستدلَّ بالقرآن

(١) ملحمة رولان Chanson de Roland كُتِبَتْ في القرن الحادي عشر الميلادي من قبل الشاعر النورماني
(تيرولد) عن حدث وقع في القرن الثامن الميلادي ، طُفَّت عليها صفة الأسطورة ، وتمجيد شارلمان
دون سند من الواقع ، ومن أخطائها التاريخية ، قولها إنَّ شارلمان مكث في إسبانية سبع سنوات
لإخضاعها ، وقولها دانت لشارلمان جميع إسبانية المسلمة ماعدا سرقسطة ، مع أنَّ شارلمان عندما غزا
إسبانية لم يستطع احتلال سرقسطة ، فارتدَّ شمالاً في تموز ٧٧٨ م ، وفي ممَرٍّ من الممرَّات الجبلية قرب
(بنبلونة) يسمَّى مر رونسفال Roncevailes أو (باب الشَّيزري) هاجم المسلمون والبشكنس جيش
شارلمان بتدبير من صقر قریش ، وأبادوا نصف جيش شارلمان ، فعاد إلى فرنسة يجرُّ أذبال الخيبة ،
(مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، ص : ٧٧ ، المسلمون في أوربة ، ص : ١٢٤) .

(٢) الغزو الفكري ، ص : ١٣ . (٣) إظهار الحق : ٤٩/١ .

(٤) أسماء الله الحسنى تسعة وتسعون ، فهل يعني ذلك تعدُّد الآلهة في الإسلام!؟!!

على التسبيح ووجود آلهة بمبدأ سورة المؤمن (غافر) وهو هكذا ﴿ حم ☆ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ☆ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ ، بل عليك أن تقول : إنه ثبت وجود سبعة عشر إلهاً من القرآن ، بثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، التي ذكر فيها سبعة عشر اسماً من الذات والصفات متوالية .. (إظهار الحق : ٨٨/١ و ٨٩) .

« إنَّ إله الإسلام جبارٌ مرفَّعٌ ، بينا إله المسيحية عطوفٌ متواضعٌ ، ظهر في صورة إنسان هو الابن الإله ، فعقيدة التثليث المسيحية قرَّبت الإنسان من الإله ، وعقيدة التوحيد الإسلامية باعدت بينهما ، وجعلت الإنسان خائفاً متشامئاً » ^(١) .

و « إنَّ أساس العقيدة العريية كانت الوثنية العميقة الجذور » ^(٢) .

أولاً .. ما حرص الإسلام على شيء في صلب عقيدة المسلم حرصه على التوحيد الخالص : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١١٦/٤] .

وجعل التوحيد المصنَّى في سورة الإخلاص : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ☆ اللَّهُ الصَّمَدُ ☆ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ☆ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١/١١٢-٤] .

أمَّا التثليث في الإسلام ، فقد جاء في القرآن الكريم في معرض التنديد به ، ونبذه ، ورفضه .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ^(٣) فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

(١) مناهج المستشرقين ٢٢/١ ، عن المجلة التبشيرية (العالم الإسلامي) تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٥ م .

(٢) القول للمستشرق ميور Muir ، مناهج المستشرقين : ٦٤/١ .

(٣) والخلوقات كلها منه : ﴿ وَسَخَّرْ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ [المجاثية :

[١٣/٤٥] .

وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿ [النساء : ١٧١/٤] .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ^(١) أَنْظِرْ كَيْفَ نَبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿ [المائدة : ٧٣/٥ - ٧٥] .

والتثليث دخیل علی المسیحیة الّتی أنزلها الله علی المسیح علیه السّلام :

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ ^(٢) قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿ [التوبة : ٣٠/٩] .

لقد عرفت العقائد الوثنيّة القديمة جميعها التثليث ، « لا تخلو كافّة الأبحاث الدينيّة المأخوذة عن مصادر شرقيّة ، من ذكر أحد أنواع التثليث ، أو التولّد الثلاثي (أي الآب والابن وروح القدس) » ^(٣) .

« كان عند أكثر الأمم البائدة الوثنيّة تعاليم دينيّة جاء فيها القول باللاهوت الثالوثي (أي إنّ الإله ذو ثلاثة أقانيم) » ^(٤) .

« وكان الوثنيّون القدماء يعتقدون بأنّ الإله واحد ، ولكنّه ذو ثلاثة أقانيم » ^(٥) .

(١) ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ كسائر البشر ، وهذا يثبت الحاجة إلى الطّعام والشّراب ، وإلّاه منزه عن الاحتياج ، وفيها إشارة إلى ما يلزم عن تناول الطّعام والشّراب من فضلات !
يضاهئون : يشاكلون ويقلّدون ، يشاهون ويجارون (ابن كثير : ٣٤٨/٢) .

(٢) القول لبرتشر في (خرافات المصريّين الوثنيّين ، ص : ٢٨٥) .

(٣) موريس : (الآثار الهنديّة القديمة : ٣٠/٦) .

(٤) سكّان أوربة الأول ، ص : ١٩٧ .

« وإذا أرجعنا البصر نحو الهند ، نرى أنَّ أعظم وأشهر عباداتهم اللاهوتية هو التثليث ، (أي القول بأنَّ الإله ذو ثلاثة أقانيم : براهما ، وفشنو ، وسيفا) » ^(١) .

« لقد وجدنا بأنقراض هيكل قديم ، دكَّه مرور القرون ، صنأ له ثلاثة رؤوس على جسد واحد ، والمقصود منه التعبير عن التَّالوث » ^(٢) .

« وكما نجد عند الهنود ثالوثاً مؤلفاً من براهما وفشنو وسيفا ، وكذلك نجد عند البوذيين ، فإنهم يقولون إنَّ بوذا إله ، ويقولون بأقانيه الثلاثة » ^(٣) .

« والبوذيون الذين هم أكثر سكَّان الصَّين واليابان يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ، يسمُّونه (فو) ، ومتى ودُّوا ذكر هذا التَّالوث النقي يقولون التَّالوث النقي (فو) ، ويصوِّرونه في هياكلهم بشكل الأَسنام الَّتِي وجدت في الهند ، ويقولون أيضاً : (فو) واحد ، لكنَّه ذو ثلاثة أشكال ، ويوجد في أحد المعابد المختصة (بيوتالا) في منشورية ، تمثال (فو) مثلث الأقانيم » ^(٤) .

وقال (دوان Doane) : « وأنصار لاوكومتذا ، وهو الفيلسوف الصَّيني المشهور وكان قبل المسيح [عليه السَّلام] بأربع سنين وستمئة ، يدعُّون (شيعة تاوو) ، ويعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ، وأساس تعاليم فلسفته اللاهوتية أنَّ (تاوو) ، وهو العقل الأبدي انبثق منه واحد ، ومن هذا الواحد انبثق ثانٍ ، ومن الثَّاني انبثق ثالث ، ومن هذه الثَّلاثة صدر كلُّ شيء ، وهذا القول بالتَّوليد والانبثاق أدهش العلامة موريس ، لأنَّ قائله وثني » ^(٥) .

(١) دوان : (خرافات التَّوراة والإنجيل وما يماثلها في الديانات الأخرى ، ص : ٣٦٦) .

(٢) موريس : (الآثار الهندية القديمة : ٣٧٢/٤) .

(٣) فابر في : (أصل عبادة الأوثان) : Faber-Origin of Heathen Idolatry

(٤) دوان ، ص : ٣٧٢ ، ودافس في كتابه (الصَّين) : ١٠١/٢ - ١٠٣ .

(٥) دوان (خرافات التَّوراة ..) ، ص : ١٧٢ .

وفي الديانة المصرية القديمة : (جب) إله الأرض ، تزوج (نوت) إلهة السماء ، وأنجبا (رع) أي الشمس ^(١) . وكان كهنة معبد ممفيس يعبدون هذا الثالوث المقدس .

والبابليون ^(٢) والآشوريون ^(٣) كان لهم ثالث مقدس أيضاً : مردوخ الكلمة ، ويدعونه أيضاً (ابن الله البكر) ، وأنو وبعل ، ولكن بدل الآشوريون مردوخ البابلي بالإله الوطني (آشور) .

كما اقتبسوا من البابليين أيضاً الثالوث : سين (إله القمر) ، وهو الابن الأكبر للإله إنليل ، وشماش إله الشمس ، وهو القاضي الأعظم ، إله العدالة والحق والنور ، وعشتار ، وهي نجمة الزهرة ابنة أنو ، وأحياناً ابنة سين ، وهي إلهة الحب والحرب والخصب ، وأصبحت عشتار قرينة آشور ، وتسمى (بعليت) ربّة السماء والمعارك .

واليونانيون يقولون إنّ الله مثلث الأقانيم ، وكل الأشياء عملها الإله الواحد مثلث الأسماء والأقانيم ^(٤) .

وكان الرومان الوثنيون القدماء يعتقدون بالتثليث ، وهو أولاً الله ، ثم الكلمة ، ثم الروح ^(٥) .

والفرس عبدوا إلهاً مثلث الأقانيم ، وهو : أورمزد ، ومترات ، وأهريمان .

أورمزد : الخلاق ، مترات : ابن الله المخلص والوسيط ، وأهريمان : المهلك ^(٦) .

وجاء في كتابات (زوستراسان) الشرائع الفارسية : إنّ الثالوث اللاهوتي مضيء

(١) تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ص : ١٢٤ ، للأستاذ عبد العزيز عثمان .

(٢) البابليون : في بلاد ما بين النهرين : (١٨٩٣-١٥٩٤ ق.م) .

(٣) الآشوريون : في بلاد ما بين النهرين : (١٣٩٢-٦١٢ ق.م) .

(٤) كتاب : ترقّي التّصورات الدّينية ٣٠٧/١ .

(٥) العلامة (فسك) في كتابه : الخرافات ومخترعوها ، ص : ٢٠٥ .

(٦) دوان ، ص : ٨٠٩ .

في العالم ، ورأس هذا الثلاث مونا ، وكان الآشوريون والفينيقيون يعبدون آلهة مثلثة الأقانيم^(١) .

« وكان للفنلنديين - وهم برابرة كانوا يسكنون شمالي بروسيا في القرون الخالية - إله اسمه (تريكلاف) ، وقد وجد تمثال له في (هرتونجبرغ) له ثلاثة رؤوس على جسد واحد »^(٢) .

والإسكندنافيون ، عبدوا إلهاً مثلث الأقانيم ، هو : أودين ، وتورا ، وفري ، ويقولون عن هذه الثلاثة أقانيم : إنها إله واحد ، ووجد صنم يمثل هذا الثلاث المقدس بمدينة أوبسال من السويد ، وكان أهالي السويد ، والنرويج ، والدانمارك يفاخرون بعضهم في بناء الهياكل لهذا الثلاث^(٣) .

وسكان سيبيرية القدماء عبدوا أيضاً مثلث الأقانيم^(٤) .

والمكسيكيون عبدوا إلهاً مثلث الأقانيم يدعونه (تزكتليوكا) ، ومعه (إهوتز ليبوشتي) ، و (تلا لوكا)^(٥) .

يقول المطران برتولوميو : أرسلت القس فرنسيس هرمنديز إلى المكسيك ليبشر بين الهنود المحر - وكان يتقن لغتهم - بالديانة المسيحية ، وبعد مضي عام على تبشيره ، أرسل كتاباً إلى المطران ، يقول فيه : إن الهنود المحر يؤمنون بإله كائن في السماء ، وإن هذا مثلث الأقانيم ، وهو الإله الآب ، والإله الابن ، والإله روح القدس ، وهؤلاء الثلاثة إله واحد ، واسم الآب (بزونا) ، واسم الابن (باكاب) مولود من عذراء ، واسم الروح القدس (إيكهيا) ، ويعبدون صنماً اسمه (تنكاتنكا) ، يقولون عنه إنه واحد ذو ثلاثة أقانيم ، وإنه ثلاثة أقانيم إله واحد .

(١) الديانات القديمة : ٨١٩/٢ .

(٢) العلامة (بارخورست) في القاموس العبراني .

(٣) دوان ، ص : ٣٧٧ .

(٤) العقائد الوثنية في الديانة المسيحية ، ص : ٤٦ .

(٥) كنسيرو (آثار المكسيك القديمة) : ١٦٤/٥ .

وتحير القديس جيروم^(١) ، كما تحير الآباء السابقون ، من التطابق الحاصل بين التثليث في الديانات الوثنية القديمة ، وبين التثليث في المسيحية : « فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة : الآب ، والكلمة ، وروح القدس ، وهؤلاء الثلاثة هم واحد » ، [رسالة يوحنا الأولى : ٧/٥] ، إلا أن لودعيتهم ونباهتهم عزت ذلك إلى تدبير الشيطان الذي فعل ذلك قبل ظهور عيسى ، ليجعل دينهم هزواً وسخرية .

صدق الله العظيم : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠/٩] .
ومع التثليث ، عرف الوثنيون الصلب والفداء أيضاً .

ورد عن الهنود بأن (كرشنا) المولود البكر ، الذي هو نفس الإله (فشنو) ، والذي لا ابتداء ولا انتهاء له على رأيهم ، تحرك حنواً كي يخلص الأرض من ثقل حملها ، فأتاها وخلص الإنسان بتقديمه نفسه ذبيحة عنه ، فصلب .

وكان الرومان واليونان يقدمون أنفسهم ذبيحة للآلهة ، استرضاء لها ، وكانوا في مصر يقدمون من البشر ذبيحة لفداء وخلص الآخرين .

قال (هيجن) نقلاً عما كتبه (أندراوا الكروز يوس) ، وهذا الأخير أول أوربي دخل بلاد نيبال والتيت ، وقال عند تكلمه عن الإله (أندرا) الذي يعبدونه ويقولون إنه سفك دمه بالصلب ، وثقّب بالمسامير كي يخلص البشر من ذنوبهم ، إن صورة الصلب موجودة في كتبهم .

وعبد المكسيكيون إلهاً مصلوباً ، دعوه المخلص والفادي ، ويدعون ابن الله بلغتهم (باكوب) أو (أوبوكو) .

هذا غيض من فيض ، وقليل من كثير ، وومضة سريعة ، وقطوف قليلة مختارة

(١) القديس جيروم هو : أوسابيوس هيرونيوس : (٣٤٧ - ٤٢٠ م) : من آباء الكنيسة ، كان واحداً من أكبر المدافعين عنها ، ترجم جزءاً كبيراً من (الكتاب المقدس) من العبرية إلى اللاتينية .

عن التثليث عند النصارى ﴿يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ ، عقيدة أدخلها (شاول) بولس إلى المسيحية ، بعد التوحيد الذي أنزل على السيد المسيح .

(إسقاط) لم يخطر في بال ، المسلمون يعبدون ثالوثاً ، أحد أقانيه (محمد) . عبد النصارى ثالوثاً أحد أقانيه (يسوع) ، فأسقطوا ما فيهم - والعقل يأبى التثليث ، ويرفض غير التوحيد - على المسلمين ، يقول الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ، مخاطباً نبيه محمداً ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠/١٨] .

وحين وفاة رسول الله ﷺ ، نزل نبأ وفاته على الصحابة كالصاعقة ، ولم يكد بعضهم يصدق بهذا النبأ ، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندها ، مخاطباً المسلمين :

« مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ » ^(١) ، هذه عقيدة المسلم ، لا ما يدعون في (إسقاطهم) .

ولم يخل الغرب من صاحب كلمة حق ، يقولها ولو أغضب الكنيسة ، يقول (كلود إيتان سافاري) في مقدمة ترجمته للقرآن الكريم ^(٢) :

« أسس محمد ديانة عالمية تقوم على عقيدة بسيطة لا تتضمن إلا ما يقره العقل من إيمان بالإله الواحد الذي يكافئ على الفضيلة ، ويعاقب على الرذيلة ، فالغربي المتنور وإن لم يعترف بنبوته ، لا يستطيع إلا أن يعتبره من أعظم الرجال الذين ظهروا في التاريخ » .

(١) ابن هشام : ٦٥٥/٢ ، ورواه البخاري مطولاً في باب مرض النبي ﷺ .

(٢) Clude Etienne Sawary: Le Coran: 2, ed, Paris 1783.

خاتمة

ومليحة شهدت لها ضرائها
والفضل ما شهدت به الأعداء

وبعد ..

ما حوته دفتنا هذا الكتاب ، بعض ما كان من المفروض تقديمه للقارئ العربي عموماً ، والمسلم خصوصاً ، ليعلم (إسقاط) التبشير والاستشراق على دينه وعقيدته ، ولعلّ بعضهم سيرى فيما قدّمنا تهجماً وعنفاً ، وعندها سيوجّه اللوم إلينا قائلاً : ألم يكن من الممكن تخفيف اللّهجة !؟

اللوم لن يقع علينا ، لأننا ما قمنا إلا برّد الافتراءات ، وتفنيد الإسقاطات ، وفضح الأكاذيب والإفك ، حباً للحقيقة ، وإنصافاً لعقيدة ، وظّفت مليارات الدولارات ، ومئات الألوف من المبشرين ، للافتراء عليها ، ومحاربتها بشتى الأساليب غير الشريفة .

اللوم يقع على عاتق من افترى وأسقط ، مستغلاً جهل الجماهير في أوربة بالعقيدة التي تحدّثهم الكنيسة عنها ، ومستغلاً جهل عدد كبير من أبناء المسلمين بدينهم ، لعزوفهم عن دراسته ، أو اطلاعهم على كلّ جديد في ساح الفكر ، ولبعدهم العجيب عن المطالعة ، أو الاستزادة منها والمتابعة في أحسن الأحوال .

وليعلم التبشير والاستشراق ، ومن على نهجها ، مهما قالوا من إسقاطات عن ديننا ، وما يقولون من إسقاطات جديدة إن بقي في رحاب دجلهم ، أو ربوع

كذبهم إسقاطات يريدون رمي الإسلام ونبیّه بها^(١) ، أنه من صلب عقيدتنا الإسلامية احترام السيّد المسيح عليه السّلام ، وأمه مريم الطّاهرة البتول ، واحترام جميع الأنبياء والمرسلين ، مع روح من التّسامح والمودّة والمحبة والألفة ، لاتزال الكنيسة تنكرها ، ولا تقرّها ، ولا تدنو منها ولو خطوة واحدة :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥/٢] .

هذا جزء يسير من عقيدة المسلم : ﴿ لَا تَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ ، والبابا (إينوشانيوس الثالث) يقول عن محمد ﷺ إنه (المسيح الدّجال)^(٢) .

ويقول (الإكليروس) لرعاياه : كان محمد يدعو النّاس لعبادته في صورة وثن من ذهب ، كان يصنع من أنفاس الأحجار ، والمعادن في أحكم صنع ، وأدقّ إتقان .

وفي قواميسهم (معاجهم اللّغويّة) يسمّون محمداً ﷺ (ماهوند : Mahound) ، وهذا يعني كما في معجم (Cassell's) : النّبي المزيف محمد ، والرّوح الشريرة ، والإله المزيف ، والشّيطان ، وهي في الفرنسيّة أيضاً (ماهون Mahun) وتعني المعاني القميئة السابقة .

وبلغ بهم الحقد حتّى أشاعوا في كتاب قصص محمد : أن الإسلام يحيز اشتراك جملة رجال في زوجة واحدة !

(١) من إسقاطاتهم حديثهم عن زوجات النّبي ﷺ متناسين الفضائح الجنسيّة في أدبرتهم وكنائسهم ، (انظر : سيرة بالتازاركوسا ، البابا يوحنا الثالث والعشرين ، تأليف : اليكسندر باراديسيس ، ترجمة : بسام اسخيطه ، دار طلاس ، ١٩٨٥) .

(٢) الغزو الفكري ، ص ١٣ .

متناسين سؤالاً يخطر على بال قارئ هذه العبارة فوراً : مَنْ أكلة لحم الخنزير ، نحن أم الأوربيون !!؟

وإذا كان البابا (يوحنا بول الثاني) في منشوره يبيّن أنّ هناك ميلاً سلبياً في الكنيسة ، وهي تلاقي مصاعب داخلية وخارجية في الاندفاع التبشيري نحو غد المسيحيين ، بينما يشهد العالم تزايداً في الإقبال على الإسلام ، وانحساراً في المناطق المسيحية في الشرق الأدنى وإفريقية ، وجسوراً للإسلام تزايد في جنوبي أوربة ، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي يتحدّى انتشار المسيحية ، أو التأثير على المسلمين ، فراح البابا يطلب من الولايات المتحدة تعزيز الدّعم المالي لمضاعفة جهود التبشير .. كان من الأجدر له أن يبحث عن سبب كون الإسلام الأوّل بين العقائد في العالم انتشاراً ، وبدعوة عفوية ، دون جهود مركّزة تذكر ، ليعلم يقيناً ، أنّ العقل اليوم - ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين - أصبح الحَكَم في اعتناق العقيدة ، كما أصبح تحكيم العقل أساساً في مناقشة طروحات الشرائع المختلفة .

لقد قلت منذ سنة ١٩٧٤ في : (آراء يهدمها الإسلام) :

« أتوقّع جازماً زوال الفلسفة المادّية وتداعيتها بشكل كامل مع نهاية هذا القرن ، أو في مطلع القرن القادم ، وستصبح تاريخاً أمام ضربات العِلْم وحقائقه ، تُدرّس مع ميكانيك نيوتن التقليديّة كمرحلة فكريّة مرّت على البشريّة ، وسيجد العالم نفسه أمام واقع يدفعه بالحاح إلى معرفة الله ، لا كبشر مثلنا ، بل قوّة عظمى تسيّر وتنظّم الكون ، وبها يقوم الكون ، وسيجد العالمُ نفسه بحاجة إلى دين يلائم العصر ، يجمع بين العِلْم والإيمان ، دين يجعل الإيمان مبنياً على العِلْم ، ويرفع العِلْم إلى مرتبة العبادة ، ولن يجد أمامه إلا الإسلام ليس غير » .

أذكر هذا (التَّوَقُّع) الذي تحقَّق منه أكثر من تسعين بالمئة ، والذي كان سنده ،
أنَّ كلَّ عقيدة تخالف الفطرة البشريَّة ، والعقل السَّليم ، ستُرفض ، وستنهار ، وسيُفْتَش
عن البديل ، ولن يكون بديل غير الإسلام لأنه :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ
ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الرُّوم : ٣٠/٣٠] .

وعدد لا يستهان به من المبشرين يعلمون الحقيقة اليوم :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ
لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦/٢] .

أما قال فردريك نيتشه (الفقرة ٣٨ في : عدو المسيح) بشأن (الإكليروس) :

« لا يخطئون فقط في كلِّ جملةٍ يقولونها ، بل يكذبون ، أي إنهم لم يعودوا أحراراً
في أن يكذبوا ببراءة ، وبسبب الجهل » .

إنها إسقاطات ، شعوراً بالنقص .

ولكنها إسقاطات فاضحة مكشوفة ، لا يلجأ إليها من أوتي ولو قدراً بسيطاً من
الصدق أو الخلق الكريم ، أو الإيمان بالله .

﴿ بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا
تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨/٢١] .

صدق الله العظيم

والحمد لله ربَّ العالمين أولاً وآخراً

☆ ☆ ☆

المصادر والمراجع

- أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي : د . صابر طعيمة ، عالم الكتب ، ط ١ ، سنة ١٩٨٤ م .
- آراء يهدمها الإسلام : شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، ط ١ ، سنة ١٩٧٧ .
- أسطورة تجسّد الإله في السيّد المسيح : أشرف على التحرير البروفيسور جون هيك ، عربيّه د . نبيل صبحي ، دار القلم بالكويت ، ط ١ ، ١٩٨٥ .
- الإسلام : هنري ماسيه ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٨٣ .
- الإسلام الأمس واليوم : محمد أراغون ، وكوي غارديه ، ترجمة علي المقلد ، دار التنوير ، بيروت ، ١٩٨٣ .
- الإسلام بين العلم والمدنيّة : الإمام محمد عبده ، كتاب الهلال ، العدد ١٤٤ سبتمبر ، ١٩٦٠ .
- الإسلام روح المدنيّة ، أو (الدّين الإسلامي واللّورد كرومر) : مصطفى الغلاييني بيروت ، ١٣٢٦ - ١٩٠٨ .
- الإسلام في قصص الاتّهام : شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، ط ٥ ، سنة ١٩٨٢ .
- الإسلام كبديل : الدكتور مراد هوفان ، مؤسسة باقاريا ، ومجلّة النّور الكويتيّة ، ط ١ ، ١٩٩٣ .
- أصول علم النّفس : د . أحمد عزّت راجح ، المكتب المصري الحديث ، الإسكندريّة ، ط ٨ ، سنة ١٩٧٠ .
- إظهار الحقّ : الشّيخ رحمة الله خليل الرّحن الهندي ، مكتبة الثّقافة الدّينيّة ، القاهرة ، ط ١ ، سنة ١٩٨٦ .
- أضواء على المسيحيّة : متولّي يوسف شلي ، (المجلس الأعلى الأندونيسي للدّعوة الإسلاميّة) ، الدّار الكويتيّة ، للطّباعة والنّشر والتّوزيع ، ط ٢ ، سنة ١٩٧٣ .
- الأعلام : خير الدّين الزّركلي ، دار العلم للملّايين ، بيروت ، ط ٦ ، سنة ١٩٨٤ .
- تاريخ أوربّة في العصور الوسطى : هـ . ا . ل فيشر ، دار المعارف بمصر ، ط ٣ ، (بلا تاريخ) .
- تاريخ الدّولة العربيّة : يوليوس فلهاوزن ، ترجمه عن الألمانية د . محمد عبد الهادي أبو ريده ، الألف كتاب (١٣٦) لجنة التّأليف والترجمة والنّشر ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- تاريخ الشّرق الأدنى القديم : عبد العزيز عثمان ، جامعة دمشق ، ١٩٦٣ .
- تاريخ الشّعوب الإسلاميّة : كارل بروكلمان ، دار العلم للملّايين ، بيروت .

- تاريخ الطُّبري : دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠ ، (ذخائر العرب ٣٠) .
- تاريخ العرب : لويس إميلي سيديو ، طبعة عيسى البابي الحلبي ، ط ٢ ، سنة ١٩٦٩ .
- تاريخ العرب (مطوّل) : فيليب حتّي ، دار الكشاف ، بيروت .
- تبذُّد أوهام قيس (الحقيقة العلميّة فوق الدّين النّصراني) : د . فرانز غريس ، مطبعة دار الطبّاعة (الضّيّاء) ، بوينس آيرس ، الأرجنتين ، ترجمه عن الإسبانية : خليل سعيد ذو الفنى .
- التبشير والاستعمار : د . خالدي ود . فروخ ، منشورات المكتبة العصريّة ، صيدا ١٩٨٦ .
- تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليّين : أحمد زين الدّين المعبري المليباري ، مؤسّسة الوفاء ، بيروت ، ١٩٨٥ .
- التسامح والتعصّب : محمّد الغزالي ، دار الكتب الحديثة ، مصر ، ط ٣ ، سنة ١٩٦٥ .
- تغطية الإسلام : د . إدوارد سعيد ، مؤسّسة الأبحاث العربيّة ، ط ١ ، سنة ١٩٨٣ .
- حاضر العالم الإسلامي : لوثروب ستودارد ، ترجمة عجاج نويّض ، دار الفكر ، بيروت ، ط ٤ ، سنة ١٩٧٣ .
- الحركة الصّليبيّة : د . سعيد عبد الفتّاح عاشور ، مكتبة الأنجلو المصريّة ، القاهرة ، ط ١ ، سنة ١٩٦٣ .
- حضارة الإسلام : جلال مظهر ، مكتبة الحانجي ، دار مصر للطباعة ، القاهرة .
- حضارة العرب : غوستاف لوبون ، دار إحياء التّراث العربي ، بيروت ، ط ٣ ، سنة ١٩٧٩ .
- الحضارة العربيّة الإسلاميّة : شوقي أبو خليل ، منشورات كلّيّة الدّعوة الإسلاميّة ، طرابلس ، ١٩٨٧ .
- دراسات في الفلسفة الإسلاميّة : د . محمود قاسم ، مكتبة الأنجلو المصريّة ، ١٩٦٦ .
- الدّعوة إلى الإسلام : سير توماس أرنولد ، مكتبة الأنجلو المصريّة ، ط ٢ ، سنة ١٩٥٧ .
- الدّعوة الإسلاميّة دعوة عالميّة : محمّد الرّاوي ، ط : دار العربيّة .
- دفاع عن الإسلام : لورافيشيا فاغليري ، تعريب منير البعلبكي ، دار العلم للملّاين ، ١٩٦٠ .
- دور العرب في تكوين الفكر للأوروبي : د . عبد الرّحمن بدوي ، وكالة المطبوعات الكويتيّة ، ودار القلم بيروت ، ط ٣ ، سنة ١٩٧٩ .
- روح الثّورات والثّورة الفرنسيّة : غوستاف لوبون ، ترجمة محمد عادل زعيتر ، النّاشر : عبيد إخوان بدمشق ، ١٩٢٤ .
- سيرة بالتازاركوسا ، يوحنا الثّالث والعشرين (حياته أعماله) : اليكسندر باراديسيس ، ترجمة بسام اسخطة ، دار طلاس ، دمشق (بلا تاريخ) .
- العقائد الوثنيّة في الدّيانة النّصرانيّة : محمّد طاهر التّنير ، بيروت ، ١٣٣٠ هـ .
- الغارة على العالم الإسلامي : ا . لوشاتليه ، طبعة المطبعة السّلفيّة ومكتبتها ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ .
- الغزو الفكري والتّيّارات المعادية للإسلام : من البحوث المقدّمة لمؤتّر الفقه الإسلامي ١٣٩٦ هـ ، الرّياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة ، المجلس العلمي ١٨ ، سنة ١٩٨١ .
- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا : محمد الغزالي ، دار الشّرق ، ط ١ ، سنة ١٩٥٩ .
- في طلب التّوابل : سونياي . هاو ، ترجمة محمد عزيز رفعت ، مشروع ألف كتاب (٩٨) ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، ١٩٧٥ .

القرآن الكريم والتّوراة والإنجيل والعلم (دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة) : د . مورييس بوكاي ، جمعيّة الدّعوة الإسلاميّة العالميّة ، طرابلس .

القرن الخامس عشر الهجري : التّحدّيات في وجه الدّعوة الإسلاميّة والعالم الإسلامي : أنور الجندي ، المكتبة العصريّة ، (بلا تاريخ) .

قذائف الحق : محمد الغزالي ، دار ذات السّلاسل ، الكويت ، ط ٤ ، سنة ١٩٨٠ .

قصّة الحضارة : وُل ديورانت ، دار الجليل ، بيروت .

الكتاب المقدس : دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ، سنة ١٩٨٥ .

الكتاب المقدس تحت المجهر : عودة مهاوش ، دار أنصاريان ، قم - إيران ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ .

ما الَّذي تغيّر في الحضارة الغربيّة الاستراتيجية أم التّكتيك ؟ موسى الزعبي ، دار الشّادي ، دمشق .

المثل الأعلى في الأنبياء : خواجه أفندي كمال الدّين ، ترجمة أمين محمود الشّريف ، دار الفكر بدمشق ، ط ١ ، سنة ١٩٨٩ .

محاضرات في النّصرانيّة : محمد أبو زهرة ، دار الكتاب العربي ، مصر ، ط ٣ ، سنة ١٩٦٦ .

محمد رسول الله : إيتين دينيه ، وسليم بن إبراهيم ، ترجمة عبد الحليم محمود ، ود . محمد عبد الحليم محمود ، دار المعارف بمصر .

مقارنة الأديان : د . أحمد شلبي ، مكتبة النّهضة المصريّة ، القاهرة ، ط ٨ ، سنة ١٩٨٤ .

مناهج المستشرقين في الدّراسات العربيّة الإسلاميّة : المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم ، ومكتب التّربية العربي لدول الخليج ، ١٩٨٥ .

موسوعة المستشرقين : د . عبد الرحمن بدوي ، دار العلم للملايين ، بيروت .

الهلال والصّليب : خليل خالد أفندي ، طبع في مطبعة الهداية بالقاهرة ، سنة ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ م .

ينابيع المسيحيّة : خواجه أفندي كمال الدّين ، تعريب إسماعيل حلمي البارودي ، منشورات لجنة المحقّقين ، لندن ، سنة ١٩٩١ .

يهودا الأسخريوطي على الصّليب : محمد أمير يكن ، منشورات دار أقرأ (مالطا) ، سنة ١٩٩٠ .

يوحنا المعمدان (يحيى عليه السّلام) بين الإسلام والنّصرانيّة : د . أحمد حجازي السّقا ، دار التّراث العربي ، مصر ، ط ١ ، سنة ١٩٨٧ .



المحتوى

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٥
تصدير	٩
الإسقاط الأول : الإسلام بدعة نصرانية	١٩
الإسقاط الثاني : الإسلام مقتبس من اليهودية والمسيحية	٢٨
جدول مقارنة بين كرشنا وبين يسوع المسيح	٣١
جدول مقارنة بين بوذا وبين يسوع المسيح	٣٤
رواية الآلام البابلية ورواية الآلام المسيحية	٣٨
الإسقاط الثالث : محمد بن عبد الله ﷺ طفولته غامضة	٤٠
الإسقاط الرابع : القرآن تأليف محمد ﷺ	٤٧
الإسقاط الخامس : تناقض في القرآن	٦٢
الإسقاط السادس : القرآن رؤى محمد ﷺ	٧٦
الإسقاط السابع : عقلنة الإسلام	٨٠
أسطورة تجسّد الإله في السيّد المسيح	٩٠
الإسقاط الثامن : الإسلام عدو العلم	٩٨
الإسقاط التاسع : حارب الإسلام الفلسفة	١١١
الإسقاط العاشر : حرق المسلمون الكتب والمكتبات خلال فتوحاتهم	١٢٤
الإسقاط الحادي عشر : الإسلام عدو المرأة !	١٣٢
الإسقاط الثاني عشر : الإسلام دين للعرب فقط	١٤١

١٤٧	الإسقاط الثالث عشر : انتشر الإسلام بالسيف قهراً للشعوب
١٦٢	الإسقاط الرابع عشر : نشر الإسلام الرقيق وشجّع عليه
١٧٤	الإسقاط الخامس عشر : نظام الطبقات في الإسلام
١٨١	الإسقاط السادس عشر : في فتوح الإسلام ، الغنية هي الهدف
١٩١	مقارنة بين الاستعمار وبين الإسلام
٢٠٠	أي وسام تضعه البشرية على صدرها ،
٢٠١	ساحة الإسلام أم ساحة الاستعمار ؟
٢٠٣	الإسقاط السابع عشر : تعصّب المسلمين
٢١١	الإسقاط الثامن عشر : ظلّم الأقليات غير الإسلامية في المجتمع الإسلامي وقهرها
٢١٨	الإسقاط التاسع عشر : العصور الإسلامية المشرقة عصور وسطى مظلمة
٢٢٤	الإسقاط العشرون : يعبّد المسلمون ثالوثاً ؟!
٢٣٢	خاتمة
٢٣٦	المصادر والمراجع

